قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر نابوليون

تاريخ الحضارة الأوروبية من ١٧٨٩ إلى ١٨١٥

ترجمة

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الكتاب الخامس

خاتمة المطاف

(١٨١١ - ١٨١٥)

دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع
DAR AL JIL - EDITEUR DISTRIBUTEUR

٩٤٠,٢٧

د ي ق ص

ديورانت، ول، ١٨٨٥ ـ ١٩٨١.

قصة الحضارة: عصر نابليون: تاريخ الحضارة الأوروبية من ١٧٨٩ إلى ١٨١٥، الكتاب الخامس من المجلد الحادي عشر: خاتمة المطاف ١٨١١ ـ ١٨١٥/ تأليف: ول ديورانت، اريل ديورانت؛ ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ ـ المجمع الثقافي؛ أبو ظبي ـ دار الجيل، بيروت ٢٠٠٢.

١٦٨ص.

يشتمل على ببليوجرافيات.

١ ـ فرنسا ـ تاريخ ـ نابليون الأول.

٢ ـ نابليون الأول، امبراطور فرنسا (١٧٦٩ ـ ١٨٢١).

٣ ـ الحضارة الأوروبية.

تُرجم هذا الكتاب بتكليف من المجمع الثقافي

المجمع الثقافي ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م

أبو ظبي ـ الإمارات العربية المتحدة

ص.ب: ٢٣٨٠

هاتف: ٦٢١٥٣٠٠

Email: nlibrary@ns1.cultural.org.ae

http:/www.cultural.org.ae

دار الجيل

بيروت: البوشرية ـ شارع الفردوس

ص.ب: ٨٧٣٧ (١١)

هاتف: ٦٨٩٩٥٠ ـ ٦٨٩٩٥١ ـ ٦٨٩٩٥٢

فاكس: ٦٨٩٩٥٣ (٠٠٩٦١١)

Email: daraljil@inco.com.lb

القاهرة: هاتف: ٥٨٦٥٦٥٩

فاكس: ٥٨٧٠٨٥٢ (٢٠٢)

تونس: هاتف: ٧١٩٢٣٦٤٤

فاكس: ٧١٩٢٣٦٣٤ (٠٠٢١٦)

عَصْرُ نابُولِيُون

الكتاب الخامس

الفصل الخامس والثلاثون

إلى موسكو

[١٨١١ - ١٨١٢]

١- الحصار القارّي

كان السبب المباشر للحرب الفرنسية الروسية سنة ١٨١٢ هو رفض روسيا الاستمرار في الحصار القاري الذي نصَّ عليه مرسوم برلين الذي أصدره نابليون في ٢١ نوفمبر ١٨٠٦. وكان هذا المرسوم ينطوي على خطة نابليون بإغلاق كلّ موانئ وسواحل القارة الأوروبية في وجه البضائع البريطانية، وكانت هذه الخطة تهدف إلى إجبار بريطانيا العظمى على إنهاء حصارها - الذي كانت قد أعلنته في ١٦ مايو ١٨٠٦ - على كل الموانئ الخاضعة لفرنسا من بريست Brest إلى إلبا the Elbe، ولإنهاء التدخل البريطاني في حركة التجارة الفرنسية البحرية ولاستعادة المستعمرات الفرنسية التي استولت عليها بريطانيا العظمى، ولإنهاء التمويل البريطاني لدول القارة الأوروبية التي تشن حرباً على فرنسا.

كيف كانت آلية الحصار القاري؟ بحلول عام ١٨١٠ أدى هذا الحصار النابليوني المضاد إلى تعرض إنجلترا لهبوط اقتصادي قاس. وفي العامين الأولين (١٨٠٦ - ١٨٠٨) بعد إصدار نابليون مرسوم برلين الآنف ذكره انخفضت الصادرات البريطانية من ٤٠,٨٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني إلى ٣٥,٢٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني، وانخفضت وارداتها من القطن بنسبة ٩٥٪. وكإحدى نتائج الحصار ارتفع سعر القمح (الحبوب بشكل عام) من ٦٦ شلناً إلى ٩٤ شلناً لكل ربع (كوارتر: وحدة وزن تساوي ٢٨ باونداً) (ربع الهندريدويت الذي يساوي ١١٢ باوند)، وفي غضون ما لا يزيد إلا قليلا عن عام (١٨٠٧ - ١٨٠٨). وفي هذه الأثناء أدى تدهور التجارة الخارجية إلى هبوط الأجور وانتشار البطالة وقيام الإضرابات المدمرة. لقد كانت بريطانيا تحتاج إلى الحديد السويدي لمصانعها وللأخشاب الروسية لسفنها، لكن الحرب مع السويد وتحالف روسيا مع فرنسا (١٨٠٧) أديا إلى منع هذين الموردين عنها. وناضلت بريطانيا لمواجهة هذا التقهقر بحماية من تبقّى لها من متنفسات لتجارتها،

فارتفعت صادراتها إلى البرتغال وأسبانيا وتركيا (الدولة العثمانية) ٤٠٠٪ بين عام ١٨٠٥ و ١٨١١ إلى أن أتى الغزو الفرنسي المكلّف لشبه الجزيرة الأيبيرية .

وكانت الأمور تزداد سوءا في بريطانيا كلّما استمر الحصار؛ لقد انخفضت صادراتها إلى شمال أوربا بما نسبته ٢٠٪ في عامي ١٨١٠ – ١٨١١ . وأدى تراجع ميزانها التجاري إلى ارتفاع المبالغ المدفوعة بالذهب في أوربا، كما أدى إلى انهيار قيمة الجنيه في العالم إلى درجة دفعت المعارضة ممثلة في زعيميها جرينفيل وجراي Grenville & Grey إلى المطالبة بالسلام بأي ثمن[١] . وفي سنة ١٨١١ – أي قبل عام من حرب نابليون مع روسيا – وصل تأثير حصاره القاري ذروته في بريطانيا العظمى .

وكان الحصار البريطاني لفرنسا مفيداً بشكل جوهري لها (أي لفرنسا) فرغم أن موانئ فرنسا – لي هافر Le Havre ونانت Nantes وبوردو ومارسيليا – كانت قد تعرضت لخراب اقتصادي شديد حتى إن المدينتين الأخيرتين طالبتا بعودة حكم البوربون[٢]، إلا أن التجارة الفرنسية الداخلية استفادت من إزاحة المنافسة البريطانية، واستفادت من تدفق الذهب ووفرة رأس المال، والإعانات المالية التي تقدمها حكومة رجل الأعمال التي أثْرت خزانتها بغنائم الحرب . وكانت أرباح التجار ورجال الأعمال الفرنسيين لا تزال أكثر بسبب هذه العوامل وبسبب تحسن أحوال أسواق القارة وزيادة التيسيرات فيها في ظل سيادة نابليون . وتضاعفت صناعة النسيج أربع مرات في الفترة من ١٨٠٦ إلى ١٨١٠ مما عجَّل بالثورة الصناعية – بعد ذلك – في فرنسا . وأعطى انعدام البطالة والاستقرار السياسي في نطاق الحدود الممتدة حافزاً للصناعة حتى إنه لو ربحت فرنسا الحروب النابليونية لكانت قد أدركت إنجلترا إنتاجاً وتجارة عالمية، وضارعتها .

وكان الحصار القاري (الذي فرضته فرنسا) مفيداً لصناعتها وتجارتها الداخلية، لكنه كان مُضراً بالتجارة الخارجية بالنسبة إلى دول « النظام القاري » التابعة لنابليون . فالمدن الهانسيتية – أمستردام، وهامبورج، وبريمن ولوبك Lûbeck – كان من الطبيعي أن تعاني من الحصار القاري المزدوج (المقصود الحصار القاري الذي فرضه نابليون على البضائع البريطانية، والحصار الذي فرضته بريطانيا على الموانئ والسواحل الفرنسية والتابعة لفرنسا)،

لكن سويسرا وشمال إيطاليا ومجتمعات الراين ازدهرت نتيجة امتداد المؤسسات النابليونية بشكل غير معوّق. أما كلما اتجهنا إلى الشرق (في أوربا) حيث الصناعة أقل تطورا، فإن الحصار القاري – بمنعه بيع منتجات الإقليم لبريطانيا – كان عبئاً أدى إلى زيادة الاستياء. وبطبيعة الحال، كان هذا أكثر ما يكون وضوحاً على نحو خاص في روسيا.

وكانت نقطة الضعف الأساسية في الحصار القاري (الذي فرضه نابليون) هي أنه كان معاكسا للرغبة البشرية الطبيعية في طرق كل الأبواب المؤدية إلى الكسب. لقد كانت موانئ أوربا ومدنها الساحلية غاصة بأناس كان الواحد منهم راغباً في المخاطرة بحياته لتهريب البضائع البريطانية إلى القارة، فقد أصبحت هذه البضائع جذابة بسبب منعها، وكان أصحاب الصناعات داخل القارة الذين كانوا يجدون لبضائعهم أسواقاً أجنبية غير راضين بإجبارهم على التخلي عن الأسواق البريطانية. وأدى استياء الأسر التجارية الكبيرة في هولندا إلى حدٍ دفع الملك لويس بونابرت إلى الكتابة للقيصر الروسي إسكندر «متجاوزاً الحد في انتقاد نابليون بمرارة لا ترحم»(٣).

وفي مواجهة المعارضة المتزايدة استخدم نابليون ٢٠٠,٠٠٠ دار جمارك وآلافاً من رجال الشرطة السرية أو المعروفين، وما لا يُحصى من الجنود لكشف أي خرق للحصار، والقبض على من يرتكب هذه المخالفة وعقابه ومصادرة البضائع المهربة. وفي سنة ١٨١٢ أصدرت محكمة الجمارك في هامبورج في ظرف ثمانية عشر يوماً، ١٢٧ حكماً كان بعضها بالإعدام، إلا أن الحكم بالإعدام كان على أية حال نادراً، بل وحتى أحكام الإعدام التي صدرت لم تكن تُنفَّذ. وكانت البضائع المصادرة تباع للخزانة الفرنسية، وكان بعضها يُحرق علناً مما كان ينفّر كل المشاهدين تقريبا ويسبّب استياءهم.

ولتخفيف العداء على نحو ما، ولزيادة الدخل ولسد العجز، بدأ نابليون في سنة ١٨٠٩ في بيع التراخيص، وعادة ما كان الحصول على الترخيص مقابل ألف فرنك – وذلك لاستيراد البضائع البريطانية التي يثبت ضرورتها للصناعة الفرنسية أو ضرورتها لرفع الروح المعنوية للفرنسيين، أو تصدير بضائع إلى بريطانيا مقابل البن والسكر والذهب. ورغم أن نابليون بدأ رسمياً في إصدار هذه التراخيص علناً منذ سنة ١٨٠٩ إلاّ أنه فيما يُقال كان يصدرها قبل

ذلك بمدة طويلة، وكانت بريطانيا قد سبق لها أن أصدرت تراخيص مشابهة – ٤٤,٣٤٦ منها بين ١٨٠٧ و ١٨١٢ – لإلغاء الحظر على بضائعها[٤]. إن نابليون – بالمقارنة – لم يُصدر سوى ٤٩٤ ترخيصاً بحلول ٢٥ نوفمبر سنة ١٨١١[٥]، ومع هذا فإن إسكندر أشار إلى أنه بينما يطالب نابليون روسيا بحظر دخول البضائع البريطانية حظراً تاماً فإنه – أي نابليون يتغاضى عن دخولها إلى فرنسا.

وباختصار فإن الحصار القاري الذي فرضه نابليون كان رغم تدني جماهيريته بشكل واسع، ورغم الصعوبات والأخطاء التي قامت في سبيله – يبدو ناجحاً في سنة ١٨١٠. لقد أصبحت إنجلترا على حافة الإفلاس، بل وعلى حافة الثورة المطالبة بالسلام مع فرنسا، وكانت الدول المتحالفة مع فرنسا متذمرة لكنها كانت خاضعة مطيعة، وكانت فرنسا رغم الاستنزاف المالي والبشري الذي سبَّبته الحرب الأيبيرية، مزدهرة اقتصاديا ربما كما لم تكن في أي وقت آخر مضى. ولم يكن لدى الفرنسي سوى القليل من الحرية، لكن كان لديه فرنكاته، ونصيبه من عظمة فرنسا المنتصرة، وإمبراطورها الذي لا نظير له.

٢- فرنسا في حالة ركود اقتصادي: ١٨١١

وفجأة – كما لو أن بعض القوى الشريرة كانت تُنسّق لإحداث كوارث – بدا كل الاقتصاد المتعدد الأوجه ينهار متمزقا إربا غارقاً في دوامات الفشل البنكي، والاضطرابات في الأسواق، وإغلاق المصانع والبطالة والإضرابات والتمرد بل وخطر المجاعة – كان كل هذا والإمبراطور الأعجوبة الذي لا يمل يخطط لجمع الأموال والجنود ورفع الروح المعنوية لخوض معركة حياة أو موت مع روسيا البعيدة المجهولة الواسعة.

إن أسباب ركود اقتصادي حديث يصعب تحديدها، فكيف سنحلّل أسباب الركود الاقتصادي في فرنسا في سنة ١٨١١؟ إنه لأمر أشد صعوبة، مما يظن أكبرنا سناً (ممن شهدوا الركود الاقتصادي الحديث)، وهناك مؤرخ نابه[٦] أرجع الركود الاقتصادي الفرنسي الآنف ذكره إلى سببين: (١) فشل صناعة الغزل والنسيج في فرنسا في تدبير المواد الخام ورأس المال. (٢) وفشل شركات الصرافة في لوبك Lûbeck. لقد كانت مصانع الغزل في فرنسا

تعتمد على استيراد القطن الخام إلا أن سياسة حماية المنتجات المحلية التي اتخذتها الحكومة الفرنسية قضت بوضع تعريفة جمركية عالية على مثل هذه الواردات فقلَّ الوارد وارتفعت أثمان القطن، ولم يستطع أصحاب مصانع الغزل دفع المبالغ اللازمة لتشغيل كل أنوالهم، ولم يستطيعوا دفع نسبة الربح العالية التي تفرضها البنوك الفرنسية على القروض. وشعر أصحاب هذه المصانع بضرورة الاستغناء عن المزيد والمزيد من العاملين لديهم. وسرعان ما أعقب فشل بنك لوبك إفلاسات مماثلة في هامبورج وأمستردام أثرت في الشركات والمؤسسات الباريسية. لقد زاد عدد البنوك المفلسة في فرنسا من ١٧ بنكا في أكتوبر سنة ١٨١٠ إلى ٤١ في نوفمبر من السنة نفسها، إلى ٦١ في يناير ١٨١١، وأدت ندرة القروض البنكية وارتفاع فوائدها إلى اضطرار الشركات شركة إثر أخرى إلى تقليص عدد العاملين فيها، بل وإيقاف أعمالها، وسرعان ما ازدحمت شوارع المدن الفرنسية بالعاطلين الذين راحوا يعرضون ممتلكاتهم للبيع أو راحوا يتسولون الخبز، بل وانتحر بعضهم(٧). وتكوّنت عصابات من العاطلين في المناطق الشمالية أغارت على المزارع واستولت على الغلال، وفي المدن هاجم العاطلون الأسواق والمخازن واعترضوا حمولات الطعام في الطرق والأنهار ونهبوها. لقد بدت الفوضى التي سادت عام ١٧٩٣ تعود من جديد.

وأصدر نابليون قرارات بعقوبات قاسية ضد جرائم الإخلال بالنظام العام، وأرسل الجنود لقمع المضربين، ونظم أمر توزيع الطعام مجانا. وأصدر قرارا في ٢٨ أغسطس بإرسال ٥٠٠,٠٠٠ هندريدويت من القمح و ٣٠,٠٠٠ جوال من الدقيق للمراكز ذوات الوضع الحرج. وفي هذه الأثناء خرق هو نفسه الحصار القاري بالسماح باستيراد الغلال من الخارج، ورفع التعريفة الجمركية عن المنتجات الأجنبية التي تنافس الصناعات الفرنسية، ونظّم أمر القروض الحكومية لتمكين الشركات من مواصلة التعيين (التوظيف) والإنتاج، وفي مايو سنة ١٨١٢ وضع حدا أعلى لسعر القمح تأسّياً بسوابق ثورية، لكن هذه المحاولة فشلت لأن الفلاحين منعوا منتجاتهم منه عن السوق حتى ترتفع الأسعار فيحصلوا على السعر الذي يطلبونه. وساعدت الأعمال الخيرية الخاصة الحكومة على تجنب هيجان على مستوى الأمة، فالكونت رمفورت Rumfort العالم الأمريكي البريطاني الذي كان يعيش آنئذ في فرنسا

رتب نوعاً من الحساء هو (حساء رمفورت) مكوَّناً أساساً من اللوبيا أو الفاصوليا، والبسلَّة أو الفول، وهو حساء لا تقتصر فائدته على احتوائه على البروتينات النباتية وإنما تُقلل من الحاجة إلى الخبز.

وكانت الأزمة الاقتصادية التي أطلت في أثناء استعدادات نابليون لغزو روسيا اختباراً لقوة أعصابه وربما أسهمت في إضعاف ثقته في نفسه وإضعاف قراراته، ومع هذا فلم يتخل عنه حظه الطيب، فقد كانت البشائر تشير إلى محصول وفير في سنة ١٨١٢ وثبت هذا بالفعل، فأصبح الخبز أرخص سعراً، وأصبح يمكن العاطلين – على الأقل – من أن يجدوا ما يسد رمقهم. وفتحت البنوك أبوابها مرة أخرى أو حلت محلها بنوك أخرى وتدفقت القروض وواصلت العاصمة دورها في المصانع وكان لابد من هذا وأصبح من الممكن دفع الأجور بالعمل في إنتاج بضائع قد يستغرق وصولها إلى المشتري نصف عام. وأصبحت الأسواق عامرة مرة أخرى. والآن كان في مقدور نابليون أن يكرس نفسه للحرب لإحكام الحصار القاري الذي كان قد بدأ فعلاً في الإخفاق بسبب تصرفات الأمم وطبيعة البشر.

٣- مقدّمات الحرب: ١٨١١ - ١٨١٢

استعدَّ الإمبراطوران المتخاصمان للمعركة بتحركات دبلوماسية، وتجمعات عسكرية، وتهيئة جماهيرية، وحاول كل منهما إقناع الآخر بأنه مُخلص للسلام. اختار نابليون كسفير له في روسيا أرمان دي كولينكور Armand de Caulaincourt وهو رجل تفوق قيمته مجرد أصله النبيل. وعندما وصل هذا السفير إلى سان بطرسبرج (نوفمبر ١٨٠٧) تأثر بما لحق بإسكندر من تطور من حاكم شاب حَيِي – ذلك الحاكم الذي كان قد رآه في سنة ١٨٠١ إلى قيصر كان قد أصبح مثالاً للمظهر الطيب والعادات الرشيقة والأسلوب الودود في الحديث. واعترف إسكندر أنه مُحب لنابليون وأنه لايزال متمسكاً بالاتفاقات التي عُقِدَت في تيلسيت – وأبدى بعض التوافقات الخفيفة اعتبرها الإمبراطور الفرنسي الأريب معقولة.

لكن بولندا فرَّقت بينهما. لقد كان نابليون قد أسس دوقية وارسو (فرسافا) الكبيرة (١٨٠٧) تحت الحماية الفرنسية لكن إسكندر واجه هذا بأن راح يتودَّد للنبلاء البولنديين

بعرضه عليهم إعادة بولندا مملكة موحّدة كما كانت قبل التقسيم تحكم نفسها حكماً ذاتياً مع الاعتراف بقيصر روسيا كمليك لها مهيمن على علاقاتها الخارجية. ووقعت خطابات تحوي هذا العرض في يد نابليون فاستشاط غضباً(٨)، واستدعى كولينكور (فبراير ١٨١١) وعيّن بدلاً منه جاك لو Jaques Law (ماركيز لوريستون Lauriston مستقبلاً) سفيراً لفرنسا في روسيا.

وفي هذا الشهر حثّ إسكندر النمسا على الانضمام إليه في شن هجوم على قوات نابليون في بولندا مغرياً إيّاها بمكسب عرضي - نصف مولدافيا وكل فاليشيا(٩)، ورفضت النمسا. وقد ألقى نابليون - بعد ذلك - وهو في سانت هيلانه بعض الضوء على سياسته في بولندا «لم أكن أبداً لأشن الحرب على روسيا لأخدم - ببساطة - مصالح طبقة النبلاء البولنديين»، أما بالنسبة إلى مسألة تحرير أقنان الأرض «فإنني لا أستطيع أبداً أن أنسى أنني عندما تحدثت إلى أقنان الأرض في بولندا عن الحرية، أجابوني: بالتأكيد نحن نحب الحرية كثيراً جداً، لكن من سيُطعمنا ويكسونا ويدبّر لنا سكناً؟»(١٠) وهذا يعني أنهم كانوا سيتعثرون في حالة حدوث أي تغيير مفاجئ.

ووصل كولينكور إلى باريس في ٥ يونيو ١٨١١ محملاً بالهدايا من القيصر، وحاول بكل جهده إقناع نابليون بنوايا إسكندر السلمية وحذّره من أن غزو فرنسا لروسيا قد ينتهي إلى هزيمة بسبب مناخها ومساحتها الشاسعة، وانتهى نابليون إلى أنّ كولينكور قد وقع في حب القيصر، فانتهك بذلك واجبات منصبه الدبلوماسي(١١)، وعبّأ نابليون جيشه في بروسيا أو بالقرب منها بعد أن استبعد الأمل في حل سلمي وبعد أن ساوره الشك أن روسيا تحاول كسب بروسيا والنمسا إلى جانبها(١٢)، فأرهب - أي نابليون - فريدريك وليم الثالث لتوقيع تحالف مع فرنسا (٥ مارس ١٨١٢) ألزم بروسيا بتقديم عشرين ألف جندي ينضمون إلى الجيش الفرنسي لغزو روسيا، كما ألزمها بإطعام الجيش الفرنسي عند مروره بالأراضي البروسية على أن تُخصم تكاليف الطعام من تعويض الحرب الذي كانت بروسيا لاتزال ملتزمة بدفعه لفرنسا(١٣). وفي ١٤ مارس دخلت النمسا في تحالف قَسْري مماثل مع فرنسا. وفي أبريل اقترح نابليون على السلطان (العثماني) تحالفاً يُتيح لتركيا تطوير صراعها مع

روسيا في حرب مقدسة (جهاد) وأن تتعاون مع فرنسا في مسيرة متزامنة إلى موسكو، ويستعيد الباب العالي – في حالة نجاح الحملة – ولاياته الدانوبية مع ضمان سيطرته على القرم والبحر الأسود. لكن الباب العالي وقد تذكر أن نابليون قد حارب الترك (العثمانيين) في مصر والشام، وأنه عرض في تيلسيت على إسكندر أن يتصرف كما يحلو له ضد تركيا (الدولة العثمانية) – رفض عروض نابليون، ووقع – أي السلطان العثماني – اتفاق سلام مع روسيا (٢٨ مايو ١٨١٢)، وفي ٥ أبريل وقع إسكندر اتفاقية تعاون مشترك مع السويد، وفي ١٨ أبريل عرض على بريطانيا العظمى التحالف. وفي ٢٩ مايو أعلن أن كل الموانئ الروسية مفتوحة لسفن كل الأمم. والحقيقة أن هذا الإعلان كان يعني الانسحاب من الحصار القاري (الذي فرضه نابليون) وإعلان الحرب على فرنسا.

ومع هذه المبارزة الدبلوماسية كانت تجري واحدة من أكثر الاستعدادات العسكرية في التاريخ ضخامة. وفي هذا المجال كانت مهمة إسكندر أبسط وأضيق من مهمة نابليون. لقد كان أمام إسكندر دولة واحدة كان عليه تعبئة قواتها ومشاعرها. أما تعبئة المشاعر فكادت تتم بدون مجهود منه: فروسيا الأم هبت بشكل تلقائي ضد جحافل البرابرة الذين نظموا أنفسهم وعلى رأسهم كافر وتوجهوا لغزو روسيا. وتحولت العاطفة الوطنية التي أدت فيما سبق إلى إدانة سلام تيلسيت إلى دعم ذي طابع ديني للقيصر، فحيثما ذهب تحلق حوله البسطاء رجالا ونساء يُقبّلون حصانه أو حذاءه. أما وقد وجد نفسه بهذه القوة فقد زاد من عدد جيوشه وأمرها بالاستعداد للحرب، ومرْكز ٢٠٠,٠٠٠ جندي على طوال الدفينا Dvina والدنيبر Dnieper وهما أطول نهرين يفصلان روسيا الروسية عن ليتوانيا والولايات البولندية التي حصلت عليها روسيا في أثناء تقسيم بولندا(١٤).

أما تعبئة نابليون فكانت أكثر تعقيداً. لقد واجه الصعوبة المبدئية المتمثلة في أن ٣٠,٠٠٠ جندي فرنسي واثنى عشر جنرالاً فرنسيا كانوا متورطين في إسبانيا والحاجة إليهم أكثر لمنع ويلنجتون من اجتياح شبه جزيرة أيبيريا واجتياز جبال البرانس إلى فرنسا. لقد كان نابليون يأمل العودة إلى إسبانيا ليكرر نصراً آخر كالذي كان قد أحرزه في سنة ١٨٠٩، والآن كان على نابليون أن يختار بين فقد إسبانيا والبرتغال والحصار القاري من ناحية، وفقد

التحالف الروسي والحصار «إنني أعلم أكثر من أي شخص آخر أن إسبانيا كانت سرطاناً مزعجاً كان لابد من علاجه قبل أن نستطيع الدخول في مثل هذه الحرب المرعبة التي لابد أن تكون معركتها الأولى على بعد ألف وخمسمائة ميل من حدودي»[١٥].

وكان نابليون قد بدأ استعداداته العسكرية في سنة ١٨١٠ بتقوية الحاميات الفرنسية في دانتسج (دانزج) وأوعز – بالإضافة لذلك – بحذر شديد، إلى تنظيم أمور العسكر الفرنسيين في بروسيا. وفي يناير ١٨١١ استدعى للخدمة العسكرية الذين أتى عليهم الدور في هذا العام ووزَّعهم على طول الساحل الألماني من نهر إلبا Elbe إلى نهر أودر Oder تحسباً لهجوم بحري روسي. وفي الربيع أمر أمراء كونفدرالية الراين أن يجهزوا حصتهم من الجنود المفروض تقديمها لجيوش نابليون، للقيام بعمل عسكري فعلي. وفي أغسطس بدأ في دراسة الأراضي الروسية دراسة جادة متأنية، ووقع اختياره على شهر يونيو كأفضل شهر لغزوها[١٦]. وفي ديسمبر نشر شبكة جواسيس للعمل في روسيا وما حولها[١٧].

وبحلول شهر فبراير سنة ١٨١٢ كان الطرفان قد أتما التعبئة العامة اللازمة للحرب. كانت عملية التجنيد في فرنسا تُوحي بهبوط حاد في شعبية الجيش: من بين ٣٠٠,٠٠٠ تم استدعاؤهم للخدمة اختفى ٨٠,٠٠٠ وتم البحث عن آلاف منهم باعتبارهم مجرمين[١٨] (هاربين من الخدمة العسكرية). وكثيرون من المجندين الجدد تركوا الخدمة العسكرية أو كانوا كارهين للجندية وأثبتوا – بشكل خطير – أنه لا يمكن الاعتماد عليهم في الأزمات. أما في المعارك السابقة فقد كان المجندون الجدد يجدون أمامهم القدوة والمثال الطيب الذي يدعو للفخر في التشجيع الأبوي من المحاربين المخضرمين القدماء في الحرس الإمبراطوري، أما الآن فقد كان معظم رفاق المعارك هؤلاء قد ماتوا أو كانوا في إسبانيا أو بلغ بهم العمر عتيا. فلم يعودوا قادرين على القيام بأدوار بطولية فعلية وكل ما كانوا يستطيعونه هو اجترار ذكريات بطولاتهم الماضية. بل إنه لم يكن للمجنَّدين الجُدد إلهام من أمة موحدة ومتحمسة تقف وراءهم. وقد ناشدهم نابليون كما ناشد رعاياه أن ينظروا إلى هذا المشروع كحرب مقدسة تشنها الحضارة الغربية ضد موجة غرور البربرية السلافية[١٩] لكن الفرنسيين المتشككين كانوا قد سمعوا مثل هذه الحكايات من قبل، وعلى أية حال فقد كانت روسيا بعيدة بعداً

يكفي لعدم إرهابهم. وحاول نابليون إلهاب مشاعر جنرالاته إلا أنهم لم يكادوا يُصيخون إليه سمعاً لأنهم كانوا ضد الحرب الجديدة لأنها - في رأيهم - دعوة إلى مأساة. وكان كثيرون منهم قد غدوا أثرياء بفضل هباته وكانوا راغبين أن يتركهم لينعموا بها في سلام.

وكان بعض مساعديه من الشجاعة بمكان بحيث صارحوه بشكوكهم. بل إن كولينكور رغم ولائه له وبرغم أنه خدمه حتى سنة ١٨١٤ كقيّم على إصطبله الإمبراطوري ومشرف على خيوله - حذّره من أن الحرب مع روسيا مدمرة، بل وجرؤ على أن يقول له إنه قد سبّب كل هذه المتاعب لإرضاء «ولعه الشديد» بالحرب[٢٠]. أما فوشيه Fouché الذي كان قد أُبعد عن الحضرة الإمبراطورية بسبب تآمره الشديد، كما هو مفترض فقد استدعاه نابليون مرة أخرى ليضعه تحت ناظريه أو ليتمكن من توجيهه. فوشيه Fouché هذا قال لنابليون إنه من الصعب هزيمة روسيا بسبب المناخ وإنه - أي نابليون - يفعل كل هذا بسبب حلمه المضلل بأن يحكم العالم كله - هذا إن جاز لنا أن نصدّق فوشيه هذا[٢١]. وقد شرح نابليون أنه لا يحلم إلا بإيجاد ولايات متحدة أوربية وأن يقدم للقارة تشريعات قانونية واحدة وعُملة واحدة، ونظام مقاييس وموازين واحد ومحكمة استئناف واحدة - كل هذا تحت قبعة واحدة ذات زوايا ثلاث. وهذا الجيش الهائل الذي لم يسبق له مثيل الذي بذل جهودا كبيرة لجمعه وإعداده - كيف يُعيده إلى دياره الآن ليسير خلال ما بقي له من حياة وذيله بين سيقانه؟!

لقد كان فعلاً جيشاً هائلاً: ٦٨٠,٠٠٠ مقاتل من بينهم ١٠٠,٠٠٠ فارس وما لا يُحصى من المسؤولين السياسيين والخدم والنسوة المرافقات. وكان أقل من نصف هذا العدد من الفرنسيين، أما الباقون فكانوا كتائب عسكرية مطلوبة من كل من إيطاليا، وإيليريا Illyria والنمسا وألمانيا وبولاندا. وكان هناك خمسون جنرالاً: ليفبفر Lefebvre، دافو Davout، أودينو Oudinot، ني Ney، مورا Murat، فيكتور، أوجيرو Augereau، يوجين دي بوهارنيه، الأمير جوزيف أنتوني بونياتوفسكي ابن أخي آخر ملوك بولندا الفرسان، وغيرهم. لقد تجمعت كل هذه القوى في جيوش منفصلة في نقاط مختلفة في الطريق إلى روسيا وتم تزويد كل جنرال بتعليمات محددة عن متى وأين يقود جيشه؟.

لقد كانت مهمة إعداد وتمويل هذا العدد الكبير تحتاج إلى عبقرية وصبر ومال، ربما أكثر

من مهمة جمعها (حشدها). حقيقة لقد كانت المرحلة الأولى من هذا المشروع وكذلك الأخيرة قد تأثرت بشكل حيوي بظروف نقل الجنود وتمويلهم، ولم يكن من الممكن بدء المعركة إلا بعد أن تكون التربة قد سمحت بنمو الحشائش بقدر كاف لإطعام الخيول. وكان دمار الحملة يكاد يكون تاماً باستيلاء الروس على المؤن التي كان الفرنسيون الجوعى العائدون يتوقعون وجودها في سمولنسك Smolensk. لقد حاول نابليون أن يحسب حساب كل شيء سوى الكارثة. لقد كان قد رتَّب أموره ليكون لديه مخازن للمواد وقطع الغيار الميكانيكية والطعام والملابس والأدوية في كل من وزل Wesel وكولوني Cologne وبون Bonn وكوبلنز (كوبلنتس Coblenz) ومينز (مينتس Mainz) وغيرها من النقاط في طرق جيوشه المتجمعة، وكان لابد من إمدادات شبيهة ممثلة في مئات من عربات النقل تتبعُ الغزاة إلى روسيا. وكان نابليون يعرف أين يشتري وماذا يدفع. لقد كان يعرف خداع المورِّدين، وكان مستعداً لإحراق أي تاجر يُحمِّل جيشه أكثر مما يطيق أو يبيعه بضائع رديئة أو مغشوشة.

كيف دفع تكاليف كل هذه المؤن ونقلها وخزنها وكيف دفع لجنده ومستخدميه؟ لقد فرض الضرائب وفرض على المقرضين إقراضه وأخذ القروض من بنك فرنسا ومن البنوك الخاصة، وأخذ الملايين من المبالغ الخاصة به والبالغة ٣٨٠ مليون فرنك ذهباً والتي أودعها في أقبية التوليري، وراح يقاوم الإسراف أينما كان ووبَّخ مطلّقته الحبيبة جوزفين لأنها تنفق كإمبراطورة وامتدح الإمبراطورة ماري لويز لاقتصادها في النفقات[٢٢]. وباختصار فإنه قال في وقت لاحق: «إن معركة روسيا... كانت هي الأفضل، والأكثر إتقاناً، والأكثر براعة في قيادتها، بل والأكثر منهجية (نظاماً) من بين كل المعارك التي قُدْتها»[٢٣].

أكان كفؤاً لقيادتها؟ ربما كان أكثر معاصريه كفاءة لكنه كان أقل ملاءمة مما تحتاجه مثل هذه المعركة. لقد كان في الثالثة والأربعين، وكان في هذه السن قد أَلِفَ بالفعل حياة المعسكرات وواجبات المعارك، ويمكننا أن نفترض أنه ربما كان يعاني من آلام عوَّقته في بورودينو Borodino وواترلو Waterloo (بعد ذلك): آلام في المعدة، صعوبات متوالية في التبوّل، آلام البواسير. ومع هذا فقد كان لايزال رفيقاً عادلاً وزوجاً طيباً لماري لويز وأباً مولعاً

بابنه منها. ولكنه كان قد أصبح بعد ثمانية أعوام من الحكم الإمبراطوري نافد الصبر دكتاتوراً سهل الاستثارة سريع الغضب مُغالياً في تقدير قدراته العقلية وإمكاناته السياسية. مع استثناءات كثيرة: لقد تحمل انتقادات كولينكور بفكاهة وصدر رحب. وغفر كثيراً من الأخطاء المكلّفة لإخوته وجنرالاته. وكانت تمر به لحظات ينظر فيها لنفسه نظرة واقعية: يخبرنا سكرتيره أنه في الحالات التي كان يستغرق فيها في التفكير والتأمل كنت أسمعه يشخّص وضعه وموقفه بعبارة يقول فيها «لقد شددنا القوسَ إلى منتهاه»(٢٤) لكنه قلما كان يفقد الرؤية والإحساس بالقصور. لقد قال لناربون Narbonne «وبعد كل هذا، فإن، فإن هذا الطريق الطويل [إلى موسكو] هو الطريق إلى الهند»(٢٥).

وعلى هذا ففي ٩ مايو ١٨١٢ غادر سان كلو St. Cloud قاصداً موسكو على الأقل، لقد كان كل شيء في حياته مقامرة، وكانت هذه (ذهابه بجيشه إلى موسكو) هي أكبرها.

٤- الطريق إلى موسكو: ٢٦ يونيو - ١٤ سبتمبر ١٨١٢

ألحت عليه ماري لويز أن تصحبه حتى دريسدن Dresden وأن يدعو والديها للقائهما هناك لتكون مرة أخرى مع أسرتها لفترة، وستكون هذه الفترة وجيزة على أية حال. ووافق نابليون، ووجد من الحكمة أن يدعو أيضاً فريدريك الثالث البروسي وعدداً كبيراً من الشخصيات الملكية وذوي الحيثية. لقد أصبحت مسيرته من مينز (مينتس) مُشرِّقا عبر بلاد الراين موكب نصر، إذ كان الحكام المحليون يخرجون لاستقبال سيّدهم الأعلى، وكانوا ينضمون إلى موكبه طوال تقدمه في سكسونيا. وإلى الغرب من دريسدن بأميال قليلة التقى بالملك فريدريك أغسطس الذي صحبه ومن معه إلى العاصمة، فوصلوا المدينة قبل منتصف الليل بساعة في ١٦ مايو وازدحمت الشوارع التي مرّوا بها بالناس حاملين المشاعل وهاتفين مرحبين ودقت أجراس الكنائس ودوّت المدافع بطلقات التحية(٢٦).

وفي ١٨ مايو وصل ميترنيخ مع إمبراطور النمسا وإمبراطورتها(*)، وعانقت ماري لويز

(*) هي ثالث زوجة لفرانسيس الثاني - ماريا لودوفيكا (من مودينا Modena)، وكانت ماري لويز هي ابنة زوجته الثانية ماريا تريزا (من نابلي) التي ماتت في سنة ١٨٠٧..

أباها بعاطفة جياشة وكانت سعادتها قد قلّت بسبب هواجس اعترتها بأن هذا العام مليء بالنحس. وسرعان ما أتى ملك بروسيا وولي عهدها وربما لم يكونا سعيدين وسط هذا الجو من التوافق والود بين أعداء وطنهم التاريخيين، وعلى أية حال فقد كان القيصر إسكندر قد تلقّى تأكيدات سرية بأن بروسيا والنمسا تتمنيان هزيمة نابليون(٢٧). وقام الملك فريدريك أغسطس كمضيف بتخفيف أمور السياسة بالأوبرا والدراما والصيد والألعاب النارية والرقص والاستقبالات التي كان حكام ألمانيا يقدمون فيها لنابليون فروض الولاء والطاعة (البيعة hommage) وكان هذا مبهجاً له – رغم تواضعه – وبلغ ابتهاجه الذروة.

وفي ٢٨ مايو انطلق نابليون لينضم إلى أحد جيوشه في ثورن Thorn على الفيستولا Vistula، وكانت الأوامر قد صدرت لجنرالاته للقائه عند شاطئ نهر نيمن Niemen الذي يفصل دوقية وارسو (فرسافا) الكبيرة عن روسيا. وركب هو نفسه في عربة مزوّدة بمصباح ومنضدة وأدوات كتابة وخرائط وكتب. وكانت هذه الأدوات تُنقل كل يوم في أثناء المسيرة إلى خيمته حيث كان يكتب الأوامر ويطلب من سكرتيريه نقلها لجنرالاته، وكانت هذه الأوامر تتعلق بالعمليات في صباح اليوم التالي. وقد صحبه سكرتيره العجوز مينيفال Méneval وسكرتيره الجديد نسبياً فرانسوا فان Fain وخادمه الخصوصي كونستانت طوال الطريق إلى موسكو وطوال رحلة العودة. ووصل نابليون إلى شاطئ نهر نيمن في ٢٣ يوليو فاستطلع الأحوال ولم يجد أثراً لوجود العدو على الضفة الأخرى من النهر، فأقيمت ثلاثة جسور عائمة بسرعة، وفي ٢٤ – ٢٦ يونيو عبر ٢٠٠,٠٠٠ من جنوده إلى مدينة كوفنو Kovno (الآن كاوناس Kaunas) وفي الوقت نفسه تقريباً عبر جيش فرنسي آخر مكوّن من نحو ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل النهر نفسه في أدنى المجرى عند تيلسيت (الآن سوفيتسيك Sovetsk)(٢٨) حيث التقى نابليون وإسكندر منذ خمس سنوات خلت وأقسما على أن يظلاً صديقين حتى الممات.

لقد كان إسكندر الآن في فيلنا Vilna إلى الجنوب الشرقي من كوفنو Kovno بسبعة وخمسين ميلاً. وكانت هناك عدة جيوش في انتظار أوامره: في الشمال ١٥٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة الأمير ميخائيل باركلي دي توللي Mikhail Barclay de Tolly (من أصول

إسكتلندية) وفي الجنوب ٦٠,٠٠٠ بقيادة الأمير بيوتر باجراتيون Pyotr Bagration (من جورجيا)، وفي الشرق ٤٠,٠٠٠ بقيادة الجنرال إسكندر تورماسوف Aleksandr Tarmasov . ولم تكن هذه الجيوش نداً قوياً لجيوش نابليون البالغ عددها ٤٠٠,٠٠٠ ، لكن بالانسحاب المنظّم يمكنها أن تستهلك أو تدمّر كل المؤن وموارد الطعام أو تبعدها، ولا تترك إلاّ القليل لينهبه الغزاة . وكان هناك جيش روسي آخر مكون من ٦٠,٠٠٠ مقاتل شديد البأس أصبح متاحاً الآن بعد الاتفاق مع تركيا وتوقيع معاهدة سلام معها، وكان هذا الجيش في طريقه للشمال بقيادة الجنرال بول شيخاجوف Chichagov لكن هذا الجيش كان يبعد مسيرة سبعة أيام .

وفي ٢٤ يونيو كان إسكندر هو ضيف الشرف في حفل راقص في مزارع الكونت ليفين بنيجسن Levin Bennigsen الذي سبق له أن حارب نابليون في إيلاو Eylau سنة ١٨٠٧ . وفي أثناء الحفل أفضى حامل الرسائل لقيصر بأن الفرنسيين عبروا النيمن إلى روسيا، فأخفى قيصر الخبر حتى انتهى الاحتفال . ولما عاد لمقره أصدر الأوامر لجيوشه المحلية بالانضمام معاً إن أمكن، وعليها في كل الأحوال أن تنسحب إلى المناطق الداخلية . لقد وصل الفرنسيون أسرع مما كان متوقعاً ولم تستطع القوات الروسية أن ينضم بعضها إلى بعضها الآخر لكنها راحت تتراجع (تنسحب) بنظام جيد .

وفي ٢٦ يونيو أرسل قيصر إلى نابليون طالباً فتح باب المفاوضات شريطة مغادرة القوات الفرنسية للأراضي الروسية فوراً . ولم يكن هو نفسه مؤمناً بجدوى اقتراحه، فغادر فيلنا Vilna مع جيش باركلي دي تولي Barclay de Tolly قاصداً فيتبسك Vitebsk ، وهنالك، ألح عليه ضباطه بأنه غير مؤهّل لوضع استراتيجية عسكرية، فغادر قاصداً موسكو وناشد المواطنين التضحية بالمال والدم للدفاع عن بلاد آبائهم وأجدادهم فتفاعلوا بحماس مع مناشداته فعاد إلى سان بطرسبرج وقد امتلأ شجاعة .

وفي ٢٧ يونيو بدأ نابليون وجيشه الرئيسي مسيرة طويلة — ٥٠٠ ميل — من كوفنو إلى موسكو . وحتى هذه الأيام الأولى في روسيا كانت محنة؛ إذ بلّل المطر الثقيل كل شيء ونقعه في الماء . وكان كل جندي يحمل معه طعاماً يكفيه لخمسة أيام لكنهم راحوا ينهبون

الحقول وأكواخ القرى دون مراعاة لأوامر الإمبراطور بالكف عن السلب والنهب، وكان هذا رغبة منهم في زيادة كميات الطعام لديهم أو تعزيزها بأنواع أخرى. ووصل الجيش إلى فيلنا Vilna في ٢٨ يونيو ونهبها بقدر ما يستطيع قبل وصول نابليون، وأتى (أي نابليون) وهو يتوقع أن يستقبله أهلها كمحرر، وحياه بعض اللتوانيين والبولنديين لكن آخرين قابلوه بصمت مُتجهِّم مُمتعضين مما قام به جيشه من سلب ونهب[٢٩] وأتته وفود طالبة منه أن يضمن عودة العرش البولندي، ولم يستطع أن يُلزم نفسه خوفاً من تحوّل البروس والنمساويين في حكومته عنه أو تمرد الجنود البروس والنمساويين في جيشه عليه، وطلب من الوفود تأجيل هذا الطلب إلى حين عودته منتصراً من موسكو.

وكان نابليون يأمل أن يُفاجئ في فيلنا Vilna أحد جيوش القيصر ويدمّره، لكن باركلي Barclay وجنوده كانوا قد هربوا (انسحبوا) إلى فيتبسك Vitebsk وكانت قوات نابليون تخشى ملاحقته خشية شديدة، واستمر نابليون طوال أسبوعين يستعيد النظام ويرفع الروح المعنوية للجنود، وتعكّر مزاج الإمبراطور لأحداث متوالية غير مواتية، فقد كان قد أرسل أخاه جيروم Jérôme بجيش مهم لملاحقة باجراتيون Bagration في الجنوب، وفشل جيروم في الإيقاع بفريسته فعاد إلى الجيش الفرنسي الرئيسي فوبّخه نابليون لإجراءاته البطيئة وقيادته المتراخية فسلّم القيادة وانسحب إلى بلاطه في وستفاليا[٣٠].

وفي ١٦ يوليو قاد نابليون جيشه الذي أُعيد إنعاشه وتمويله خارج فيلنا Vilna في مسيرة بلغ طولها ٢٥٠ ميلاً إلى فيتبسك Vitebsk. وكان يخطط أن يلحق هناك بجيش باركلي دي تولي Barclay de Tolly لكن الإسكتلندي (المقصود: ذو الأصول الإسكتلندية) البارع كان بالفعل قد تقدم في الطريق إلى سمولينسك Smolensic ولم يستطع نابليون ملاحقته إلى أبعد من فيتبسك لأنه (أي نابليون) كان قد أمر بإرسال دعم ومؤن لجيشه في فيتبسك، فلا شيء يمكن به إجبار إسكندر على الإذعان لشروطه (شروط نابليون) سوى الاستيلاء على عاصمة روسيا المقدسة والعريقة.

وبعد أن قضى نابليون خمسة عشر يوماً في فيتبسك قاد جيشه في ١٣ أغسطس آملاً أن يلحق بجيش باركلي Barclay في سمولنسك التي كانت مركزاً مزدحماً بالسكان وكانت

المناطق المحيطة بها ذات تربة خصبة وتقع على نهر الدنيبر Dnieper فازدهرت تجارتها وصناعتها وكانت محصنة بشكل جيد حتى إن باركلي Barclay وباجراتيون Bagration بعد أن وحّدا جيشيهما قررا مواجهة نابليون فيها أو على الأقل إيقاف تقدمه.

ووصل الفرنسيون في ١٦ أغسطس مُنهكين بسبب مسيرتهم الطويلة وقل عددهم بسبب من مات منهم وبسبب فرار الجنود إذ بلغ عدد من مات أو فرّ ١٦٠,٠٠٠ رجل(٣١). ومع هذا كان الهجوم الفرنسي عنيفاً وفعّالاً، وفي ليل ١٧ أغسطس اشتعلت المدينة بالنار سواء بسبب المدفعية الفرنسية، أو بفعل الروس أنفسهم يأساً منهم، وكان هذا مبعث بهجة لنابليون ولذوقه الجمالي إذ قال متسائلاً لمسؤول خيوله (كولينكور): «ألا ترى هذا المشهد بهيجاً؟» فأجابه: «هذا مرعب يا سيدي» فقال له نابليون: «ياه!! تذكّر ما قاله إمبراطور روماني: «رائحة جثة العدو رائحة زكية دائماً»(٣٢). وفي ١٨ أغسطس أرسل الإمبراطور إلى موريه Moret وزير الشئون الخارجية تقريرا لرفع الروح المعنوية في باريس: «لقد استولينا على سمولنسك Smolensk ودون أن نخسر رجلاً واحداً»(٣٣) لكن تقريراً آخر لمؤرخ إنجليزي ذكر أن الفرنسيين خسروا في هذه المعركة ما بين ٨٠٠٠ و ٩٠٠٠ رجل أما الروس فخسروا ٦٠٠٠(٣٤). وكان من المحال تعويض الخسارة الفرنسية (بقوات أخرى)، وتراجعت الجيوش الروسية إلى المدن. ومناطق تجمع المياه Pools الموالية للجيش الروسي حيث يمكن تجنيد مزيد من الرجال.

وفي ٢٠ يوليو – بعد أن استاء القيصر من خلافات جنرالاته وتكتيكاتهم – قرر أن قواته المسلحة في حاجة إلى قيادة واحدة، فعين في منصب القائد العام ميخائيل إلارينوفيتش كوتوزوف Mikhail Ilarionovich Kutuzov (١٧٤٥ – ١٨١٣) الذي كان قد حقّق شهرة بسبب قيادته الناجحة في كثير من المعارك. لقد كان قد بلغ الثالثة والستين من عمره كسولاً قعيداً سميناً لدرجة أنه كان يتعين نقله إلى المعسكر أو ميدان المعركة في عربة، وكان قد فقد إحدى عينيه وكانت الأخرى معتلّة وكان – شيئاً ما – داعراً، دُبّاً مع النساء، لكنه كان قد تعلّم فن الحرب خلال خمسين عاما من الممارسة الفعلية، واستاءت كل روسيا لهذا التعيين. لقد استاء كل الناس تقريباً بمن فيهم نابليون بسبب تجنبه المواجهة العسكرية وأمره

بمزيد من الانسحاب (أمره بالانسحاب إلى مناطق داخلية أبعد)

وعالج نابليون التوقُّف عن المطاردة بأن جعل من سمولنسك Smolensk مركزاً حصيناً في وسط روسيا وقضى الشتاء هناك وحافظ على خطوط مواصلات – تحميها قواته – مع غرب أوربا، لكنه الآن قد وجد نفسه في موقف غير متوقع بالمرّة: جيشه غير منضبط بسبب الانقسامات العرقية (لم يكن جميع أفراده من الفرنسيين) وانهيار النظام فيه حتى أنه – أي نابليون – وجد أكثر أماناً أن يواصل المسيرة حيث يؤدي الخوف من هجوم العدو إلى تماسك جيشه. لقد قال للجنرال سيباستياني Sébastiani: « هذا الجيش لا يمكن أن يتوقف الآن.. فالحركة وحدها هي التي تجعله على قلب رجل واحد. إن المرء يمكنه أن يتقدم على رأسه، لكن دون توقف أو تراجع »(٣٥) وعلى هذا فبعد منتصف ليلة ٢٥ أغسطس بقليل – أي بعد أسبوع واحد من الاستيلاء على المدينة – غادرها بجنوده في طريق حار ومترب إلى فيازما Viazma وجازهاتسك Gazhatsk... وموسكو – التي تبعد مسيرة ثلاثة أسابيع. وكان مورا Murat على رأس قوات الخيّالة (الفرسان) قد راح يرفع الروح المعنوية لقواته بطيش مرح بأن راح – وقواته – يحاربون للخلف (يتراجعون) لمواجهة أي هجوم من مؤخرة الجيش الروسي المنسحب. وقد وصفه نابليون في وقت لاحق:

« إنه لا يكون شجاعاً إلاّ في حضور العدو، وفي هذه الحال تجده أشجع رجل في العالم. لقد أدت به شجاعته الطائشة (المتهوّرة) إلى وضع نفسه وسط الأخطار. لقد كان وقتها مُثقلاً بالذهب والريش فوق رأسه فبدا كبرج الكنيسة. لقد نجا باستمرار – كما لو كان ذلك بفعل معجزة – لأنه كان معروفاً بلباسه. لقد كان هدفا دائماً للعدو، واعتاد القوزاق الإعجاب به بسبب شجاعته المدهشة »(٣٦).

وفي الخامس من سبتمبر، وبينما كان الجيش الفرنسي يقترب من بورودينو Borodino (لازال هناك خمسة وسبعون ميلاً للوصول إلى موسكو) وصلت طليعة الجيش إلى قمة تل فرأوا في السهل أمامهم منظراً أبهجهم وأحزنهم: مئات من المتاريس والحواجز الدفاعية المكتملة يمكن أن تختفي وراءها المدافع، وإلى الأبعد من السهل حيث يلتقي نهرا كالاشا Kalacha وموسكفا Moskva آلاف الجند. من الظاهر أن كوتوزوف Kutuzov قرر المواجهة.

وطوال السادس من سبتمبر ظل الجيشان يستعدان للمعركة. وفي هذا الليل البارد الرطب كان من الصعب أن ينام أحد. وفي الثانية صباحاً أرسل نابليون بياناً ليُقرأ على جنوده، مصحوباً بترجمة إلى اللغات التي يتحدث بها جنوده غير الفرنسيين: «أيها الجنود! ها هي المعركة التي طال انتظاركم لها. الآن، النصر يعتمد عليكم إنه آتٍ لا ريب. إنه سيتيح لنا رخاء ومنتجعا شتوياً طيباً وعودة باكرة إلى بلاد آبائنا وأجدادنا» [٣٧] وفي هذه الليلة - وبناء على أوامر كوتوزوف Kutuzov - حمل القسسُ المصاحبون للجيش الروسي أيقونة «العذراء السوداء Black Virgin» وطافوا بها في المعسكرات وكانت هذه الأيقونة قد تم إنقاذها من حريق سمولنسك (الآنف ذكره) وركع الجنود ورسموا شارة الصليب وتجاوبوا مع القسس وراحوا يدعون «الله رحيم» وانحنى كوتوزوف ليقبِّل الأيقونة[٣٨].

وفي نحو هذا الوقت أتى حامل الرسائل لنابليون بخطاب من ماري لويز مع صورة جانبية حديثة لابنهما البالغ من العمر عاما واحدا، كما وصلت إليه أخبار مفادها أن جيشه عانى هزيمة عصيبة على يد ويلنجتون Wellington في سالامانكا Salamanca، وقضى نابليون جانباً كبيراً من الليل يصدر التوجيهات لضباطه فيما يتعلق بتكتيكات الصباح. ولابد أنه كان من الصعب عليه أن ينام لأن عُسر البول كان يسبب له آلاماً، وكان لون بوله متغيراً بشكل ينذر بالخطر وكانت ساقاه متورمتين مع استسقاء وكان نبضه ضعيفا غير محسوس بشكل متتابع[٣٩].

ورغم هذا فقد أرهق ثلاثة خيول في اليوم الأول من المعركة إذ راح يتنقل من جانب إلى آخر في جيشه[٤٠]

لقد كان نابليون يقود ١٣٠,٠٠٠ رجل مرهق، أما كوتوزوف فكان على رأس ١٢٠,٠٠٠، وكان مع الجيش الفرنسي ٥٨٧ مدفعاً بينما كان مع الروس ٦٤٠. وطوال السابع من سبتمبر راحت هذه الألوف المؤلفة من الجيش تحارب بعناد وبطولة، يقتلون ويُقتلون وقد شملهم الخوف والكراهية، وكان كلا الطرفين يحاربان ببطولة وكأنما كانا يشعران أن مصير أوروبا سيتحدد بنتيجة المعركة. وضحّى باجراتيون Bagration بحياته، وفقد كولينكور في هذه الحرب التي سبق له أن عمل لمنعها أخاه الحبيب، وواجه يوجين

ودافو Davaut وموراً الموت مئات المرّات، وفاز نَي Ney في ميدان المعركة من نابليون بلقب أمير موسكو Moskva هذا اللقب الأثير المغري، لقد كان النصر عواناً بين الجانبين المتقاتلين وعندما حلّ الليل انسحب الروس بهدوء وظل الفرنسيون سادة الميدان لكن نابليون اعتبر النصر أبعد ما يكون عن أن يكون أكيداً. وأرسل كوتوزوف إلى إسكندر تقريراً فخوراً حتى إن كاتدرائيات سان بطرسبرج وموسكو قدّمت ابتهالات الشكر للرب. لقد فقد الفرنسيون ٣٠,٠٠٠ ما بين قتيل وجريح أما الروس ففقدوا ٥٠,٠٠٠[٤١].

وفي البداية، في ٨ سبتمبر فكر كوتوزوف في تجديد المعركة لكن عندما علم بعدد قتلاه وجرحاه شعر أنه لا يستطيع تعريض جنوده الباقين لمذبحة مماثلة ليوم آخر، فواصل سياسة التراجع ومن الآن فصاعداً سيواصل هذه السياسة حتى النهاية. وفي ١٣ سبتمبر أمر بإخلاء موسكو، وفي ١٤ من الشهر نفسه انطلق محزوناً إلى حيث لا يدري الخطوة التالية.

وفي هذا اليوم وصل نابليون ومن تبقى معه (٩٥,٠٠٠ مقاتل)[٤٢] إلى بوابات موسكو بعد مسيرة ثلاثة وثمانين يوماً من كوفنو Kovno ووصلته رسالة من الجنرال ميلورادوفتش Miloradovich قائد حامية موسكو بوقف إطلاق النار في أثناء خروجه ورجاله من المدينة فوافق نابليون، وانتظر نابليون قدوم ذوي الحيثيَّة في المدينة ليقدموا أنفسهم له ويطلبوا منه الحماية لكن أحداً منهم لم يأتِ. وعندما دخل المدينة (موسكو) لاحظ أن أحداً من ساكنيها لم يبق فيها «خلا آلاف قليلة من الطبقات الدنيا»[٤٣]. لقد بقي بعض البغايا طمعاً في الفرنكات وكن مستعدات لتقديم المطلوب مقابل المأوي والغذاء. وكان نابليون قد أحضر معه حملاً من أوراق البنكونت الروسية المزيَّفة ورفضها الروس فأحرقها نابليون[٤٤]. وجال المنتصرون في المدينة ونهبوا القصور ومزارع الريف المحيطة بالمدينة وحملوا النبيذ والأمتعة (خاصة الأعمال الفنية).

وكان مقدراً لهذه الأعمال الفنية أن تُفقد (بالبيع أو خلافه) عملاً إثر عمل، في أثناء طريق العودة.

وفي ١٥ سبتمبر تحرك نابليون إلى الكرملين وراح ينتظر أن يطلب إسكندر السلام. وفي المساء بدأت موسكو تحترق.

٥- موسكو تحترق: ١٥ - ١٩ سبتمبر ١٨١٢

لقد «أعجب نابليون بجمال المدينة المهجورة إذ أخبر لاكاس Las Cases: «إنها من كل الزوايا يمكن مقارنتها بأي عاصمة أوروبية بل إنها تفوق في جمالها معظم هذه العواصم»[٤٥]. إنها أضخم مدن روسيا. إنها المدينة المقدسة أو العاصمة الروحية للروس، وبها ٣٤٠ كنيسة تزين السماء بقبابها الكبيرة. وقد نجت معظم هذه الكنائس من الحريق لأنها كانت مشيّدة بالحجارة، أما المساكن فكان معظمها من الخشب. لقد دمرت النيران ١١,٠٠٠ منزل كان بعضها (٦,٠٠٠ منزل) من مواد مقاومة للنيران.

وقد شاهد الفرنسيون الداخلون للمدينة بعض هذه النيران فهرعوا لإطفائها، لكن نيراناً أخرى سرعان ما كانت تشتعل، وانتشرت النيران بسرعة حتى أحالت ليل ١٥ سبتمبر إلى نهار ونبهت النيران خدم نابليون الذين كانوا يحرسونه في أثناء نومه، فأيقظوه، فأمر فرقة الإطفاء في جيشه بالعمل على إخمادها ثم عاد إلى سريره، وفي صباح ١٦ سبتمبر طلب يوجين مورا من نابليون مغادرة المدينة مخافة أن تُشعل إحدى شرارات الحريق مخازن البارود التي أقامها الجيش في الكرملين Kremlin فقاوم طلبهم كثيرا، لكنه رضخ أخيراً وركب معهم خارجاً من المدينة تتبعه عربات محملة بالسجلات والمواد. وخمدت النيران في ١٨ سبتمبر بعد أن دمرت ثلثي موسكو، فعاد نابليون إلى الكرملين.

من كان مسؤولاً عن هذا الحريق؟ لقد كانت سلطات المدينة قبل مغادرتها قد أطلقت سراح المسجونين[٤٦] وقد يكون هؤلاء هم الذين أشعلوا النيران في المدينة في أثناء نهبهم لها، وربما كان بعض الفرنسيين غير مبالين في أثناء السلب والنهب مثلهم مثل السجناء المطلق سراحهم والآنف ذكرهم، فتسببوا هم أيضاً في إحداث حرائق[٤٧]. ووصلت تقارير كثيرة لنابليون في ١٦ سبتمبر تُفيد أن حملة مشاعل كانوا منتشرين في موسكو وكانوا يُشعلون النار عمداً، فأمر بأن من يُقبض عليه من هؤلاء المحرقين عمداً لابد من إطلاق النار عليه أو شنقه، وتم تنفيذ هذه الأوامر بالفعل. وتم القبض على أحد هؤلاء المحرقين - وكان رجلاً من الشرطة الحربية الروسية - وهو يشعل النيران في برج الكرملين فدافع عن نفسه بأنه كان ينفّذ الأوامر، فتم تحويله لمقابلة نابليون، وتم بعد ذلك قتله في الساحة[٤٨]. ودافع عدد

من الروس المقبوض عليهم بتهمة الإحراق عن أنفسهم بأنهم تلقوا أوامر بذلك من حاكم موسكو الذي غادرها، الكونت روستوبشين Rostopchin(٤٩). وفي ٢٠ سبتمبر كتب نابليون لإسكندر:

«لم يعد لمدينة موسكو الفخورة الجميلة وجود. لقد تسبب روستوبشين في إحراقها. لقد تم القبض على أربعمائة من المحرقين عمداً وقد أقروا جميعاً بأنهم تلقوا أوامر بذلك من الحاكم مدير الشرطة. وقد تم إطلاق النيران عليهم. لقد دُمرت ثلاثة أرباع المنازل. إنه عمل لا جدوى منه كما أنه عمل آثم شرير. هل المقصود حرماننا مِن المؤن؟ إنها في مخازن لم تطلها النيران. يا له من هدف تافه، أَتُدمَّر من أجل هذا جهود قرون خلت وإحدى أجمل المدن في العالم! لا يمكنني أن أصدّق هذا. أهذا يتفق مع مبادئكم ومشاعركم وأفكاركم عمّا هو حق؟! أهذا الاسفاف جدير بحاكم عادل وأمة عظيمة؟.

لقد قمتُ بشن الحرب على عظمتكم دون أية مشاعر عدائية. لقد كان خطاب واحد منكم قبل هذه المعركة الأخيرة أو بعدها كفيل بإيقاف أي تقدّم للجيش الفرنسي، بل لقد كنت قد تخلّيتُ راغباً عن احتلال موسكو، لو كنتم عظمتكم مازلتم تحتفظون لي ببعض المشاعر التي كنتم تكنونها لي سابقاً، لفسّرتم هذا الخطاب تفسيراً حسنا. وعلى أية حال فإنه لا يمكنكم إلا الموافقة على أن ما ذكرته عن حَرْق موسكو صحيح»(٥٠).

ولم يجبه إسكندر، لكنه أجاب الضابط الروسي المكلّف بإبلاغه خبر حرق موسكو إذ سأله عمّا إذا كان هذا الحدث (حرق موسكو) قد أثّر في معنويات جيش كوتوزوف Kutuzov فكانت إجابة الضابط هو أن أخشى ما يخشونه أن يعقد القيصر اتفاق سلام مع نابليون. وقيل إن إسكندر أجابه قائلا: «قل لرجالي الشجعان أنه عندما لا يبقى لدي إلاّ جندي واحد فسأضع نفسي على رأس نبلائي وفلاحي لأقاتله. وإذا قدّر القدر أن ينتهي حُكم أسرتي فسأترك لحيتي تنمو حتى صدري وسأتجه إلى سيبريا لآكل البطاطس، فهذا أفضل من إلحاق العار بوطني ورعاياي الطيبين»(٥١).

ورحب الشعب الروسي بقراره لأن الاستيلاء على موسكو، وحرقها قد صدمهم ولمس أعمق أعماق مشاعرهم الدينية. لقد كانوا يوقِّرون موسكو كحصن لعقيدتهم الدينية،

وكانوا ينظرون إلى نابليون كملحد عديم الضمير، واعتقدوا أن همجيّته الوافدة هي التي أحرقت المدينة المقدّسة. لقد اعتبروا إسكندر مذنباً لأنه قبل في وقت من الأوقات صداقة مثل هذا الرجل (نابليون)، وفي بعض الأوقات كانوا يخشون أن يستولي هذا الشيطان الحي على سان بطرسبرج أيضاً ليذبح ملايين من الروس. وكان بعض النبلاء يفضلون إبرام تسوية مع نابليون لإخراجه من روسيا مخافة أن يثير الأقنان (عبيد الأرض) ويحرّرهم في أي وقت، لكن معظم المحيطين بإسكندر كانوا يحثّونه على المقاومة. وكان الأجانب المحيطون: شتاين Stein، أرندت Arndt، مدام دي ستيل De Stael والعديد من المهاجرين الفرنسيين الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية - كانوا يردّدون معه أنه مع تطور المعركة سيجد نفسه (أي إسكندر) ليس قائداً لبلاده فقط وإنما أيضاً زعيما لأوربا والمسيحية والحضارة. ورفض إسكندر الإجابة عن ثلاث رسائل أرسلها له نابليون من موسكو عارضاً عليه السلام. ولما وجدت الأرستقراطية الروسية أن الأسابيع تمضي أسبوعا بعد أسبوع دون أن يحرك نابليون ساكنا ودون مزيد من العمليات، بدأوا يفهمون حكمة كوتوزف Kutuzov في عدم التحرك، ووطّنوا أنفسهم على حرب طويلة، ومرّةً أخرى راحت قصور العاصمة تتألق بالكونتيسات اللائي تزيّن ملابسهن المجوهرات، وبالضباط بحللهم الرسمية الفخورة يتحركون بثقة راقصين على أنغام الموسيقا التي لم تشعر أبداً بالثورة.

وبعد أن خمدت النيران في موسكو أمر نابليون رجاله بالعناية بالجرحى أو المعدمين (الذين لا يجدون قوتاً) بصرف النظر عن أعراقهم[٥٢]، واتخذ الترتيبات لخزن المؤن التي تركها المواطنون الروس أو استهلاكها على وفق نظام خاص. وكان نابليون يجيب عن الرسائل والاستفسارات التي يحضرها حاملو الرسائل من بلاد رعاياه، وقد راح يفخر في وقت لاحق بأنه طوال إقامته في موسكو لم يقع واحد من حاملي الرسائل - وكانوا يصلون إليه يومياً - في أيدي الأعداء طوال مراحل الطريق[٥٣]. وأعاد نابليون تنظيم جيشه كما أعاد تجهيزه باللازم، وحاول أن يجعل جنوده في حالة قتالية جيدة بالمداومة على التدريبات. لكن جنود الجيش الفرنسي ملّوا هذه العروض. لقد كانت الحفلات الموسيقية والمسرحيات يقدمها الموسيقيون الفرنسيون الذين كانوا مستقرين في موسكو (قبل الغزو الفرنسي)[٥٤]،

ووجد نابليون الوقت الذي يجعله يصدر أمراً مفصّلاً بإعادة تنظيم مسرح الكوميدي فرانسيز Comédie Française في باريس.

ومضى شهر ولم تصل لنابليون كلمة واحدة من إسكندر. وتذمّر نابليون قائلا: «إنني أضرب (أهزم) الروس كل يوم، لكن هذا لم يحدث لي في أي مكان»[٥٥] سبتمبر بارد ويأتي بعده أكتوبر وسرعان ما يحلّ الشتاء الروسي. وأخيراً وبعد أن يئس من رد يأتيه من القيصر، أو تحدٍ من كوتوزوف Kutuzov، وبعد أن تحقق من أن كل يوم يمضي يكون موقفه فيه أسوأ - استسلم لقرار أشد مرارة: أن يعود بخفّي حنين (خاوي الوفاض) أو ببعض الأشياء التذكارية القليلة.. لقد قرر العودة إلى سمولنسك، فڤيلنا Vilna فوارسو (ڤرساڤا)... وأخيراً ليصل إلى باريس. أي نصر هذا؟ أيمكن لمثل هذا النصر أن يُزيل عار الهزيمة؟!

٤- طريق العودة: ١٩ أكتوبر - ٢٨ نوفمبر ١٨١٢

لم يبق إلاّ أمل واحد. لقد كان كوتزوف Kutuzov قد جمّع مؤناً في كالوجا Kaluga إلى الجنوب الغربي من موسكو بتسعين ميلاً. وفكر نابليون في التوجه إلى هناك وأن يجبر الجنرال الماكر للدفاع عن هذه المخازن، فإن انتصر الفرنسيون نصراً حاسماً فقد يُجبر النبلاء الروس القيصر إسكندر على التوسّل لاتفاق سلام. وأكثر من هذا فإن كالوجا Kaluga كانت على طريق آخر مؤد إلى سمولنسك غير الطريق الذي كان الغزاة قد أتوا منه، وفي اتخاذ هذا الطريق تجنب للذكريات الأليمة عند المرور ببورودينو Borodino حيث كان قد مات كثير من رفاق الحرب. وصدرت الأوامر بالاستعداد لإخلاء موسكو.

وعلى هذا ففي ١٩ أكتوبر بدأ جيش نابليون (٥٠,٠٠٠ جندي و ٥٠,٠٠٠ من غير المقاتلين) في الخروج من موسكو. وكانت عربات التحميل تحوي مؤناً لعشرين يوماً، وهو وقت يكفي للوصول إلى سمولنسك حيث صدرت الأوامر بتجهيز مؤن طازجة لهم فيها[٥٦]. وكانت هناك عربات أخرى تضم المرضى أو الجرحى وبعض الأشياء التذكارية الثقيلة وذهب نابليون المتناقص.

وفي مالورياروسلافتش Maloyarosalvets – على بعد خمسة وعشرين ميلاً من كالوجا Kaluga اتصل الفرنسيون اتصالاً مباشراً بجيش كوتوزوف، وأعقب ذلك حركة (عملية حادة (٢٤ أكتوبر) مما أجبر الروس على الانسحاب خلف دفاعاتهم في كالوجا Kaluga. وقرر نابليون أن جيشه ليس مجهزاً لحصار طويل، فأمر رجاله – وهو كاره – باتخاذ طريقهم عبر بوروفسك Borovsk وموزهايسك Moshaisk إلى بورودينو Borodino، وليتخذوا بعد ذلك الطريق الذي كانوا قد اتبعوه في فصل الصيف حيث كانوا مفعمين بالأمل. وعلى أية حال فإن شيطان كوتوزوف قد جعله الآن يحث جيشه على المسير في طريق مواز لطريق عدوّه مراعيا – بشكل مراوغ – أن يكون بعيداً عن نظره عدوّه، لكنه راح بين الحين والآخر يرسل فصائل من الفرسان القوزاق الأشداء لإزعاج جناحي الجيش الفرنسي وراح الفلاحون السعداء يطلقون النار على الفرنسيين المنتشرين في غير نظام والذين غامروا بالابتعاد عن خط سير الجيش البالغ ستين ميلاً[٥٧].

وكان نابليون محميّاً بشكل جيد اللهم إلاّ من خطر طارئ.. وكان حاملو الرسائل يجلبون إليه في أثناء مسيرته أخباراً عن نزاعات شديدة تهدّد حكومته في باريس وثورات في الأراضي (البلاد) التابعة له. وفي ٢٦ أكتوبر بعد خروجه من موسكو بأسبوع سأل كولينكور عما إذا كان يجب عليه (أي يجب على نابليون) أن يتجه مباشرة إلى باريس ليواجه السخط الناجم عن هزيمته ويسيطر عليه، وليقيم جيشاً جديداً للدفاع عن القوات الفرنسية التي تركها في بروسيا والنمسا، فنصحه كولينكور بالذهاب[٥٨]. وفي ٦ نوفمبر وصلت أخبار مُفادها أن كلود – فرانسوا دي ماليه de Malet – وهو جنرال في الجيش الفرنسي – قد أطاح بالحكومة الفرنسية في ٢٢ أكتوبر وأنه لقي دعما من أشخاص بارزين لكنه خُلِع وتمّ إطلاق النار عليه (٢٩ أكتوبر) فتأكد العزم لدى نابليون بضرورة التوجه إلى باريس.

وكلما أوغل الفرنسيون في طريق العودة كان الطقس يزداد سوءاً. لقد تساقط الثلج في ٢٩ أكتوبر وسرعان ما كوّن غطاء دائماً – جميلاً وممتعاً، وتحول في الليل البارد إلى جليد انزلقت فوقه الخيول التي تجر العربات وسقطت، وكان بعض هذه الخيول منهكا بدرجة

استحال معها قيامها من جديد وكان لابد من تركها، ومع طول مسافة المسيرة راح الجنود يأكلون مثل هذه الضحايا (الخيول الساقطة أو النافقة) لكن معظم الضباط حافظوا على حياة خيولهم برعايتها وتغطيتها. وكان الإمبراطور (نابليون) يركب بعض الوقت في عربته مع المارشال بيرثييه Berthier لكنه كان يسير مع الباقين مرتين أو ثلاثاً في اليوم أو أكثر من هذا على وفق رواية مينيڤال Méneval(٥٩).

وفي ١٣ نوفمبر بدأ الجيش الذي تقلّص عدده الآن إلى رقم إجمالي هو ٥٠,٠٠٠ – في دخول سمولنسك، وانتابهم الرعب عندما وجدوا أن معظم الطعام والكساء الذي كان نابليون قد أمر بتجهيزهما قد فقدا نتيجة غارات القوزاق والاختلاس، ومن ثمَّ تم عرض ألف ثور مخصصة للجيش لبيعها للتجار الذين قاموا بدورهم بعرضها على أي مشتر(٦٠)، وحارب الجنود للحصول على ما تبقى من التموينات واستولوا بالقوة على كل ما وجدوه في الأسواق.

وكان نابليون راغباً في إتاحة فترة راحة طويلة لجنوده في سمولنسك لكن أخباراً وصلته باقتراب كوتوزوف على رأس ٨٠,٠٠٠ روسي لم يعودوا راغبين – بعد – في الانسحاب، ولم يكن مع نابليون من الصالحين للقتال سوى ٢٥,٠٠٠(٦١). وفي ١٤ نوفمبر قاد جزءا من قواته في الطريق إلى كراسنو Krasnoe مستخدماً طريقاً إلى فيلنا Vilna غير الطريق الذي سبق له استخدامه في الصيف. وكان على داڤو Davout أن يتبعه في ١٥ نوفمبر، وني Ney في ١٦ من الشهر نفسه. وكان الطريق جبلياً ومغطى بالجليد، ولم تكن الخيول ذوات حدوات (جمع حدوة) تمكنها من التقدم في هذا الشتاء الروسي فانزلجت فوق التلال وفشلت كل الجهود لإقامة مئات منها، وفضلت الموت باعتباره رحمة في ظل هذه الظروف بل إن رجالاً كثيرين فضلوا هذا الحل تخلصاً من المتاعب. وذكر جندي بعد ذلك أنه « طوال الطريق كنا مضطرين للخطو فوق ميّت أو محتضر »(٦٢) فعند المنحدرات الجليدية لهذه التلال لم يكن أحد يجرؤ على الركوب أو السير على قدميه، فالجميع بمن فيهم الإمبراطور (نابليون) كان يتزلج وهو جالس، كما سبق لقلّة منهم أن فعلت عند عبور جبال الألب إلى مارنجو Marengo منذ اثنتي عشرة سنة خلت. لقد كانت أياماً تعادل سنوات من عمر

القائد ورجاله. ويبدو أنه عند هذه النقطة حثّ نابليون الدكتور يفان Yvan على أن يعطيه قنّينة سم يحتفظ بها معه ليستخدم سمّها إذا أسره العدو أو لأي سبب آخر يجعله يود إنهاء حياته.

ووصل الفرنسيون كراسنو Krasnoe في ١٥ نوفمبر لكنهم لم يستطيعو أن ينالوا قسطاً من الراحة، فقد كان كوتوزوف Kutuzov يقترب بقوات يفوق عددها قوات نابليون بشكل كبير، فأمر نابليون رجاله بمواصلة الطريق إلى أورشا Orsha، وقاد يوجين المسيرة ليحارب بين الحين والحين العصابات المسلحة التي تعترض الطريق، وتبعه الإمبراطور (نابليون) ودافو Davout. ووصلوا أورشا Orsha بعد ثلاثة أيام أخرى من المشي على الجليد، وانتظروا هناك بقلق وصول ني Ney بالجزء الثالث من القوات الفرنسية.

وكان ني Ney هو نجم الجيش المتألق في هذا الوقت، كما كان في بورودينو Borodino. لقد قاد رجاله البالغ عددهم ٧٠٠٠ رجل باعتباره حارساً لمؤخرة الجيش الفرنسي، وخاض اثنتي عشرة معركة لحماية الجيش الفرنسي في أثناء انسحابه من هجوم المغيرين من رجال كوتوزوف، ودخل هو ورجاله سمولنسك أخيراً في ١٥ نوفمبر وصُدِموا لاكتشافهم قلة الطعام الذي تركه نابليون وديفو عند مغادرة المدينة، فاسرع برجاله رغبة في البقاء على قيد الحياة إلى كراسنو Krasnoe، فلم يجدوا نابليون كما سبق أن وعدهم وإنما وجدوا كوتوزوف الذي سد طريقهم بنيران مدفعيته المهلكة، وفي جُنح الليل (١٨ - ١٩ نوفمبر) قاد ني Ney جنوده على طول مجرى متجمد إلى نهر دنيبر Dnieper وعبره وتكبد في أثناء عبوره خسارة في بعض رجاله وخيوله وراح يحارب في أثناء مسيرته القوزاق كما حاربهم فوق المستنقعات المتجمدة ليصل إلى أورشا Orsha في ٢٠ نوفمبر، وهنالك رحَّب نابليون والجيشان المنتظران بالأبطال الجائعين بالمديح وبالطعام. وعانق نابليون جنراله ني Ney وأطلق عليه (أشجع الشجعان) وفي وقت لاحق قال نابليون: «إن لدي أربعمائة مليون قطعة ذهبية في أقبية التوليري، ويسعدني أن أعطيها جميعاً لمن يمكنني من رؤية المارشال ني Ney مرة أخرى»(٦٣).

وليُبعد الفرنسيون عنهم جموع كوتوزوف الأبطأ، أسرعوا طوال أربعة أيام ليواجهوا

العقبة التالية – نهر بيريزينا Berezina . وعندما وصلوه (٢٥ نوفمبر) وجدوا أن الجنرال الروسي شيخاجوف Chichagov كان قد وصل من الجنوب على رأس ٢٤,٠٠٠ مقاتل كما علموا أن قوة روسية أخرى مؤلفة من ٣٤,٠٠٠ من الجنود الأشداء بقيادة المارشال لودفيج وتجنشتين Wittgenstein كانت تسرع قادمة من الشمال لحصر الفرنسيين بين نارين عندما يكونون – أي الفرنسيون – في حالة فوضى فييأس قائدهم من إنقاذهم من الدمار.

لكن الأخبار لم تكن كلها سيئة إذ سرعان ما علم نابليون أن قوتين مواليتين له قد هبتا لنجدته. فرقة عسكرية بولندية بقيادة الجنرال جان هنريك دومبروفسكو Dombrowski استطاعت – رغم أن عدد جنودها ثلث قوات شيخاجوف Chichagov – مواجهة هذه القوات وتأخير التقدم الروسي، وفي ٢٣ نوفمبر فاجأت قوات فرنسية من ٨٠٠٠ رجل بقيادة المارشال أودينو Oudinot – الجنرال الروسي شيخاجوف واستولت على إحدى كتائبه وأجبروا الباقين على الفرار عبر جسر على بوريسوف Borisov ناحية الشاطئ الأيمن (الغربي) لنهر بيريزينا Berezina . وعلى أية حال فقد حطّم الروس الجسر وهو الجسر الوحيد الذي يمكن بواسطته اجتياز النهر في هذا الموقع.

ووصلت أخبار هذه العمليات إلى نابليون بينما جيشه الخائف يقترب من المجرى الذي يأملون أن يؤخّر ملاحقة كوتوزوف Kutuzov لهم (كانت قوات نابليون الآن ٢٥,٠٠٠ جندي و ٢٤,٠٠٠ من غير المقاتلين) كما كان نابليون قد فقد أيضاً عدداً من رجاله هربوا أو مرضوا أو ماتوا. لم يبق معه سوى ٢٧,٠٠٠ من ٩٧,٠٠٠ كانوا معه عند خروجه من كالوجا، والآن بقي أربعون ميلا خلف مؤخرة جيش نابليون. لازال هناك وقت لعبور النهر إذا كان من الممكن عبوره.

واستعاد نابليون الأمل فأرسل فصيلا بقيادة المارشال ڤيكتور Victor للاتجاه شمالاً وإيقاف ويتجنشتين Wittgenstein وفصيلاً آخر بقيادة ني Ney للانضمام إلى أودينو Oudinot في منع شيخاروف من معاودة عبور النهر. وكان نابليون منذ عبور النيمن Niemen قد احتفظ معه بالمهندسين الذين كانوا قد أقاموا الجسور هناك في شهر يونيو، والآن طلب منهم أن يجدوا بقعة على نهر بيريزينا يمكن أن يقيموا عليها جسرين طوّافين، فأخبروه

بوجود هذه البعقة المناسبة في ستدنكي Studenki إلى الشمال من بوريسوف Borisov بتسعة أميال. وراح المهندسون ومساعدوهم يعملون طوال يومين في مياه متجمّدة، وغرق عدد منهم بسبب انخداعهم بالجليد الطافي فوق مياه غير متجمدة، لكن في الساعة الواحدة بعد الظهر في ٢٦ نوفمبر اكتمل إنشاء أحد الجسرين وبدأ الجيش في العبور فوقه، وبحلول الساعة الرابعة كان الجسر الثاني يحمل فوقه المدفعية والأحمال الثقيلة، وانتظر نابليون وجنرالاته حتى وصل معظم الجنود للشاطئ الغربي ومن ثم عبروا تاركين قوة بقيادة فيكتور Victor لحماية نحو ٨٠٠٠ من غير المقاتلين سيعبرون بعد ذلك. وقبل تمام نجاح هذه العملية الأخيرة خطط الروس لهجوم على طول جانبي النهر لكن قوات فيكتور وأودينو Oudinot وني Ney تصدّت لهم. لقد راح نابليون ينظم العبور والمقاومة في آن واحد وسط آلاف الرجال الذين يناضلون ليبقوا على قيد الحياة. وانكسر الجسر مرتين، وغرق مئات وفي هذه الأثناء كانت مدفعية ويتجنشتاين تمطر قذائف على الآلاف الأخيرة التي تزاحمت للعبور، وفي ٢٩ نوفمبر أمر نابليون المهندسين العسكريين بتدمير الجسرين، تاركاً مئات من غير المقاتلين يبحثون عن فرصة للعبور. وكان هدف نابليون من تدمير الجسرين تعويق قوات وينتجنشتاين عن ملاحقته ومنع وصول قوات كوتوزوف. وباختصار كان عبور بيريزينا Berezina هو أكثر ذرى البطولة طوال ستة أشهر أساء فيها أحد أعظم الجنرالات في التاريخ – تقدير الأمور على حقيقتها.

واستمرت المأساة طوال مسيرة من بقي على قيد الحياة من الجنود الفرنسيين نحو الغرب، لقد هبطت درجة الحرارة ثانية إلى ما دون درجة التجمّد، لكن كان لهذا ميزة واحدة إذ سمح بالانتقال فوق المستنقعات المتجمدة فقصّر المسافة إلى فيلنا Vilna . ولأن الخوف من القوزاق والفلاحين المعادين قلّ، فقد تضاعف عدد الهاربين واختفى النظام.

ورأى نابليون أن من تبقى معه لم يعودوا في حاجة ماسة له، فوافق على نصيحة مورا Murat بالعودة إلى باريس مخافة أن تستسلم فرنسا لثورة أخرى، وعند توقفه في مولودشنو Molodechno وهي محطة التوقف الرئيسية التالية تلقّى مزيداً من التفاصيل عن أمور مال Malet . لقد انتهى هذا المغتصب لكن السهولة التي خدع بها المسؤولين دلّت على استرخاء

الحكومة التي لم تعد مؤمنة بنابليون الذي غاب غياباً طويلا وربما انتهت حياته السياسية بل وربما مات. لقد راح اليعاقبة والملكيون، فوشيه وتاليران يتآمرون لخلعه.

وكي يعيد ترسيخ نفسه ويبعث اليقين في الشعب الفرنسي من جديد أرسل من سمورجوني Smorgonie في ٥ ديسمبر النشرة رقم ٢٩ التي كانت تختلف عن سابقاتها إذ كان غالبها يحوي حقائق صادقة. تقول النشرة إن الفرنسيين قد انتصروا في كل معركة واستولوا على كل مدينة مروا بها وحكموا موسكو إلا أن قسوة الشتاء الروسي التي لا ترحم قد دمّرت هذا المشروع العظيم وألحقت الألم والموت بالفرنسيين المتحضرين الذين اعتادوا العيش في مناخ متحضر. وأشارت النشرة إلى خسارة في الرجال بلغت ٥٠,٠٠٠ لكنها أشارت بفخر لقصّة تخلص ني Ney من ملاحقة كوتوزوف وقدَّمت عبور نهر بيريزينا من جانبها البطولي لا المأسوي وانتهت النشرة بعبارة ذات مغزى وكأنها تحذير لأعداء نابليون: «إن صحّة عظمته لم تكن في يوم من الأيام أفضل مما هي عليه الآن». ومع هذا فقد كان هو منزعجاً. لقد قال لكولينكور «إنني استطيع أن أحكم قبضتي على أوربا من التوليري وحده»[٦٤] واتفق معه يوجين وموراً Murat وداڤو Davout. ونقل قيادة الجيش المتحرك إلى الملك مورا وأخبره أن يتوقع مؤناً وتعزيزات من فيلنا Vilna. وفي وقت متأخر من مساء الخامس من ديسمبر غادر (أي نابليون) سمورجوني Smorgonie قاصداً باريس.

لقد تقلّصت القافلة إلى ٣٥,٠٠٠ وغادرت في اليوم التالي قاصدة فيلنا التي تبعد ستة وأربعين ميلاً. الآن انخفضت الحرارة إلى ٣٠ درجة فهرنهيت تحت الصفر وكانت الرياح على حد تعبير جندي بقي على قيد الحياة تمزق اللحم والعظم[٦٥]. وعندما وصلوا إلى فيلنا (٨ ديسمبر) اندفع الجنود الجياع في فوضى لا حدَّ لها نحو المؤن التي تنتظرهم وضاع طعام كثير وسط الفوضى. وواصلوا مسيرتهم وفي ١٣ ديسمبر وعند كوڤنو Kovno عبروا نهر النيمن نفسه وكان عددهم ٣٠,٠٠٠، بينما شهدهم النهر وقد بلغ عددهم ٤٠٠,٠٠٠ يعبرون في شهر يونيو، هنا وعند تيلسيت وعند بوزن Posen سلّم مورا القيادة ليوجين (١٦ يناير ١٨١٣) خائفاً – هو بدوره – على عرشه وأسرع عبر أوربا إلى نابلي. أما يوجين البالغ من العمر ثلاثين عاماً فكان ذا خبرة رغم شبابه، فتولى مسؤولية ما تبقى من الجنود وقادهم

بصبر يوماً بعد يوم إلى ضفاف نهر الألب Elbe وراح ينتظر لأوامر متبنيه (نابليون) .

ركب نابليون من سمورجوني Smorgonie في أوّل عربة من عربات ثلاث، وكانت كل عربة منها موضوعة على مركبة جليد يجرها حصانان، وكانت إحدى العربات تحمل أصدقاء الإمبراطور ومساعديه وأخرى تحمل حرسا بولنديا من حملة الرماح. لقد ركب نابليون مع كولينكور الذي كان ينظم مسألة تبديل الخيل، ومع الجنرال فونسوفيتش Wonsowicz المترجم الذي عَهِد إليه نابليون بمسدّسيه قائلاً: « إن حدث خطر حقيقي اقتلني ولا تجعل العدو يأسرني »[٦٦] ومخافة أن يتعرّض للاغتيال أو الأسر، تنكرَّ في لباس كولينكور، بينما ارتدى كولينكور ملابس نابليون. وقد تذكر كولينكور في وقت لاحق ما حدث، إذ قال: « في أثناء مرورنا ببولندا، كنت أنا دائماً المسافر المميّز، وكان الإمبراطور – ببساطة – هو سكرتيريَ »[٦٧] .

لقد واصل الركب طريقه إلى باريس دون توقف ليلاً أو نهاراً، وكانت أطول فترة توقّف فيها نابليون ومن معه هي فترة التوقف في وارسو (ڤرساڤا) حيث أدهش نابليون الممثل الفرنسي في بولندا بقوله الذي صار مثلاً: « بين الذروة والقاع خطوة واحدة »[٦٨] . وأراد أن يقوم بزيارة أخرى للكونتيسة ڤالڤسكا Walewska لكن كولينكور نصحه بالعدول عن هذه الزيارة[٦٩] ، ربما بتذكيره أن حماه هو أيضاً إمبراطور. وفي أثناء الركوب من وراسو إلى دريسدن راح الإمبراطور (نابليون) فيما يقول كولينكور « يمتدح الإمبراطورة ماري لويز باستمرار متحدثاً عن حياته الأسرية بمشاعر طيبة وبساطة يسعدُ المرءُ بسماعها » .

وفي دريسدن أراح نابليون وكولينكور مركبة الجليد والحرس البولندي، وانتقلا إلى عربة السفير الفرنسي المغلقة. ووصلوا إلى باريس في وقت متأخر من يوم ١٨ ديسمبر بعد ثلاثة عشر يوماً من سفر كاد يكون بلا توقف. وذهب نابليون مباشرة إلى قصر التوليري وعرَّف حرس القصر بنفسه وأرسل يُعلم زوجته بوصوله وقبل منتصف الليل تماما « اندفع إلى غرفة نوم الإمبراطورة وضمها بين ذراعيه »[٧٠] . وأرسل حامل الرسائل إلى جوزفين يطمئنها أن ابنها بخير وأدفأ قلبه بنظرة إلى ابنه ذي الشعر الجَعْد الذي كان قد أسماه « ملك روما » .

الفصل السادس والثلاثون

إلى إلبا

[١٨١٣ ـ ١٨١٤]

١- إلى برلين

بدت أوروبا كلُّها متوتّرة تعودُ القَهْقرى إلى انقسامات القرن الثامن عشر، ونابليون يندفع فوق ثلوجها وعبر مدنها ليدعّم عرشه المهتز، فقد أصبحت كل التخوم (الحدود) القديمة صدوعاً في قصر غير قائم على أساس ونعني به الحكم الأجنبي. لقد راح أهل ميلان يتفجّعون على أبنائهم الذين استدعاهم نابليون للخدمة العسكرية في جيشه لغزو روسيا، ولم يعودوا أبداً، فراحوا (أي أهل ميلان) يعملون لخلع يوجين اللطيف النائب الغائب لملك غائب. وأهل روما المغرمون بالبابا الصبور الذي كان لا يزال يتعرض للإهانة أسيراً في فونتينبلو Fontainebleau، راحوا يدعون لعودته إلى كرسيّه الرسولي (المقصود البابوي أى كرسي الدعاة الأوائل للمسيحية).

وراح أهل نابلي وأمراؤها ينتظرون اللحظة التي يسقط فيها مورا Murat المنكفئ على ذاته مُخلياً الطريق أمام البوربون الشرعيّين الممسوحين بالزيت (أي المكرّسين الذين اعتمدتهم الكنيسة). أما النمسا - وقد مزّقتها الحرب، وتعرضت للإهانة بسبب سلام مفروض عليها - فراحت تنتظر توّاقة إلى ميترنيخ كي يحرّرها بشيء من براعته الدبلوماسية من تحالف مفروض عليها مع عدوّها التقليدي (فرنسا). أما دول كونفدرالية الرّاين على طول نهر الرّاين فراحت تحلم بالازدهار الذي لا يكون بتسليم أبنائهم للعبقري الأجنبي صعب المراس. أما بروسيا فقد تمّ تجريدها من نصف المناطق التابعة لها (جرى تقليص حدودها إلى النصف) ومن نصف مواردها، وتمّ هذا على يد عدوّها القديم والتي أصبحت (أي بروسيا) الآن حليفته على غير رغبتها. إنها الآن ترى عدوّها (ناهبها) وقد مزقته كارثة مروّعة: لقد حانت الفرصة - أخيراً - والتي طالما تمنوها. إنها الآن تتذكر دعوة فيشته Fichte وهي الآن تُصيخ السمع إلى مناشدة شتاين Stein المنفي، لطرد هؤلاء الجنود

الفرنسيين الذي يَعسُّون بينهم وهؤلاء الجامعين لتعويضات الحرب الذين يستنزفونهم، وليهبوا أقوياء أحراراً كما كانوا في ظل فريدريك وليصبحوا حصناً للحرية الألمانية.

وكان يكمن خلف هذا الامتعاض والتمرد ذي الأصول المشتركة، الأخبارُ المدهشة التي مُفادها أنّ روسيا لم تهزم فحسب جيش هذا الكورسيكي الذي كان من المفترض أنه لا يُهزم، ولم تطرد – فحسب – الجيش الفرنسي من فوق التراب الروسي، وإنما كانت تتعقّبه عبر الحدود إلى دوقية وارسو (ڤرساڤا) الكبيرة، وكانت (أي روسيا) تدعو قلب أوروبا للانضمام إليها في حرب مقدسة للإطاحة بالمغتصب (نابليون) الذي جعل من فرنسا مركزاً لطغيانه في القارة الأوروبية.

وفي ١٨ ديسمبر سنة ١٨١٢ (وهو اليوم الذي وصل فيه نابليون المهزوم إلى باريس) غادر إسكندر سان بطرسبرج. وفي الثالث والعشرين من الشهر نفسه وصل إلى ڤيلينا Vilna وشارك كوتوزوف وجيشه الاحتفال بالنصر. لقد كان هذا الجيش قد عانى كثيراً خلال مسيرته لإزعاج الفرنسيين المغادرين لبلاده. لقد مات مائة ألف وجُرِح خمسون ألفاً، وهرب أو فُقِد خمسون ألفاً[١]. وامتدح إسكندر جنراله علناً، لكنه تشكك في قيادته في مجالسه الخاصة، لقد قال للسير روبرت ويلسون Robert Wilson (إن جاز لنا أن نصدق السير روبرت): « كل ما فعله ضدّ العدو أنه كان يُقاد (بضم الياء) بحكم الظروف. لقد انتصر رغم أنفه.. إنني لن أترك الجيش مرة أخرى لأنني لا أريد أن يتعرض لأخطار مثل هذه القيادة »[٢]. ومع هذا فقد منح المقاتل المُرهق أعلى الأوسمة العسكرية الروسية: وسام الصليب الكبير لجماعة Order القديس جورج (العسكرية).

وكان إسكندر – بسبب تحقّق نبوءته – مقتنعاً بأنه – بشكل أو آخر – ملهم من السماء، فلم يأنس لتردّد جنراله، وتولّى القيادة العليا لجيوشه المتحدة بنفسه، وأصدر الأوامر لها بالتوجّه إلى الحدود الغربية. وتحاشى المرور بكونوڤو Konovo (لأنها كانت مواجهة لبولندا التي كانت لا تزال مُعادية)، وواصل طريقه على طول نهر النيمن Niemen إلى تورجِّن Tauroggen حيث كان الجنرال جوهان (يوهان) يورك فون ڤارتنبورج Jahann Yorck Von Wartenburg على رأس قوة بروسية فسمح للروس بعبور النهر إلى بروسيا الشرقية (٣٠

ديسمبر ١٨١٢) وحث شتاين Stein الذي كان مرافقاً لإسكندر منذ خروجه من سان بطرسبورج – حثّه على التقدم في المناطق التي يتوقّع أن يرحِّب به فيها شعب بروسيا . وأعلن القيصر العفو العام عن كل البروس الذين سبق أن حاربوه ودعا ملك بروسيا وشعبها للانضمام إليه في حربه المقدسة in his Crusads . وكان فريدريك وليم الثالث ممزَّقاً بين النسر Eagle الفرنسي والدب Bear الروسي فرفض امتداح تصرف يورك york وانسحب من برلين إلى بريسلو (بريسلاو Breslau) . وتقدم إسكندر عبر بروسيا الشرقية وراح الناس يحيّونه صائحين : « إسكندر طويل العُمر! حياة مديدة للقوزاق »[٣] .

وعندما اقترب من المناطق الحدودية بين بروسيا الشرقية وبولندا، أرسل رسالة للزعماء البولنديين يعدهم بالعفو العام وبدستور وبمملكة على رأسها قيصر روسيا . وبناء على تفاهم سري – فيما يبدو – بين روسيا والنمسا قام الأمير كارل فيليب فون شفارتسنبرج Von Schwarzenberg قائد الحامية النمساوية في وارسو (فرسافا) بالانسحاب مع جنوده إلى غاليسيا (جاليسيا Galicia)، وأقبل المسؤولون البولنديون للترحيب بإسكندر، وفي ٧ فبراير ١٨١٣ دخل العاصمة دون مقاومة . وهكذا ماتت « دوقية وارسو الكبيرة » موتاً مبكراً وأصبحت بولندا كلها تابعة لروسيا . وكانت بروسيا تأمل في استعادة جزء بولندا الذي كان ضمن ممتلكاتها في سنة ١٧٩٥، فسارع إسكندر بالتأكيد لفريدريك وليم أنه سرعان ما ستوجد تسوية مقبولة لنصيبه المفقود (في بولندا)، وفي هذه الأثناء راح إسكندر مرة أخرى يحث ملك بروسيا وشعبها للانضمام إليه ضد نابليون .

وكان البروس قد طال انتظارهم لهذه الدعوة (مواجهة نابليون) فقد كانوا شعباً معتزاً بنفسه لايزال يتذكر فريدريك . ومما ألّق الروح الوطنية لدى البروس وعمَّقها هذا التوسع الفرنسي السريع، وقيام إسبانيا بانتفاضة ناجحة . وكانت الطبقات الوسطى متحمسة في الاعتراض على الحصار القاري (الذي فرضه نابليون) كما كانت معترضة على الضرائب المرتفعة المفروضة لدفع تعويضات الحرب للفرنسيين . وكان مسيحيو بروسيا مغرمين بكنائسهم غيورين على عقيدتهم، وكانت كل الطوائف المسيحية لا تثق في نابليون وتعتبره ملحداً يخفي إلحاده (المقصود عدم إيمانه باللاهوت المسيحي) . واتفقت الفرق

المسيحية جميعاً على إدانة معاملته السيئة للبابا. ودعا اتحاد الفضيلة (التوجنبوند Tugenbund) كل الألمان أن يهبوا جميعاً للدفاع عن بلاد آبائهم وأجدادهم Vaterland، وسمح الملك البروسي لوزرائه بإعادة بناء الجيش البروسي وزيادة عدده تحت غطاء الدفاع عن بروسيا ضد الغزو الروسي. وكان الروس قد استولوا على مارينبورج Marienburg في يناير، وفي ١١ مارس توجهوا - دون أن يلقوا مقاومة - إلى برلين.

وأصدر الملك البروسي المحب للسلام قراراً فُرِض عليه من بريسلو (بريسلاو Breslau): نداء إلى شعبي An mein Volk في ١٧ مارس يناشدهم فيه أن يهبّوا حاملين أسلحتهم لمواجهة نابليون:

«... يا أهل براندنبورج! أيها البروس، يا أهل سيليزيا، يا أهل بوميرانيا، يا أهل ليتوانيا! أنتم تعلمون ما تحملتموه طوال سبع سنين! أنتم تعلمون القدر التَّعِس الذي ينتظركم إذا لم تُنْه هذه الحرب نهاية مُشَرِّفة. فكروا في أيامكم الخوالي - أيام الناخب الأعظم Great Elector فريدريك العظيم! تذكَّروا البركات التي حارب من أجلها آباؤكم وأجدادكم تحت قيادتهم والتي بذلوا من أجلها دماءهم - حرية الشعور، والفخر بالوطن والاستقلال والتجارة والصناعة والتعليم. انظروا إلى النموذج العظيم لحلفائنا الأقوياء الروس، انظروا إلى الإسبان والبرتغاليين. اشهدوا السويسري البطل، وشعب الأراضي المنخفضة...

إنها المعركة النهائية والحاسمة التي يعتمد عليها استقلالنا ورخاؤنا ووجودنا. ليس أمامنا بديل آخر إمّا سلام مشرف وإما نهاية بطولية... إن الرب، وتصميمنا على هدفنا سيكونان عوناً لنا فتنتصر قضيتنا، وبانتصارها يتحقق السلام المؤكد العظيم وتعود أيامنا أكثر سعادة».

وهبَّت كل الطبقات استجابةً لدعوة الملك، فأعلن رجال الدين - خاصة البروتستنط - الحرب المقدسة ضد الكافر (نابليون). وصرف المعلّمون - ومنهم فيشته وشليرماشر - طلبتهم قائلين لهم إن الوقت ليس وقت دراسة بل وقت عمل. وظل هيجل «فوق» المعركة لكن جوته بارك أحد الأفواج العسكرية التي حيّته في أثناء مرورها(٤). وعبّر الشعراء - مثل شنكندروف Schenkendrof وأولاند Uhland وريكرت Ruckert - عن مشاعر الملك

والشعب بأشعارهم، أو نحّوا أقلامهم جانباً وامتشقوا الحسام أو حملوا البنادقيات، ومات بعضهم – مثل ثيودور كورنر Korner – في المعركة. وعاون إرنست موريتز أرندت Ernst Moritz Arndt – الذي عاد من منفاه في روسيا – في رفع الروح المعنوية الألمانية وصياغتها بقصيدته (أتلك ألمانيا أرض الآباء؟!). وفي «حرب التحرير» هذه وُلدت ألمانيا جديدة.

وعلى أية حال فما من أمة يمكنها أن تعتمد على المتطوّعين عندما يكون وجودها في خطر وعلى هذا فقد أمر فريدريك الثالث بالتجنيد الإلزامي لكل الذكور ما بين السابعة عشرة والأربعين، مع عدم قبول أي بديل (بمعنى عدم قبول تطوع شخص بدلاً عن الآخر) وكان هذا في اليوم نفسه الذي ناشد فيه شعبه القتال لتحرير البلاد. وعندما بدأ ربيع سنة ١٨١٣ كان لدى بروسيا ٦٠,٠٠٠ رجل مدرّب ومستعد للخدمة العسكرية. ومن بين الجيوش المختلفة التي كانت قد أتت من روسيا، كان هناك ٥٠,٠٠٠ رجل صالحين للقتال. وبهؤلاء الجنود البالغ عددهم ١١٠,٠٠٠[٥] دخل إسكندر وفريدريك وليم المعركة التي كان عليها أن تقرر مصير نابليون وتكوين أوروبا.

وقد تحقّقا من أن هذا العدد قد لا يكون كافياً فراحا يبحثان عن حلفاء يمكنهم المساهمة بالرجال والأموال. وظلت النمسا لفترة على إخلاصها لتحالفها مع فرنسا فقد كانت تخشى أن تكون أول من يتعرض لهجوم نابليون إن هي انضمت إلى الحلف الجديد، وتذكر فرانسيس الثاني أنّ له أختاً في التاج الفرنسي. وكان الأمير بيرنادوت Bernadotte قد وعد إسكندر بتقديم ٣٠,٠٠٠ جندي له[٦] لكنه شغل معظمهم بفتح النرويج. أما إنجلترا فتعهدت بتقديم مليوني جنيه إسترليني لدعم هذه المعركة الجديدة بنهاية شهر أبريل، وفتحت بروسيا موانئها للبضائع البريطانية وسرعان ما وصلت هذه البضائع بكميات كبيرة إلى المخازن على نهر إلبا (إلبه Elbe).

ومات كوتوزوف Kutuzov في سيليزيا Silesia في ٢٨ أبريل، وكان لايزال ينصح الروس بالعودة إلى بلادهم، وأمر إسكندر بأن يتولى باركلي دي تولي Tolly أمر الجيش الروسي بعد موت كوتوزوف، لكن إسكندر احتفظ بالقيادة العليا لنفسه (جعل من نفسه قائداً أعلى للقوات المسلحة). إنه (إسكندر) قد انطلق ليحقق في تقدمه غرباً كل ما كان يريد نابليون

تحقيقه في تقدمه شرقاً، وأن يغزو بلاد العدو ويهزم جيوشه ويستولي على عاصمته ويجبره على التخلّي عن عرشه، ويجبره على السلام.

٢- إلى براغ

وفي هذه الأثناء كان نابليون يحارب للاحتفاظ بمكانه في فرنسا ولم يعد مفتوناً بانتصاراته. وكاد يتعيّن على كل أسرة في فرنسا أن تسلّم ابنا أو أخا آخر من أبنائها. لقد كانت الطبقة الوسطى قد رحّبت بنابليون كحامٍ لها، لكنه الآن أصبح ملكياً أكثر من البوربون وحلّق حوله الملكيين الذين كانوا قد تآمروا لخلعه. ولم يكن القسس يثقون في نابليون، وكان الجنرالات الفرنسيون يتمنّون السلام. وكان نابليون نفسه قد تَعِب من الحرب. لقد تضخم بطنه (كرشه) وأرهقته الآلام وكبر سنه وبَطُؤ تفكيره وتذبذبت إرادته، ولم يعد قادراً أن يستخلص من جوهر النصر فتنة تدعوه إلى مزيد من المعارك أو تفتح شهيته للحكم. كيف يستطيع هذا الرجل المرهق أن يجد في هذه الأمة المرهقة الموارد البشرية المطلوبة لمواجهة أعداء في ذروة الاندفاع؟

لكن اعتزازه بنفسه وفخره كانا هما آخر قوة يركن إليها. فهذا القيصر الغادر، هذا الراقص الوسيم الذي يلعب دور الجنرال، وهذا الجيش الذي يصيبه الرعب أمام القوزاق - جيش فريدريك، وهذا المارشال الفرنسي الذي تخلّى عن قضية وطنه والمفترض أنه سيقود الجيش السويسري ضد بلاده (فرنسا) - كل أولئك لن يجدوا الشجاعة والمهارة والسرعة التي تحلى بها الجندي الفرنسي، والتي تتحلى بها أمة قوية متحمسة لحماية أرقى الحضارات في أوروبا. قال نابليون في ديسمبر سنة ١٨١٢ في دعوة يائسة لاستنهاض الفخر العنصري: «من الآن فصاعدا ليس لأوروبا إلا عدو واحد - الصنم الروسي الكبير»(٧).

ومن ثمّ فرض الضرائب وتفاوض للحصول على القروض، وسحب من رصيده المالي في أقبية التوليري، وأصدر الأوامر باستدعاء دفعة التجنيد الإجباري لسنة ١٨١٣ للخدمة العسكرية الفعلية، وأن يتم تدريب دفعة ١٨١٤، كما أمر بإعداد الكتائب العسكرية التي كانت معدّة للخدمة داخل فرنسا، لتكون مستعدة للحرب خارجها كما أمر بإبرام عقود

لتمويل جيشه بالذخائر والملابس والأسلحة والخيول والطعام. ونظم أمور التدريب والتقدم والمعركة بمركزة الكتائب المدرّبة في مواقع بعينها، وجعلها مستعدة كي ينضم بعضها إلى بعضها الآخر عند صدور الأوامر، لتكون معاً في المكان المحدد والزمان المحدّد. وفي منتصف أبريل كان قد نظّم جيشاً بلغ تعداده ٢٥٠,٠٠٠ رجل. وعيّن وصيّ regent ماري لويز ليقوم مقامه عند غيابه في الجبهة وجعل من مينيفال Mĕneval سكرتيراً لها، وكان مينيفال هو سكرتيره المرهق، وغادر نابليون باريس في ١٥ أبريل لمقابلة جيوشه في مين Main وإلبه Elbe (مفهوم أنه نهر إلبا وليس الجزيرة المعروفة).

وسار يوجين جنوباً ومعه البقية الناجية من الفاجعة الروسية (الهزيمة في روسيا) ومعه أيضاً جنود تم استدعاؤهم من مواقعهم في ألمانيا، وأقبل من الجنوب برتران Bertrand. وبهؤلاء الرجال الموثوق بهم على رأس ميسرته وميمنته تحرك نابليون متقدماً بجيشه (جيش مين Main)، وفي ٢ مايو قابل من ليتزن Lutzenبالقرب من ليبتسج (ليبزج Leipzig) جيشاً متحالفاً بقيادة الجنرال الروسي ويتجنستن Wittgenstein وبرعاية القيصر والملك. عدد الجنود الفرنسيين الآن ١٥٠,٠٠٠، وعدد الجنود الروس ٥٨,٠٠٠ أما الجنود البروس فعددهم ٤٥,٠٠٠. وربما ليشجع الإمبراطور جنوده ويزيد من حماسهم راح يخاطر بنفسه في مقدّمة الجيش، فقد كتب المارشال مارمون Marshal Marmont: «ربما كان هذا اليوم قد شهد مخاطرته بنفسه كأشد ما تكون المخاطرة في ميدان المعركة»[٨]. وهُزِم الحلفاء وتراجعوا لكن بعد أن كبدوا الفرنسيين ٢٠,٠٠٠ رجل (أي بخسارة تزيد بمقدار ٨٠٠٠ عن خسائر أعدائهم)[٩].

لكن فريدريك أغسطس الأول ملك سكسونيا قرر ضم جيشه البالغ عدده ١٠,٠٠٠ جندي إلى القوات الفرنسية خوفاً من جارته النهمة بروسيا، فكان في ذلك - إلى حد ما - عزاء لنابليون. وفي ٩ مايو أصبحت دريسدن عاصمة فريدريك أغسطس قاعدة لنابليون يقود منها معركتين.

ومخافة أن تنضم النمسا إلى الحلفاء لمحاولة الاستيلاء مرة أخرى على شمال إيطاليا، أرسل نابليون قائده يوجين إلى ميلان Milan لإعادة بناء جيشه هناك ومراقبة الثوريين

الإيطاليين. وغادر نابليون – نفسه – دريسدن في ١٨ مايو آملاً أن يحقق نصراً أكثر حسماً على المتحالفين ضده الذين أعادوا تنظيم أنفسهم في بوتزن Bautzen إلى الشرق من دريسدن بثلاثين ميلاً، فأرسل قائده ني Ney ليتقدم في نصف دائرة مُلتفاً حول العدو مهاجماً إياه من المؤخرة، بينما هو نفسه (نابليون) يقود الجيش الرئيسي ليشن هجوماً على مقدمة العدو، وتأخر ني Ney فلم يستطع منع الحلفاء الذين هزمهم نابليون من التراجع إلى سيليزيا Silesia بعد أن فقدوا ١٥,٠٠٠ مقاتل. وتقدم نابليون إلى الأودر Oder وضم جنود الحامية الفرنسية في جلوجاو Glogau إلى جيشه. لقد كتب أحد المهاجرين الفرنسيين (الذين تركوا فرنسا عقب أحداث الثورة الفرنسية) واسمه روجر دي داماس Roger de Damas معبراً عن غضبه: «إن الإمبراطورية الفرنسية قد حلت بها نكبة ومع هذا فقد خرجت منتصرة»(١٠).

وفي هذه اللحظة وبينما كان نابليون يتحرك على طول الأودر Oder ويضم حاميات فرنسية أخرى إلى جيشه، استمع نابليون إلى عرض ميترنيخ بتوسط النمسا لترتيب سلام بين القوى المتحاربة. وحثّه بيرثييه Berthier باسم الجنرالات، وكولينكور **Caulaincourt** باسم الدبلوماسيين على القبول خوفاً من حرب طويلة مع حلفاء متحدين لهم موارد لا تنفد، بينما فرنسا منقسمة مستنزفة، وأحس نابليون بمؤامرة (فخ) لكنه كان يأمل في أن عقد هدنة سيتيح له وقتاً لتجنيد مزيد من الجنود وتعزيز سلاح الفرسان في جيشه، كما خشي من أن رفضه عرض ميترنيخ قد يؤدي إلى انضمام النمسا إلى المتحالفين ضده. وتم ترتيب أمور الهدنة في بلايسفيتز (بلايسفيتس Pleisswitz) (٤ يونيو) وكانت هذه الهدنة لمدة شهرين ثم مُدّت في وقت لاحق إلى ١٠ أغسطس. وسحب نابليون قواته إلى دريسدن وأصدر توجيهاته باستكمال كتائبه واتجه إلى مينز (مينتس Mainz) ليقضي بعض الوقت مع ماري لويز فربما تستطيع أن تحث أباها على مواصلة تحالفه مع فرنسا، ذلك التحالف الذي كانت هي ضمانه. وفي هذه الأثناء راح ميترنيخ يزيد عدد الجيش النمساوي ويقوّيه بالمعدّات اللازمة متظاهراً بأن ذلك العمل موجه ضد أعداء نابليون (المتحالفين).

واستفاد المتحالفون ضد نابليون من الهدنة. لقد رحبوا ببيرنادوت Bernadotte الذي

جعل الآن جيشه المكوّن من ٢٥,٠٠٠ مقاتل في خدمة قضيتهم. وأتى معه مورو Moreau الذي كان قد أُتِّهِمَ بارتباطه بمتآمرين لقتل نابليون وسُمِحَ له بالهجرة إلى أمريكا. لقد عاد الآن ليعرض خدماته على الحلفاء باعتباره يعرف أسرار استراتيجية نابليون. لقد ركّز على قاعدة واحدة: تجنبّوا المعركة إذا كان نابليون يقودها، واسعوا إليها (المعركة) عندما يكون بعيداً. وكان الحلفاء أكثر سعادة بلورد كاثكار Cathcart الذي قدم لهم في ١٥ يونيو إعانة مالية مقدارها أربعة ملايين جنيه على ألاّ يعقدوا سلاماً مع نابليون دون موافقة انجلترا[١١].

وفي ٢٧ يونيو قبل المتحالفون ضد نابليون وساطة النمسا واتفقوا على أن يرسل الأطراف الثلاثة مفاوضين إلى براغ لترتيب شروط السلام. وأرسل نابليون كلا من ناربون Narbonne وكولينكور Caulaincourt على أمل أن يكون اطمئنان إسكندر إلى كولنيكور (الذي جعل نابليون معه ناربون لمراقبته) سبباً للوصول إلى نتائج مواتية. وعلى كل حال فإن الشروط التي قُدّمت لنابليون من خلال كولينكور وميترنيخ كانت راجعة في رأيه إلى هزيمته (السابقة) في روسيا وبولندا وإلى الثورة البروسية ضده. لقد طُلب منه أن يُسلِّم المناطق التي استولى عليها من بروسيا، وأن يترك كل دعاويه في دوقية وارسو (فرسافا)، والدول - المدن الهانسياتية Hanseatic وبوميرانيا وهانوفر وإيليريا Illyria وكونفدرالية الرّاين. وأنه يمكنه العودة إلى فرنسا ليحتفظ بحدودها الطبيعية وبعرشه وبأسرته الحاكمة لا يتحداها أحد. لكن كان هناك عيب خطير في هذه الاقتراحات: لإنجلترا الحق في إضافة مطالب أخرى، وأن المتحالفين ضد نابليون لن يُوقّعوا سلاماً مع نابليون دون موافقة إنجلترا.

وأرسل نابليون إلى براغ طالباً تأكيداً رسمياً لهذه الشروط، فلم يصله هذا التأكيد إلا في ٩ أغسطس مع تحذير من ميترنيخ أن الهدنة ستنتهي في منتصف ليلة العاشر من أغسطس، وسينفض مؤتمر الحلفاء في هذا الوقت أيضاً ولابد أن تصل موافقة نابليون قبل هذا التاريخ. وأرسل نابليون موافقة مشروطة لم تصل إلى براغ حتى إعلان ميترنيخ انتهاء الهدنة وفضّ المؤتمر. وفي ١١ أغسطس انضمت النمسا إلى الحلف المضاد لفرنسا، واستُؤنفت الحرب.

٣- إلى الرّاين

لقد زادت قوات الحلفاء عددا وتمويلا. لقد أصبحت الآن نحو ٤٩٢,٠٠٠ مقاتل و١٣٨٣ مدفعا، واستقبل نابليون فرقة عسكرية من الدنمرك، ودفعة مجنّدين كان ينتظرها وأصبح لديه الآن ٤٤٠,٠٠٠ مقاتل و١٢٠٠ مدفع. وكوّن الحلفاء ثلاثة جيوش: «جيش الشمال» بقيادة بيرنادوت وتمركز في برلين، و«جيش سيلزيا» بقيادة بلوشر (بلوخر Blucher) المندفع الذي لا تنقصه الشجاعة، وتحلّق جيشه في تشكيلاته المختلفة حول بريسلو (بريسلاو Breslau) والجيش الثالث وهو أكبرها جميعا هو «جيش بوهيميا» بقيادة الأمير فون شفارتسنبرج Von Schwarzenberg المتمركز في براغ. وكونت الجيوش الثلاثة نصف دائرة حول نابليون المتمركز في دريسدن. وُترك لكل جيش من هذه الجيوش حرية القتال لشق طريقة إلى باريس بشكل مستقل. وفي مواجهة هذه الجيوش أعد نابليون «جيش الميسرة Left» بقيادة أودينو Oudinot لإيقاف بيرنادوت، وجيش الوسط بقيادة ني Ney لمراقبة بلوخر Blucher «وجيش الميمنة» بقيادته هو نفسه (نابليون) لحراسة الطرق التي قد يُطلق عبرها شفارتسنبرج Schwarzenberg من بوهيميا عدداً كبيراً من قوّاته لقد كانت هناك عيوب في الموقف الفرنسي لم يكن يمكن كما هو واضح تجنبها؛ لم يكن نابليون بقادر على استخدام خطته التي استخدمها في إيطاليا بالتركيز بكل قواته على أحد الجيوش، فهذا قد يودي إلى فتح الطريق إلى باريس للجيشين الآخرين أو أحدهما، وكان يتعيَّن على جيشين من جيوشه أن يتحركا بعيداً عن الأثر المحمّس الذي كان يتركه وجوده في صفوف الجيش، وأدى عدم وجوده إلى حرمان هذين الجيشين من مناورته السريعة وتكتيكاته البارعة وفي ١٢ أغسطس بدأ بلوخر Blucher معركة خريف ١٨١٣ بالتحرك غرباً من برسلو (برسلاو Breslau) لمهاجمة قوات ني Ney من كاتسباخ Katzbach في سكسونيا فأخذهم على غِرّة وفرّوا وقد تملكهم الذعر، فاندفع نابليون من جورليتس Gorlitz بحرسه الإمبراطوري وقوات الفرسان بقيادة مورا Murat لإعادة تنظيم قوّات ني Ney، وقادهم إلى نصر كلف قوات بلوخر ٦٠٠٠ قتيل(١٢).

لكن في الوقت نفسه قاد شفارتسنبرج قواته البالغ عددها ٢٠٠,٠٠٠ شمالاً في هجوم

سريع للاستيلاء على مقر القيادة الفرنسية في دريسدن. واستدار نابليون وكفّ عن متابعة بلوخر Blucher، وقاد ١٠٠,٠٠٠ رجل مسافة ١٢٠ ميلاً في أربعة أيام، ووجد أن النمساويين يكادون يتحكمون في كل المرتفعات حول العاصمة السكسونية، وفي ٢٦ أغسطس راح الجيش الفرنسي بقيادة الحرس القديم والحرس الجديد يهتف «عاش الإمبراطور» وهو – أي الجيش الفرنسي – يقتحم صفوف الأعداء ويحاربهم بضراوة شديدة حتى إن مورا Murat قاد سلاح الفرسان التابع له بتهوّر شديد كما كان يفعل أيام شبابه لدرجة أنه بعد يومين من المعركة، أمر شفارتسنبرج Schwarzenberg قواته بالتراجع مخلّفاً ٦٠٠٠ من رجاله بين قتيل وجريح وأسير. وكان نابليون نفسه يوجه إطلاق المدافع فأصلى العدو ناراً كثيفة حامية(١٣).

وكان إسكندر يراقب الصراع من فوق تل مكشوف، وكان معه مورو Moreau الذي كان قد أصبح أثيراً لديه. وأصابت قذيفة مدفع ساقي مورو فأطاحت بهما، ومات بعد أيام قليلة وسط جيش القيصر، لكنه صاح وهو يموت: «أأنا مورو! تصيبني طلقة من الجيش الفرنسي وأموت بين أعداء فرنسا!!»(١٤).

وتعقّب فاندام Vandamme النمساويين المنسحبين ولم يتبعه نابليون ولم يقدم له دعماً (كان نابليون قد تعرّض لآلام حادة في معدته)، ووقع فاندام في شرك نصبه له العدو فاستسلم مع رجاله البالغين ٧٠٠٠ في ٢٨ أغسطس لأحد أقسام جيش شفارتسنبرج، وبعد ذلك سرعان ما فقد ني Ney ١٥,٠٠٠ من رجاله في اشتباكات مع العدو في دنيڤتس Dennewitz (٦ سبتمبر)، وحزن نابليون لأن نصره الذي أحرزه في دريسدن سرعان ما ضاع هباء. فأرسل (أي نابليون) إلى السينات Senate لاستدعاء ١٢٠,٠٠٠ مجند إلزامي من دفعة ١٨١٤ (الدفعة التي يحين وقت تجنيدها في سنة ١٨١٤) و ١٦٠,٠٠٠ من دفعة ١٨١٥. وكان هؤلاء المجندون الجُدد صغاراً وسيحتاجون لشهور كثيرة لتدريبهم. وفي الوقت نفسه كان ٦٠,٠٠٠ جندي قد أُضيفوا إل الجيش الروسي، وكانوا ممّن تمرسوا على الحرب في معركة في بولندا، وفي ٨ أكتوبر انضم جيش بافاريا Bavaria إلى أعداء نابليون بعد أن كان يقاتل في صفّه.

أما وقد أصبح المتحالفون ضد نابليون على هذا القدر من القوّة فقد أصبح هدفهم هو الاستيلاء على ليبزج (ليبتسج) وأن يحسموا الحرب بمعركة تستطيع فيها قواتهم الموحّدة إحباط أي استراتيجية نابليونية. وفي أكتوبر قاد كلٌّ من بلوخر Blucher وبنجسن Bennigsen وبيرنادوت Bernadotte وشفارتسنبرج Schwarzenberg ويوجين الفيرتمبرجي of Wurttemberg وغيرهم من الجنرالات - قوات من ١٦٠,٠٠٠ رجل حول المدينة. فاستدعى نابليون جيوشه من الشمال والوسط والجنوب فبلغ تعدادها ١١٥,٠٠٠ رجل بقيادة مارمون Marmont وإسكندر مكدونالد وأوجيرو Augereau وبرتران Bertrand وكليرمان Kellermann وفيكتور، وموراMurat وني Ney والأمير جوزيف بونياتوفسكي Poniatowski. قلما وجدنا مثل هذه العبقرية العسكرية وقلما رأينا هذا العدد من الجنسيات تتجمع لتتلاقى في معركة واحدة. إنها معركة الأمم أو كما سماها الألمان (فولكرشلاخت Volkerschlacht) والكلمة تعني حرفياً (مذبحة الشعوب).

واتخذ نابليون موقعاً مكشوفاً في مؤخرة قواته وراح يُوجّه تحركاتها طوال ثلاثة أيام من العمليات (١٦-١٩ أكتوبر ١٨١٣)، على وفق ما قاله[١٥] (أي نابليون) فقد ظلّ للفرنسيين اليد العليا حتى ١٨ أكتوبر وعندها تحوّل الجنود السكسون Saxon troops إلى القوات المتحالفة ضد نابليون ووجهوا مدافعهم ضدّ الفرنسيين الذين اعترتهم الدهشة وغمرتهم الفوضى فبدأوا يفقدون مواقعهم[١٦]. وفي اليوم التالي تخلّت كتائب كونفدرالية الراين عن الفرنسيين وانضمت إلى المتحالفين ضدهم. وعندما وجد نابليون أن رجاله بدأت تعوزهم الذخيرة وتعرضوا لخسائر فادحة - أمر بالتراجع (الانسحاب) عبر نهري بليس Pleisse وإلستر Elster. ونجحت معظم القوات الفرنسية في تنفيذ هذا الانسحاب عبر النهرين الآنف ذكرهما لكن مهندساً مُهتاجا نسف جسرا فوق نهر الإلستر Elster بينما كان بعض الفرنسيين يعبرونه، فغرق كثيرون بمن فيهم بونياتوفسكي الأنيق الذي كان قد حارب في صف نابليون ببراعة حتى إنه (أي نابليون) رقاه في ميدان المعركة إلى رتبة مارشال. ولم يصل من بين ١١٥,٠٠٠ من الجنود الذين حاربوا مع نابليون في ليبزج إلى نهر سال Saale إلاّ ٦٠,٠٠٠، لقد وقع الآلاف أسرى، وتلقى الفرنسيون الذين وصلوا إلى نهر سال غذاء

وكساء ومؤنا ثم واصلوا طريقهم غرباً إلى المين Main عند هاناو Hanau وهناك حاربوا قوات نمساوية وبافارية وهزموها في ١٢ نوفمبر وصلوا إلى الراين عند مينز (مينتس Mainz) بعد أسبوعين من الفرار، وعبروا النهر إلى فرنسا.

٤ - الانكسار

لقد بدا نابليون وقد لحقه انكسار لا انجبار بعده. فقد كان جيشه (الآن) مكوّناً من ٦٠,٠٠٠ مقاتل مهزومين ومُحبطين ومستنفدين، يحتشدون على غير هدى على ضفة الراين، أما القوات الفرنسية في ألمانيا فكانت مجمَّدة لا يمكن تعبئتها. لقد كانت قواته البالغة ٦٠,٠٠٠ (الآنف ذكرها) والمحتشدة عند ضفة الراين بغير سلاح وبغير ملابس وقد تفشى فيهم التيفوس الذي راحوا يصيبون به كل المناطق التي مرّوا بها»[١٧] وراحت الأخبار المحبطة تأتي من كل اتجاه. ففي إيطاليا كان يوجين قد استطاع بشق النفس أن يجمع قوة من ٣٦,٠٠٠ رجل لكنه أصبح الآن في مواجهة ٦٠,٠٠٠ جندي نمساوي عَبْر الأديج Adige. وفي نابلي راح مورا Murat يتآمر لإنقاذ عرشه بالتخلّي عن نابليون ومناصرة المتحالفين ضدّه. وفي الأراضي المنخفضة أطاحت ثورة داخلية تدعمها قوات بروسية بقيادة بولو Bulow بالحكم الفرنسي (نوفمبر ١٨١٣) وأحكمت قوات إنجليزية قبضتها على الشيلدت Scheldt وعادت أسرة أورانج orange وهرب جيروم من وستفاليا (فستفاليا). ومن إسبانيا عبر ويلينجتون Wellington المنتصر البيداسوا Bidassoa إلى فرنسا (٧ أكتوبر) وفرض حصاراً على بايون Bayonne في ديسمبر.

وبدت فرنسا نفسها ممزّقة، فقد أدّى ضياع إسبانيا، واضطراب الحركة التجارية مع ألمانيا وإيطاليا إلى أزمة اقتصادية فأفلست البنوك وأغلقت المصانع أبوابها، وأعقب إغلاق بيت جاباش Jabach للتمويل، سلسلة من عمليات الإفلاس. وهبطت البورصة من ٨٠ في شهر يناير إلى ٤٧ من شهر ديسمبر. وراح آلاف المتعطّلين يتسكعون في الشوارع أو يخفون فقرهم بالاعتكاف في بيوتهم أو يلتحقون بالجيش ليأكلوا وتمرّد الشعب احتجاجاً على المزيد من التجنيد الإلزامي، واحتجت الطبقة الوسطى على رفع الضرائب، وطالب الملكيون

بتولي لويس الثامن عشر العرش، لقد راحت كل الطبقات تطالب بالسلام.

ووصل نابليون إلى باريس في ٩ نوفمبر فرّحبت به مليكته غير السعيدة وابنه المرح، وراح يعمل على إقامة جيش جديد من ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل كضرورة أولى للحرب أو السلام. لقد أرسل المهندسين لإصلاح الطرق لجبهات جديدة ولإعادة الأسوار إلى المدن ولبناء الحصون، وللاستعداد لحفر الخنادق وتدمير الجسور عند الضرورة لإعاقة تقدم الغزاة. وصادر الخيول لسلاح الفرسان وأمر بإعداد المدافع من السبائك كما أمر بإعداد الأسلحة والذخائر للمشاة وراح يسحب المزيد من الأموال التي ادخرها من أقبية التوليري، وراحت الأمة تنظر إليه باستغراب وخوف معجبة بقدرته على استعادة رباطة جأشه وطاقته التي لا تنفد كما أصابها الرعب مخافة عام جديد مليء بالحروب.

أما الحلفاء (القوى المتحالفة ضد نابليون) فقد تردّدوا أمام الراين وبسبب حلول الشتاء، فأرسلوا له من فرانكفورت في ٩ نوفمبر عرضاً غير رسمي وغير موقّع لإحلال السلام: أن تحتفظ فرنسا بحدودها الطبيعية - الرّاين، والألب، والبرانس، وأن تتخلّى عن دعاويها كلها فيما وراء ذلك[١٨]. وفي الثاني من شهر ديسمبر أجاب نابليون من خلال وزير الشؤون الخارجية (كولينكور) بالموافقة. وعلى أية حال فإن ثورة هولندا أنهت السيطرة الفرنسية على مصاب الراين. وساعد الحلفاء هذه الثورة وسحبوا موافقتهم على مبدأ الحدود الطبيعية لفرنسا[١٩].

بل لقد أصدروا في ٥ ديسمبر «إعلان فرانكفورت»: «إنّ القوى المتحالفة لا تشن الحرب على فرنسا. فملوك وحكام أوروبا يريدون أن تكون فرنسا عظيمة قوية سعيدة..

فالقوى المتحالفة تؤيد الإمبراطورية الفرنسية في امتلاك مناطق لم يحدث أبداً أن كانت تحت حكم ملوكها»[٢٠].

لم تكن المسألة في حاجة إلى مزيد من الجهد لإبعاد الشعب عن إمبراطوره، فقد كان السينات Senate والهيئة التشريعية معارضين له علناً مطالبين بدستور يضمن الحرية.

وفي ٢١ ديسمبر عبر الحلفاء نهر الرّاين إلى فرنسا. وفي ٢٩ ديسمبر أرسل السينات إلى نابليون تأييده وتأكيده أنه موالٍ له. لكن في اليوم نفسه قرأ لينيه Laine - أحد الأعضاء

الملكيّين من بوردو – على المجلس التشريعي تقريراً ينتقد فيه « أخطاء » و« تجاوزات » الإدارة الإمبراطورية، ممتدحاً « الحكم السعيد على أيام البوربون، ومرحّباً بالمتحالفين ضد نابليون الذين « يرغبون في الإبقاء علينا ضمن نطاق حدود بلادنا، والذين يودّون كبح النشاطات الطموحة التي أدت طوال العشرين سنة الماضية إلى إيذاء كل شعوب أوروبا »(٢١). وصوّت المجلس التشريعي بواقع ٢٢٣ ضد ٣١ بالسماح بطبع تقرير لينيه Laine. وفي مساء ذلك اليوم أمر نابليون بإنهاء الدورة التشريعية للمجلس، وأجاب بهياج شديد غاضباً مرهقاً:

« من المؤكَّد أنه عندما يكون علينا أن نطرد العدو من بلادنا، فإن هذا الوقت يكون غير ملائم لمطالبتي بدستور. إنكم لستم ممثلي الأُمّة فأنتم مجرد مندوبين أرسلتهم الدوائر (المحافظات).. إنني أنا وحدي ممثل الأمّة. ومع ذلك، فما هو العرش؟ أهو أربع قطع من الخشب المموّه بالذهب تغطيه القطيفة (المخمل)؟ لا، إنه ليس كذلك، إنه شاغله، وأنا شاغله. إنني أنا الذي أستطيع إنقاذ فرنسا، وليس أنتم! إنني إن أصغيت لكم لسلَّمت للعدو أكثر مما يطلب. إنكم ستحصلون على السلام في ثلاثة أشهر أو أَهْلِك »(٢٢).

وبعد أن تخلّى عنه المندوبون المصدومون، أرسل (أي نابليون) يستعدي بعض الشيوخ Senators الذين وقع عليهم اختياره وشرح لهم سياسته لإحلال السلام وخطط مفاوضاته، وانتهى باعتراف كسير، كما لو كان يعترف أمام محكمة التاريخ:

« إنني لا أخاف من الاعتراف أنني قد أطلت أمد الحرب كثيراً. لقد كنت مقتنعاً بمشروعات واسعة المدى. لقد كنت راغباً في أن أُؤمّن لفرنسا إمبراطورية العالم (حكم العالم). لقد كنتُ مخطئاً، فهذه المشروعات لم تكن متناسبة مع عدد سكان فرنسا، لقد كنتُ سأجد نفسي مضطراً لتجنيد الشعب الفرنسي كله، وإنني مقتنع الآن بأن تقدم المجتمع ورفاهية الدولة وازدهارها الأخلاقي والمعنوي لا يتّفق مع تحويل الشعب كله إلى أمّة من الجنود.

ولا بد أن أُكَفِّر عن أخطائي التي ارتكبتها بركوني كثيراً جداً إلى حظّي السعيد، إنني سأكفِّر عن أخطائي، إنني سأُبرِم اتفاق سلام، على وفق الشروط التي تمليها الظروف، وهذا السلام لن يكون فيه خِزْي إلاّ لي وحدي، فسيكون عليَّ وحدي أن أخدع نفسي، وسيجب

عليّ وحدي أن أُعاني، وليس فرنسا. إن فرنسا لم ترتكب أيّ خطأ، فهي قد بذلت دماءها لي ولم تبخل عليّ بأية تضحيات..

اذهبوا إذن أيها السّادة إلى دوائركم (محافظاتكم) لأنني على وشك إبرام اتفاق سلام، فأنا لن أطلب من الفرنسيين بعد الآن أن يبذلوا دماءهم لمشروعاتي ولي.. لكن لفرنسا ولسلامة أراضيها (حدودها). أخبروا مواطنيكم أنني لا أطلب منهم سوى الوسائل التي تعين على طرد العدو الأجنبي من أراضي الوطن. قولوا لهم إن العدو قد غزا الألزاس ونافار Navarre وبيارن Bearn. قولوا لهم إنني أدعو الفرنسيين لمد يد العون للحرية»(٢٣).

وفي ٢١ يناير أمر مندوبيه بإطلاق سراح البابا بيوس السابع من محبسه في فونتينبلو Fontainebleau وترتيب الأمر لعودته إلى إيطاليا. وفي ٢٣ يناير جمع من التوليري ضباط الحرس الوطني وقدم لهم الإمبراطورة (زوجته) وابنه (ملك روما) الذي كان وسيماً ولم يكن قد بلغ الثالثة من عمره بعد وأوصاهما بالاهتمام بالحرس. ومرة أخرى عيّن ماري لويز وصية على العرش في أثناء غيابه، وفي هذه المرة عيّن أيضاً أخاه جوزيف ليفتينانت جنرال للإمبراطورية والقائم بالأعمال الإدارية للإمبراطورة. وفي يوم ٢٤ من يناير أُحيط علماً بأن مورا Murat قد انحاز إلى الحلفاء (المتحالفين ضد نابليون) وأنه يتقدم من نابلي على رأس ١٨,٠٠٠ مقاتل ليساعد في طرد يوجين من إيطاليا. ومن هذا اليوم نفسه ودّع نابليون زوجته وابنه لآخر مرة، فلن يتأتّى له رؤيتهما بعد ذلك، وغادر باريس لينضم إلى جيشه الذي أُعيد تكوينه ليتحدى غزاة فرنسا.

٥- إلى باريس

لقد راح الحلفاء يتقدمون في صفوف يقترب بعضها من بعض لتتجمع في نقطة واحدة، وكانت عيونهم هذه المرة على باريس. لقد «سرق» (بالمعنى الحرفي للكلمة) شفارتسنبرج Schwarzenberg طريقه من الفرنسيين بعبوره نهر الراين عند بازل على رأس ١٦٠,٠٠٠ من رجاله وانتهك الحياد السويسري إذ تغاضت الأوليجاركيات السويسرية بسعادة عن تحركاته، وتحرك بسرعة عبر الكانتونات واستولى على جنيف التي لم تُبد دفاعاً، وظهر من الأراضي

الفرنسية لمسافة أبعد بمائة ميل مما كان يتوقع الفرنسيون، وأسرع بالاتجاه شمالاً نحو نانسي Nancy على أمل الانضمام إلى قوات بلوخر Blucher أو التنسيق معه هناك.

وكان نابليون قد أمر الجيوش الفرنسيّة أن يفاجئوا العدو بمعارك غير متوقعة في إيطاليا وجنوب شرق فرنسا، ومن ثمّ يتجهون شمالاً لاعتراض سبيل شفارتسنبرج أو على الأقل إبطاء مسيرته، لكن النمساويين عطّلوا حركة يوجين.

وفي هذه الأثناء عبر بلوخر Blucher بجيشه «جيش سيليزيا» المكوّن من ٦٠,٠٠٠ مقاتل لازالوا أقوياء – نهر الراين عند مينز (مينتس Maiz) ومانهايم Mannheim وكوبلنز (كوبلنتس Coblenz) وراح يتقدم بلا مقاومة تقريباً إلى نانسي Nancy حيث استقبله حكامها وجمهورها مع جنوده البروس كمخلّصين من طغيان نابليون[٢٤]. أما بيرنادوت فإنه بعد أن فقد أمله في أن يخلف نابليون كحاكم لفرنسا، وجدناه يتخلّى عن الحلفاء بعد ليبزج (ليبتسج Leipzig) ليضرب الدنمركيين ليتخلّوا عن النرويج للسويد (١٤ يناير ١٨١٤) وبعد أن أتمّ هذه المهمة انضم بجيشه إلى بلوخر Blucher في الزحف تجاه باريس.

ولم تجسر القوات الفرنسية التي تركها نابليون في شرق فرنسا على مواجهة قوات بلوخر Blucher أو قوات شفارتسنبرج لقد تراجع ني Ney غرباً من نانسي، وتراجع مورتييه Mortier من لانجر Langers وتراجع مارمون Marmont من ميتز Metz وراحوا ينتظرون قدوم نابليون.

لقد أحضر نابليون معه إلى مقر قيادته الجديد في شالون – سير – مارن Chalons - Sur - Marne (التي لا تبعد عن باريس سوى خمسة وتسعين ميلاً) نحو ٦٠,٠٠٠ مجنّد ليُضافوا إلى ٦٠,٠٠٠ ممن بقوا أحياء بعد ليبزج (ليبسج) بقيادة ني Ney ومارمون Marmont ومورتييه وبذلك أصبح تحت قيادته ١٢٠,٠٠٠ كان عليه أن يوقف بهم جنود بلوخر وشفارتسنبرج البالغ عددهم ٢٢٠,٠٠٠.

لقد كان نابليون ملتزماً بسياسة عدم السماح لقوات الحلفاء بالاندماج معاً ومنعهم من أن يكوّنوا قوة واحدة، مع تجنّب مواجهة قوات شفارتسنبرج، وإيقاف أو تأخير تقدمها نحو باريس بإحراز انتصارات سهلة على كتائب الحلفاء البعيدة عن مركز القيادة الرئيسي،

وبذلك لا تواجه القوات الفرنسية قوات الحلفاء الرئيسية.

لقد كانت معركة ١٨١٤ إحدى أكثر معارك نابليون براعة من الناحية الإستراتيجية، لكنها أيضاً كانت واحدة من أكثرها خسائر وأخطاء بسبب ندرة التعزيزات العسكرية. وقد وقع بلوخر بدوره في كثير من الأخطاء، لكنه كاد لا يكون عُرضة للهزيمة أو قلة الموارد بسبب كل هؤلاء الجنرالات المعارضين لنابليون الآن أو بعد ذلك. وكان شفارتسنبرج أكثر حذراً، وكان هذا في جانب منه لطبيعته الخاصة، كما كان في جانب آخر منه لأنه كان يصحب القيصر إسكندر والامبراطور فرانسيس الثاني.

وأدّت بعض الانتصارات المبدئية التي أحرزها نابليون إلى إفراطه في الثقة (ثقة لم تكن في محلّها). لقد أسر رجال بلوخر وهم يتناولون طعامهم أو ينعمون بقسط من الراحة في برين Brienne (٢٩ يناير ١٨١٤) وكادت قواته تأسر بلوخر نفسه. وتراجعت قوات بلوخر، لكن نابليون كان حكيماً فلم يتعقّبه لأن جيشه (أي جيش نابليون) كان قد خسر ٤,٠٠٠ مقاتل، كما لم يكن أمامه (أي نابليون) إلاّ مجال ضيق للهرب: لقد كان البروس يقتربون منه وسيوفهم مُصْلته، عندما أقدم الجنرال جورجو Gourgeaud على إطلاق النار على تابعه الذي تجاوز حده فأرداه قتيلاً. وحزن نابليون بسبب الدمار الذي أحدثته المعركة في المدينة وفي مدرستها الشهيرة التي تلقى فيها تعليمه وتدريبه العسكري، ووعد بإعادتهما (المدينة والمدرسة) إلى ما كانتا عليه بعد طرد الغزاة من فرنسا(٢٥).

واندفع شفارتسنبرج فلم يكن لديه وقت للتفكير، لدعم بلوخر، فوجد جنود نابليون المنتصرين وهم يكادون يكونون محاصرين بمائة ألف جندي نمساوي وبروسي وروسي في لاروثيير La Rothière (أول فبراير) فلم يكن لدى نابليون سوى خيار واحد هو أن يحارب، فقاد المعركة بنفسه. وكانت المعركة تكاد تكون متعادلة (لم يحقق أي من الطرفين انتصاراً حاسماً)، لكن تعادل الفريقين المتقاتلين في الخسائر كان كارثة بالنسبة إلى الفرنسيين الذين قادهم الإمبراطور منسحباً إلى تروي Troyes، وقرر بلوخر ألا يتبع شفارتسنبرج في حذره، فانفصل عنه بقواته وقرر مواصلة طريقه إلى باريس عبر المارن Marne بينما يتابع النمساويون طريقهم على طول السين Seine. وكانت قوات الحلفاء واثقة من النصر حتى إنها أجرت

الترتيبات لتتلاقى عند القصر الملكي في الأسبوع المقبل(٢٦).

وبعد أن أتاح نابليون لجيشه الجريح أسبوع راحة أسند جانباً منه إلى قائده فكتور Victor وأودينو Oudinot لإعاقة تقدم شفارتسنبرج، وتقدم هو نفسه (نابليون) على رأس ٦٠,٠٠٠ مقاتل عبر مستنقعات سان جون St. Gond كطريق مختصر إلى شامبوبيرت Champaubert. وهناك لحقوا بمؤخرة قوات بلوخر، وقاد مارمون Marmont القوات الفرنسية في نصر حاسم (١٠ فبراير)، واندفعت القوات الفرنسية فالتقت بعد ذلك بيوم بقسم من جيش بلوخر عند مونتميريال Montmirial، وكان كل من نابليون وبلوخر حاضرين في المعركة، لكن مارمون Marmont أثبت مرة أخرى أنه بطل المواجهة، ففي ١٤ فبراير التحمت القوتان في معركة أكبر في فوشامب Vouchamps، وقاد نابليون جيشه الذي أصبح الآن أكثر ثقة - إلى النصر. لقد فقد بلوخر في غضون أربعة أيام ٣٠,٠٠٠ من رجاله(٢٧). وأرسل نابليون ٨٠٠٠ أسير ليتم عرضهم في باريس لرفع الروح المعنوية للمواطنين الفرنسيين(٢٨).

وعلى أية حال فإن شفارتسنبرج كان في هذه الأثناء يلاحق قوات أودينو Oudinot وفيكتور Victor حتى كاد يصل إلى فونتينبلو Fountainbleau. لقد أصبح في إمكان الجيش النمساوي البروسي القيام بهجوم شامل كي يصل مع الإمبراطورين إلى باريس في غضون أربعة أيام. وصُدِم نابليون بهذا التعزيز الذي محق كل انتصاراته فترك مارمون Mormont لمواجهة بلوخر الذي اعترت قواته الإرهاق (على الأقل)، واندفع جنوباً على رأس ٧٠,٠٠٠ من قواته والتقى بأحد جيوش الحلفاء في مونترو Montereau بقيادة ڤيتجنشتاين Wittgenstein وهزمه (١٨ فبراير) وتمركز في نانجي Nangis وأرسل كلاً من فيكتور Victor وأودينو Oudinot لمهاجمة قوات شفارتسنبرج من الجناحين والمؤخرة. ووجد شفارتسنبرج أن قواته في وضع خطر من ثلاث جهات ففكر هذا القائد النمساوي أن الوقت قد أصبح مناسباً لعرض الهدنة على نابليون، الذي أجاب أنه يستطيع الموافقة على وقف إطلاق النيران في حالة واحدة وهي أن يضمن الحلفاء ما عرضوه في فرانكفورت والقاضي بضمان حقوق فرنسا في حدودها الطبيعية.

وتشـاور الحلفـاء في هذا العـرض الذي يعني انسـحـابهـم إلى مـا وراء الراين وأنهـوا المفاوضات، ولم يضعوا في اعتبارهم عرض نابليون، وأكدّوا تحالفهم لمدة عشرين عاماً أخرى في شـومون Chaumont في ٩ مارس، وتراجع شفارتسنبرج إلى تروي Troyes وكـان لايزال معه ١٠٠,٠٠٠ مقاتل.

وراح نابليون يلاحقه بحذر على رأس ٤٠,٠٠٠ مقاتل. وفي هذه الأثناء علم أنّ بلوخر أعـاد تكوين قـواته وتشكيلهـا وأنه راح – مـرة أخـرى – يشق طريقـه إلى باريس على رأس ٥٠,٠٠٠ مقـاتل، فـترك (أي نابليـون) كـلاً من أودينو Oudinot ومكـدونالد Macdonald وإتين – موريس – جيـرار Etienne - Maurice Gérard لمناوشـة قـوات شـفـارتسنبـرج وعـاد برجاله من السين إلى المارن Marne، ودمج بين قوات مـارمـون ومـورتييـه Mortier على أمل الإيقـاع بقـوات بلوشـر (بوخلر) عند نهـر آسن Aisne حيث لا يمكن للقـوات البـروسيـة أن تهـرب إلا من فـوق جـسـر سـويسـون Soissons، لكـن جيـشين آخـرين من جيـوش الحلفـاء (٥٠,٠٠٠ مقاتل) تحركا من الشمال وانقضا على جسر سويسون Soissons، وأرهبا القـائد الفرنسي على تسليم الجسر والمدينة، فعبرت قوات بلوخر Blucher الجسـر وأحرقته (بعد العبـور) وانضـمت إلى القـوات المنقـذة (بكسـر القـاف) فـأصبح إجـمـالي عـدد القـوات ١٠٠,٠٠٠، وتعـقـبهـم نـابليـون على رأس ٥٠,٠٠٠ وقـاتلهـم بشـكل غيـر حـاسم في كـرون Craonne ولاقى الهزيمة في معركة شرسة استمرت يومين في لون Loan (٩–١٠ مارس).

وترك نابليون كلاً من مارمون، ومورتييه لمواجهة بلوشر (بلوخر) وراح مرة أخرى ينتقل من مواجهة عدو إلى مواجهة عدو آخر، وفي أرسي – سير – أوب Arcis - Sur - Aube (في ٢٠ مـارس) بدأ حـرباً عنيـفـة مجنونة بمن بقي مـعـه (٢٠,٠٠٠) مع جيش شـفـارتسنبـرج (٩٠,٠٠٠ من الجنود الأقـوياء) وبعـد يومين من المذابح والحـرب البطولية اعـتـرف بالهـزيمة وعبر الأوب Aube لإتاحة مكان ملائم لجيشه المستنزف كي يستريح.

لقـد أصبح نابليون مرة أخرى على وشك الانتهـاء. لقـد أصبح حاد المزاج لتوتر أعصابه واعتـلال جسـده وراح يوبخ ضبـاطه بشـكل غاضب مع أنهـم خاطروا بحيـاتهـم من أجله في حرب إثر حـرب. لقد حذّروه ذاكرين أنه لن يتلقى تعزيزات عسكرية أخرى من أمة تعبت

من « العظمة » وتلبّستها « اللامبالاة ». وراحت الحكومة التي تركها وراءه في باريس – حتى أخوه جوزيف – ترسل له مناشدات لإبرام السلام بأي ثمن.

وفي حالة اليأس هذه قرر نابليون أن يخاطر بكل شيء بالقيام بهجوم آخر يتسم باستراتيجية خيالية. سيترك أفضل جنرالاته لإيقاف تقدم قوات الحلفاء على قدر ما يستطيعون، ويتجه هو (أي نابليون) بقوات غير كثيرة العدد إلى ناحية الشرق ويحرر الجنود الفرنسيين المحتجزين في الحصون الألمانية على طول نهر الراين، وبهؤلاء الجنود المتمرسين على القتال بالإضافة لكتيبة (كتيبة نابليون) المزوّدة بالمدافع يقطع خطوط مواصلات العدو ويمنع عنه المؤن، ويهاجم مؤخرة حراساتهم ويجبرهم على عدم متابعة تقدمهم، فيمكن بذلك أن تستعيد باريس روحها المعنوية العالية بفضل شجاعته فتبني دفاعاتها، وتتحدّى غزاتها. وفي لحظة أكثر تعقلاً أرسل نابليون تعليمات إلى جوزيف مُفادها أنه إذا كان التسليم وشيكاً فإن على الحكومة أن تصحب ماري لويز، و« ملك روما » (ابنه) إلى مكان آمن وراء نهر اللوار حيث يمكن تجميع كل القوات الفرنسية المتاحة لخوض معركة أخيرة.

وبينما كان نابليون يقود قواته المندهشة شرقاً، راح الحلفاء يوماً بعد يوم يحطمون مقاومة بقايا الجيش الفرنسي، ويتحركون ليقتربوا أكثر فأكثر من نهاية رحلتهم الطويلة. وبقي فرانسيس الثاني عند ديجون Dijon غير راغب بالمشاركة في إذلال ابنته، وكان فريدريك وليم الثالث معتدلاً كالعادة، إذ شعر أنه ثأر لتحطيم جيشه وتمزيق بلاده وإبعاده منفياً عن عاصمته، أما إسكندر فقد كان فخوراً متوتراً فلم يعد يجد سعادته في المذابح اليومية، ونظر إلى نفسه باعتباره قد أنجز ما وعد به في ڤيلنا Vilna من تطهير روسيا ممّن دنّس موسكو وحرر أوروبا من جنون القوة ممثلة في هذا الكورسيكي (نابليون).

وفي ٢٥ مارس قام مارمون ومورتييه بمحاولة يائسة لوقف تقدم الحلفاء عند لافير – شامبنواز La fère Champenoise على بعد مائة ميل من باريس، فحارب الفرنسيون بشجاعة منقطعة النظير مع أن قواتهم كانت نصف قوات العدو، حتى أن إسكندر نفسه تقدم إلى ساحة المعركة وأمر بإيقاف هذه المذبحة غير المتكافئة وصاح قائلاً: «أريد إنقاذ هؤلاء

الشجعان Je veux Sauver ces braves" وبعد انتهاء المعركة أعاد المنتصرون إلى الجنرالات المهزومين خيولهم وسيوفهم(٢٩). وانسحب مارمون ومورتييه إلى باريس استعداداً للدفاع عن العاصمة.

ووصل بلوخر وشفارتسنبرج إلى ضواحي باريس في ٢٩ مارس، وأصيب المواطنون الباريسيون بالذعر بسبب أصوات قذائف المدافع، وفرار الفلاحين إلى المدينة، وأصاب الذعر أيضاً ١٢,٠٠٠ من أفراد الميليشيا الذين كان معظمهم غير مسلحين سوى بالرماح، وهم مدعوون الآن لمساعدة الجيش الفرنسي المقيم في باريس بشغل حصون العاصمة والتمركز فوق تلالها. وكان جوزيف يتوسل إلى الإمبراطورة الوصية على العرش منذ مدة لمغادرة العاصمة على وفق ماكان نابليون قد وجّه به، وقد امتثلت الإمبراطورة الآن للطلب لكن «ليجلون(*) L'Aiglon» قاوم إلا أن جلبة المعركة التي أصبحت وشيكة، جعلته يذعن.

وفي ٣٠ مارس بدأ الغزاة البالغ عدد جنودهم ٧٠,٠٠٠ هجومهم الأخير، فراح مارمون ومورتييه على رأس ٢٥,٠٠٠ مقاتل يبذلان كل ما في وسعهما من جهد للدفاع عن المدينة التي لم يفكر الإمبراطور الفخور (نابليون) أبداً في تحصينها، وانضم إلى القوات المدافعة عدد من المحاربين القدماء وضحايا الحرب وطلبة مدرسة البوليتقنيَّة والعمال وغيرهم من المتطوعين. وراح جوزيف يراقب المقاومة إلى أن أدرك أنه لا جدوى منها وأنها قد تدفع الغزاة إلى دك المدينة (باريس) بالمدافع، وهي مدينة عزيزة على أثريائها وفقرائها على سواء. ورغم أن إسكندر قد يتصرف تصرف المعزّي المواسي المحسن، إلا أن الجنود القوزاق قد يستعصون على السيطرة، ولم يكن بلوخر بالرجل الذي يمنع كتائبه البروسية من الأخذ بثأرها كاملاً. لكل هذا فقد خوّل جوزيف سلطاته إلى المارشالات وغادر المدينة ليلحق بماري لويز والحكومة الفرنسية في بلوا Blois على نهر اللوار. وبعد يوم من المقاومة الدموية وجد مارمون ألا جدوى من استمرارها فوقَّع وثيقة استسلام المدينة في الساعة الثانية من صباح ٣١ مارس سنة ١٨١٤.

(*) الكلمة تعني فَرْخ العُقاب.

وفي وقت لاحق من هذا الصباح دخل إسكندر وفريدريك وليم الثالث وشقارتسنبرج على رأس ٥٠,٠٠٠ جندي رسمياً إلى باريس، فحيّاهم الناس بحقد صامت لكن القيصر هدّأ من روعهم بتكرار التحية وإظهار شيء من المودّة[٣٠]. وعندما انتهت المراسم بحث عن تاليران في شارع سان فلورنتين St Florentin وطلب منه النصيحة لإحداث تغيير منظم في الحكومة الفرنسية. واتفقا على ضرورة انعقاد جلسات السينات Senate مرة أخرى، وأن يضع دستوراً وأن يعيّن حكومة مؤقّتة. واجتمع السينات في أول أبريل ووضع دستوراً يضمن الحريات الأساسية وعيّن حكومة مؤقتة اختار تاليران رئيساً لها، وفي ٢ أبريل أعلن السينات Senate عزل نابليون.

٦- طريق السّلام

لقد كان نابليون في سان ديزييه St. Dizier على بعد ١٥٠ ميلاً من باريس عندما وصلته الأخبار (٢٧ مارس) بأن الحلفاء يحاصرون باريس، فانطلق بجيشه في الصباح التالي، وبعد ظهر اليوم نفسه تلقى رسالة عاجلة أكثر أهمية: « حضور الإمبراطور أمر ضروري إن كان راغباً في ألا تستسلم عاصمته للعدو. لا يجب تضييع لحظة واحدة ». وترك نابليون جيشه عند تروي Troyes وامتطى حصانه طوال معظم الأميال المتبقية رغم آلامه، واقترب من باريس (٣١ مارس) وأرسل كولينكور Caulaincourt إلى باريس على أمل أن يحثّ هذا « الروسي » إسكندر على عقد تسوية.. وواصل الإمبراطور (نابليون) طريقه راكباً حصانه إلى فونتينبلو مخافة أن يُقبض عليه إنْ – هو – دخل المدينة (باريس)، وفي مساء اليوم نفسه تلقى رسالة من كولينكور: « لقد خاب مسعاي »[٣١]. وفي ٢ أبريل علم أنه نُحِّي عن العرش، ففكّر للحظة كم هو شيء يدعو إلى السرور أن يترك العرش. لقد قال: « إنني لستُ معلّقاً بالعرش. لقد وُلدت جندياً. إنه يمكنني أن أكون مواطناً دون تذمّر ». لكن وصول جيشه الذي كان عدده ٥٠,٠٠٠ مقاتل لمس الوتر المناسب في طبيعته[٣٢]، فأمر أن ينصب هذا الجيش خيامه على طول إيسون Essonne (أحد روافد السين) استعداداً لأوامر أخرى، وقاد مارمون إلى هذا المعسكر ما تبقى من الجنود الذين كانوا يدافعون عن باريس.

وفي ٣ أبريل استعرض نابليون الحرس الإمبراطوري في ساحة ميدان فونتينبلو، وقال لهم: «لقد عرضت على الإمبراطور إسكندر سلاماً لا يتحقق إلا بتضحيات جسام.. لكنه رفض.. إنني في غضون أيام قليلة سأذهب لأهاجمه في باريس. هل أعوّل عليكم؟» وفي البداية لم يجيبوه لكن عندما سألهم: «أأنا على صواب؟» أجابوا: «عاش الإمبراطور! هيا إلى باريس». وراح رماة القنابل ينشدون نشيدي الثورة في أيامها الأولى: نشيد الانطلاق، ونشيد المارسيليز.

وكان الجنرالات متشكّكين. لقد وجدهم في اجتماع خاص معارضين لعودة البوربون، لكنهم أيضاً كانوا غير متحمسين لبذل محاولة لإخراج الحلفاء من باريس. وفي ٤ أبريل دخل المارشالات (ني Ney وأودينو Oudinot ومونسي Moncey وليفيبفر Lefebvre) غرفة نابليون دون دعوة منه وقالوا له إنه ما دام السينات (مجلس الشيوخ) قد عزله فإنهم لا يستطيعون أن يتبعوه في هجوم على القوات المتحالفة والحكومة المؤقتة، فقال لهم إنه سيقود الجيش بدونهم، فردّ عليه نَيْ Ney بحسم: «إن الجيش سيطيع قادته» فسألهم نابليون ماذا يريدون منه، فأجاب نَيْ Ney وأودينو Oudinot: «التنازل» فكتب نابليون تنازلاً مشروطاً يترك بمقتضاه العرش لأبنه تحت وصاية ماري لويز. وأرسل كولينكور، ومكدونالد ونَيْ Ney إلى باريس لتقديم هذا العرض. وفي الطريق توقفوا عند معسكر إيسون Essonne لاستشارة مارمون Mormont فراعهم أن وجدوه قد شرع في التفاوض مع شڤارتسنبرج حول شروط تسليم المدينة.

وفي تلك الليلة (٤-٥ أبريل) قاد مارمون رجاله البالغ عددهم ١١,٠٠٠ عبر تخوم المدينة بعد أن قبل تماماً شروط شڤارتسنبرج المتساهلة. وفي ٥ أبريل أحاط قادة الحلفاء كولينكور علماً بأنهم لن يتعاملوا منذ الآن مع نابليون إلا إذا تنازل عن العرش دون قيد أو شرط وفي هذه الأثناء أرسلوا جنوداً لتطويق فونتينبلو لمنعه من الهرب.

وخفّف إسكندر من وطأة هذه الإجراءات القاسية بأن حمى باريس من السلب والنهب، كما قام بزيارات وديّة لكل من ماري لويز، وجوزفين، وهورتنس Hortense. لقد كان الروسي هو الأكثر تحضّراً من بين الفاتحين. لقد حثّ زملاءه على أن يوقّعوا معه «معاهدة

فونتينبلو » التي تقدم لنابليون جزيرة في البحر المتوسط كسجن فسيح ينعم فيه بسماء إيطالي « مشمس » ودخل يأتيه من فرنسا. وفيمايلي النص الأساسي لهذه الاتفاقية:

« صاحب الجلالة الإمبراطور نابليون من ناحية وأصحاب الجلالة إمبراطور النمسا.. وإمبراطور كل روسيا، وملك بروسيا يتعهدون بالأصالة عن أنفسهم وكل حلفائهم..

مادة (١): يتخلّى صاحب الجلالة الامبراطور نابليون بالأصالة عن نفسه وأخلافه وذريته وكل أفراد أسرته عن كل حقوق السيادة في الإمبراطورية الفرنسية.. وفي كل المناطق الأخرى.

مادة (٢): يحتفظ صاحبا الجلالة: الإمبراطور نابليون والإمبراطورة ماري لويز بألقابهما ورتبهما طوال فترة حياتيهما. ويحتفظ أيضاً كل من: أم الأمبراطور وإخوته وأخواته وأبناء إخوته وأبناء أخواته وبنات إخوته وبنات أخواته – أينما حلّوا بألقابهم الملكية.

مادة (٣): جزيرة إلبا Elba التي اختارها صاحب الجلالة الإمبراطور نابليون كمقر ستبقى خلال حياته ولاية منفصلة يتملكها ويكون له فيها حق السيادة الكاملة، وهي ملك له.

وعلاوة على ذلك سيقدّم للإمبراطور نابليون عائد سنوي مقداره ٢,٠٠٠,٠٠٠ فرنك كملْك خالص له من الخزانة الفرنسية يحوّل منها ١,٠٠٠,٠٠٠ للامبراطورة[٣٣]. (المفهوم أن الحلفاء سيدفعون هذا المبلغ مع إضافته إلى ديون فرنسا).

ووقع نابليون هذا الاتفاق في ١٣ أبريل كما وقع تنازله الأول عن العرش ومن ثمّ وقّعه الحلفاء. لقد كان نابليون يتطلع إلى كورسيكا لتكون منفى له لكنه علم أنه لن يُسمح له بذلك لأن كورسيكا حاضنة للثورة (مهيّأة لها)، فكانت إلبا Elba هي اختياره الثاني[٣٤]. ولم يُسمح لماري لويز باصطحابه إلى إلبا، وكانت قد حاولت اللحاق به في فونتينبلو، لكن الحلفاء حالوا بينها وبين رغبتها كما أن نابليون – بدوره – لم يشجّعها على القدوم إليه[٣٥]. وفي ٢٧ أبريل غادرت مع ابنها رامبويه Rambouillet قاصدة ڤينا، وكان هذا على غير رغبتها.

وربما يكون نابليون قد أثْناها عن القدومِ إليه لاعتزامه الانتحار. لقد لاحظنا فيما سبق أن الدكتور يفا Yvan قد أعطاه قنينة سُم عند عودته من روسيا، وفي ليلة ١٢-١٣ أبريل ابتلع محتويات القنينة، ويبدو أن السّم كان قد فقد مفعوله فعانى نابليون لكنه شفي واعتراه الخجل كثيراً لهذا، فراح يبرر استمرار وجوده على قيد الحياة بأن اقترح على نفسه كتابة سيرته الذاتية التي تقدم القصة من وجهة نظره والتي تحتفي بأعمال الشجعان الذين قاتلوا معه Mes braves[٣٦].

وفي ١٦ أبريل كتب وداعاً لجوزفين: «لا تَنْسَيْ هذا الذي لم ينسَكِ ولن ينساكِ أبداً»[٣٧] وماتت جوزفين بعد ذلك بشهر (٢٩ مايو)، وفي ١٩ أبريل ودّع خادمه الخصوصي كونستانت (قسطنطين) وحارسه الشخصي روستام Roustam (النص مملوكه Mameluke) وفي ٢٠ مايو ودّع جنود حرسه القديم الذين كانوا قد بقوا معه إلى النهاية:

«أيها الجنود وداعاً، فطوال عشرين عاماً كنا فيها معاً كان تصرفكم مثالياً محققاً لكل رغباتي. لقد كنت أجدكم دوماً على طريق العظمة.. فبكم وبالرجال الشجعان الذين لا زالوا مخلصين كان يمكنني أن أقود حرباً أهلية لكن فرنسا ساعتها لن تكون سعيدة. إذن كونوا مخلصين للملكم الجديد، وكونوا مُطيعين لقادتكم الجُدد ولا تتخلوا عن وطنكم المحبوب.

لا تندبوا حظّي، فسأكون سعيداً إذا علمت أنكم سعداء. ربما مِتُّ.. لكنني إن كنت قد رضيت بالحياة فليس إلاّ لاستجلاء مزيد من عظمتكم. سأكتب عن الأمور العظيمة التي حققناها.

لا أستطيع أن أعانقكم واحداً واحداً، لكنني سأعانق جنرالكم تعالَ يا جنرالي لأضمك إلى قلبي. أحضر لي العُقاب (النسر) لأعانقه أيضاً (النسر هو شعار الحرس). آه يا عقابي (نسري) العزيز، ربما تجد هذه القُبلة التي أقدمها لك – صداها لدى الأجيال القادمة. وداعاً يا أولادي، سيتمنى لكم قلبي دوماً أحسن الأماني. لا تنسوني!»[٣٨].

واختار أربعمائة من الحرس ليصحبوه إلى جزيرة إلبا. ودخل العربة مع الجنرال بيرتران Bertrand الذي سيظل معه إلى النهاية وصحبه أربعة من ضباط الحلفاء للتأكد من غرضه –

روسي وبروسي ونمساوي وإنجليزي، كما صحبته حامية فرنسية صغيرة لحمايته(٣٩). لقد كان في حاجة إلى حماية في أثناء مروره في بروفنس Provence حيث كان السكان كاثوليكا متعصبين كما كانوا موالين للملكية على نحوٍ ما فراحوا يوجهون له الإهانة في أثناء مروره. وفي أورجون Orgon بالقرب من آرل Arles رأي تمثاله مشنوقاً، وهدّدته الجماهير، وأمرته أن يقول «عاش الملك» فامتثل للأمر تماماً كما سبق للثوار أن أجبروا لويس السادس عشر على الهتاف للثورة. وبعد ذلك تنكّر بارتدائه حلّه رسمية وعباءة قدمهما له الضباط النمساويون والروس. وارتفعت روحه المعنوية في ٢٦ أبريل عندما وجد أخته بولين Pauline في انتظاره في لي لوس Le Lus. لقد تركت الريفيرا الفرنسية وتخلت عن دعوة إلى روما، ومكثت في بيت ريفي صغير وكتبت إلى فيليس باكيوشي Felice Bacciocchi «إن الإمبراطور سرعان ما سيمر من هنا وأنا راغبة في رؤيته لأعبر له عن عواطفي، فأنا لم أكن أحبه كامبراطور وإنما لأنه أخي»(٤٠) ورفضت أن تعانقه وهو متنكر، فأزاح عن نفسه ملابس التنكر وراح ينعم بإخلاصها ووفائها طوال أربع ساعات.

وفي ٢٧ من الشهر نفسه واصل الطريق إلى فريجو Frejus وهناك (في ٢٨ أبريل) حيّته السفينة البريطانية (أندونتد Undaunted – ومعناها الشجاع أو الجسور) بإطلاق إحدى وعشرين طلقة من مدافعها، وأبحر قاصداً إلبا، وحاول طوال الأشهر التسعة التالية أن يتعامل مع هذا السلام الذي اتسمت شروطه بالسذاجة.

الفصل السابع والثلاثون

إلى واترلو

[١٨١٤ - ١٨١٥]

١- لويس الثامن عشر

هو لويس ١٨ ابن لويس الدوفين Dauphin (الكلمة تعني الابن البكر)، ابن لويس ١٥ فهو إذن رابع «لويس»، كما كان لويس السادس عشر «هو ثالث لويس». وحتى سنة ١٧٩١ - عندما كان في الثلاثين من عمره - كان قانعاً فيما يظهر بأن يكون كونتاً لبروفنس Provence، وكان وسيماً لطيفاً يتذوق الأدب ويدعم الأدباء ويشارك في المناقشات الرائعة في صالون خليلته[١]. وعندما حاول لويس السادس عشر الهربَ من فرنسا (١٧٩١) حاول هو بدوره ونجح وانضم إلى أخيه كونت درتوا d'Artois في بروكسل Brussels، وعندما مات لويس السابع عشر في العاشرة من عمره (١٧٩٥) بعد أن ذَوَي بسبب السجن والأحزان، حمل كونت بروفنس Comte de Provence - باعتباره الوريث الشرعي لعرش فرنسا - اسم لويس الثامن عشر واعتبر نفسه ملك فرنسا طوال سنوات الثورة وطوال فترة حكم نابليون. ولأنَّ نفوذ الثورة ونابليون راحا ينتشران، فقد كان على لويس الثامن عشر أن يغيِّر مقر إقامته فراح ينتقل من مكان إلى مكان - من ألمانيا إلى روسيا إلى بولندا إلى روسيا إلى إنجلترا (١٨١١)، وهناك أيدته الحكومة، واحتفظ هو نفسه باحترام للدستور البريطاني.

وفي ١٤ أبريل ١٨١٤ أصدر السينات (مجلس الشيوخ الفرنسي) وعلى رأسه تاليران القرار التالي:

«امتثالاً لاقتراح الحكومة المؤقتة وتقرير لجنة خاصة من سبعة أعضاء، يعهد مجلس الشيوخ (السينات) بحكومة فرنسا المؤقتة، لصاحب الجلالة كونت درتوا d'Artois بمسمّى ليفتينانت جنرال المملكة حتى يتم استدعاء لويس - ستانيسلاوس زافييه Louis - Stanislaus - Xavier ليشغل عرش فرنسا مع قبول الصيغة الدستورية[٢]».

ودعا الدستور الذي صاغه مجلس الشيوخ (السينات) إلى عفو عام عن الثوريين الذين على قيد الحياة، كما دعا إلى إلغاء الرسوم الإقطاعية والأعشار الكنسية، وأكّد صحة حجج الملكية التي يحوزها من اشتروا ممتلكات من ممتلكات الدولة (مما صودر من الكنيسة ومن المهاجرين الذين تركوا فرنسا عقب أحداث الثورة الفرنسية) والإبقاء على مجلس النوّاب ومجلس الشيوخ واحترام الحريات المدنية وسيادة الشعب.

وطلب لويس وقتاً للتفكير وقد أسعدته الدعوة لشغل العرش الفرنسي وأزعجته الشروط المفروضة. وفي ٢٤ أبريل غادر إنجلترا قاصداً فرنسا. ومن سان أوِن Ouen (في ١٢ مايو) أعلن أنه سيحترم غالب ما ورد في الدستور المقترح لكنه يرفض سيادة الشعب لأنها تتعارض مع الحقوق الوراثية للملك كما منحها الله. واقترح أن « يمنح » فرنسا ومجلس الشيوخ « ميثاقاً Charter » بدلاً من الدستور. وسيصبح مجلس الشيوخ (السينات) مجلس نبلاء Chamber of Peers يختار الملك أعضاءه، وسيصبح اسم الجمعية التشريعية مجلس النواب Chamber of Deputies ويتم انتخاب أعضائه بواسطة الناخبين الذين يدفع الواحد منهم ثلاثمائة فرنك أو أكثر كل سنة كضرائب مباشرة، وسيكون على هذين المجلسين إدارة عوائد الحكومة ونفقاتها. وأغرى العرضُ بالسيطرة على أموال فرنسا، المجلسين بقبول الميثاق (عِوَضاً عن الدستور) وتعهد الملك بالتعاون، وهكذا عاد حكم البوربون (٤ يونيو ١٨١٤).

وفي معمعة هذه التغييرات قلّصت القوى المتحالفة على وفق « معاهدة باريس الأولى » (٣٠ مايو ١٨١٤) حدود فرنسا إلى ما كانت عليه في سنة ١٧٩٢، وأعطتها شامبري Chambery، وأنيسي Annecy وملهوس Mulhouse، ومونتبيليار Montbeliard. وسلّمت فرنسا مستعمرات مهمّة لإنجلترا وإسبانيا واعترفت بالحكم النمساوي لشمال إيطاليا، ووافقت – مقدَّماً – على أية قرارات سيتخذها مؤتمر فينا فيما يتعلق بكل المناطق التي استولت عليها فرنسا منذ سنة ١٧٩٢.

وبعد أن استقر لويس الثامن عشر في التوليري شعر أنّ من حقه أن يستريح ويسترخي ويسعد بعودة ملكه، وراح يتحدث عن عام ١٨١٤ باعتبارها « السنة التاسعة عشرة لحكمي ». لقد أصبح عمره الآن ٥٩ سنة وسيما ودوداً كسولاً بطيئاً سميناً مصاباً بداء

المفاصل، ولم يكن في كل حالاته ملكاً. لقد أسلم نفسه لحكومة دستورية، وكيّف نفسه - بكياسة - مع ناخبين وخطباء ومتنازعين وصحافة أصبحت تنعم بحرية أكثر مما كانت تنعم به في ظل حكومة الإدارة أو نابليون، وانتعشت الصالونات بالمناقشات الأدبية والسياسية. وبعد أن أصبحت مدام دي ستيل منتصرة (بمعنى أن أغراضها قد تحققت) واصلت اجتماعاتها في باريس واستضافت الملوك.

وكانت النجاحات الاقتصادية التي حققها الحكم الجديد مدعاةً لسعادة الشعب بشكل عام. لقد كان لويس ١٨ ذا حسٍّ سليم فترك قوانين المدوّنة القانونية النابليونية دون تغيير وترك - وبدون تغيير أيضاً - نظام نابليون القضائي والإداري، كما أنه (أي لويس) لم يغيّر البنية الاقتصادية. وكما كان نابليون محظوظاً بأن وجد لوزارة المالية - تلك الوزارة الحيوية - شخصاً على قدر كبير من الكفاءة والاستقامة هو فرانسو موليا François Mollien - كذلك وجد لويس الثامن عشر لشغل هذا المنصب نفسه البارون جوزيف - دومينيك لويس Baron Joseph - Dominique Louis الذي واجه دون توان متطلبات الخزانة وقاوم كل إغراءات الخداع المالي (المغالطات المالية).

وقد أشاد البلاط الملكي بجهوده كرمز لتيسير الانتقال من نظام حكم إلى نظام حكم آخر (كمرحلة انتقال)، وفي العام الأول من الحكم الجديد، كان هناك قدر قليل من الانتقام من أولئك الذين عملوا مع نابليون. لقد راح المارشالات الامبراطوريون (الذين عملوا مع نابليون) يختلطون بحرية مع الملكيين من ذوي الأنساب في بلاط البوربون ونستثني من هؤلاء المارشال دافو Davout، أما أفراد النبالة الدُّنيا مثل مدام دي ريموزا Remusat والسيد ريموزا الذين كانوا قريبين من نابليون فراحوا يتعبدون عند الضريح الذي أُعيد ترميمه وصقله (المقصود: راحوا يتقربون للبوربون من جديد)، وسخر تاليران قائلاً: «إن البوربون لم يتعلموا شيئاً ولم ينسوا شيئاً» وقد يكون هذا القول صحيحا بالنسبة إلى الكونت درتوا d'Artois الذي كان متكبراً بغباء رغم طباعه الجيدة ومنظره الحسن، لكن هذا القول لا ينطبق على لويس ١٨، بل إن نابليون نفسه شهد بعد ذلك (في سانت هيلانا) بسرعة قبول معظم الفرنسيين للحكم القديم بعد إلحاق تجديدات به كما لو كانوا قد وقعوا في أسر

العادات القديمة الراسخة منذ زمن بعيد، بحيث لم يكن ممكناً استئصالها تماماً.

ومع هذا كان هناك شيء من الاستياء وعدم الرضا. لقد جحدت الكنيسة الكونكوردات Concordat النابليوني وأصرّت على عودة سلطانها كما كان قبل الثورة، خاصة سلطانها على التعليم. وحصلت الكنيسة من الملك على مرسوم بمراعاة الالتزام الديني الصارم في أيام الآحاد وأيام الأعياد الدينية، ففي هذه الأيام يتعين إغلاق كل المحال من الصباح إلى المساء فيما عدا محال الكيماويين (المقصود الصيادلة) والعشابين، ولم يكن مسموحاً في هذه الأيام: (الآحاد والأعياد الدينية) بالقيام بأعمال مدفوعة الأجر أو نقل البضائع لأغراض تجارية[٣]. وأصبح من الصعب عدم الاعتراف بالكاثوليكية. لكن الأكثر مدعاة للإزعاج هو مطالبة الكنيسة بكل الممتلكات الكنسية التي صادرتها الثورة، وهو طلب بدا معقولاً. لكن تنفيذه لا يمكن إلا أن يُواجه بثورة مئات الألوف من الفلاحين وأفراد الطبقة الوسطى الذين سبق أن اشتروا هذه الممتلكات من الدولة. إن خوف هؤلاء المشترين من نزع ملكياتهم كلها أو جزءاً منها جعلهم يفكرون في الترحيب بعودة نابليون مُبَرَّءًا من داء شن الحرب.

لازالت هناك أقلية نشيطة متعلّقة بمبادئ الثورة راحت - على أية حال - تعمل بشكل سري لإحياء هذه المبادئ. لقد راح اليعاقبة Jacobins الذين تعرضوا لضغط شديد على يد الحكم الملكي الجديد - يعملون على أمل أن تصبح عودة نابليون ضرورة وأن يطيح بحكم البوربون، ويصبح مرة أخرى ابنا للثورة. واستطاع اليعاقبة أن يجندوا كثيرين في صفوف الجيش لتحقيق هذا الأمل. وكان المارشالات قد وقعوا أسرى كرم الملك ودماثته ولكن طبقة الضباط كانت تتطلع إلى إحياء الأيام التي كانت فيها هراوة المارشال يمكن أن يحوزها الضابط في ميدان المعركة (المعنى: يمكن أن يتحول الضابط العادي إلى مارشال على وفق بلائه في المعركة). لقد راحت طبقة الضباط تتوق لتلك الأيام خاصة وهم يرون أن طبقة النبلاء راحت تستعيد احتكارها للمناصب العليا. وكان لويس ١٨ - رغبة منه في موازنة الميزانية - قد سرّح ١٨,٠٠٠ ضابط و ٣٠٠,٠٠٠ جندي، وراح كل هؤلاء الرجال المطرودين تقريباً يناضلون ليجدوا لهم مكاناً في ظل النظام الاقتصادي السائد، وراحوا يتذكرون بحسرة أيام الإمبراطور (نابليون) التي بدت في عيونهم مثالية، تلك الأيام التي

بدا فيها الموت دالاً على العظمة.

وكان سخط الجيش هو الأكثر وضوحاً من بين مظاهر السخط البادية في القوى الأخرى التي فتحت الباب أمام عودة المبالغات الفاتنة. أضف إلى هذا خوف الفلاحين من نزع ملكياتهم أو عودة الرسوم الإقطاعية، وكان الصناع يعانون من تدفق البضائع البريطانية تدفقاً شديداً. لقد كان الجميع مستائين باستثناء الكاثوليك شديدي التمسك بكاثوليكيتهم والخاضعين لسيطرة الإكليروس خضوعاً شديداً، وكان حل الملك للمجلسين في نهاية سنة ١٨١٤ (لم يُعدها حتى شهر مايو) مما زاد السخط، وكان الفقراء مشتاقين في طوايا نفوسهم لفرنسا النابليونية المثيرة ذات البهاء؛ كل هؤلاء كانوا سهلي الانقياد وكانوا في انتظار ريح مواتية فوصلت أخبارهم إلى إلبا Elba ورفعت الروح المعنوية للمقاتل السجين (نابليون) الذي اتضح أنه وإن كان قد جُرح فإنه لم يمت.

٢- مؤتمر ڤينا: سبتمبر ١٨١٤ - يونيو ١٨١٥

كان هذا المؤتمر أكثر الاجتماعات السياسية تميزاً في التاريخ الأوروبي وكان من الطبيعي أن يكون أعضاؤه البارزون هم المنتصرين الكبار في حرب الأمم: روسيا وبروسيا والنمسا وبريطانيا العظمى، لكن كان هناك أيضاً مندوبون عن السويد والدنمرك وإسبانيا والبرتغال والباباوية وبافاريا وسكسونيا وڤيرتمبرج Wurttemberg...، ولأن تاليران المخادع كان يمثل فرنسا المهزومة، فإن هذا وحده كان كافياً لوضعها في الاعتبار. وستوضّح إجراءات المؤتمر مبدئين ليسا متناقضين تماماً بالضرورة: أصوات المدافع أقوى وأعلى من الكلمات، كما أن القوة قلّما تُحرز نصراً إذا لم يحكمها العقل.

كانت روسيا ممثلة بشكل أساسي بالقيصر إسكندر الأول ذي الجيش الأكبر والجاذبية الأوضح. لقد اقترح بمساعدة الكونت أندرياس رازوموڤسكي (راعي بيتهوفهن) والكونت كارل روبرت نسلرود Nesselrode أن تحصل روسيا على بولندا كلها مكافأةً لها لقيادتها الحلفاء من مرحلة التردد على النيمن Niemen والسبري Spree إلى النصر على ضفاف السين Seine، وأيد الأمير تشارتوريسكي Czartoryski ممثل بولندا (بإذن من إسكندر) هذا

الاقتراح على أمل أن توحيد بولندا يمكن أن يكون خطوة نحو استقلالها.

وكان يمثل بروسيا من الناحية الرسمية الملك فريدريك وليم الثالث وإن كان الأكثر فعالية في وفدها هو الأمير فون هاردنبرج مع فيلهلم فون همبولدت الذي كان كفيلسوف الحاشية.

لقد طالبوا بمكافأة مناسبة للقيادة العسكرية الباهرة للقائد البروسي بلوخر Blucher ولتضحية البروس بحياتهم. ووافق إسكندر بشرط أن تسحب بروسيا دعاويها في المنطقة البولندية التي كانت تابعة لها، وقدَّم لفريدريك وليم كل سكسونيا (التي كان ملكها مسجوناً في هذا الوقت في برلين) والذي يستحق عزله من منصبه لأنه كان قد قدَّم الجيش السكسوني ليكون تحت إمرة نابليون، ووجد الفريهر فوم شتاين Freiherr Vom Stein أن هذا حل لطيف للمسألة.

وادّعت النمسا أن دعوتها للتحالف (ضد نابليون) هي التي قررت نتيجة الحرب، ولابد - لهذا - أن تتلقى عوناً كريماً على مائدة المنتصرين. وكان إبعادُ النمسا عن بولندا أمراً لا يُحتمل كما أن ضم سكسونيا إلى بروسيا قد يطيح بتوازن القوى كلية بين الشمال والجنوب، وبذل ميترنيخ كل جهده وكياسته وحدّة ذهنه للحيلولة بين المجتمعين وبين أن يجعلوا من النمسا قوة أوروبية (أو كياناً أوروبيا) من الدرجة الثانية. وعاون الإمبراطور فرانسيس الثاني وزير خارجيته في تحقيق هذا الغرض بإغراق ضيوفه بالولائم والحفلات. لقد كانت خزانته بعد الحرب على شفا الإفلاس، فغامر بما بقي فيها بإغراق ضيوفه بالنبيذ والشمبانيا (نوع من الخمور) وإتخامهم بالوجبات الدسمة Neanderthal Meals، وتألقت صالات القصور الملكية طوال معظم الليل بالحفلات المسرفة، وظهر الممثلون والممثلات والمغنون والمغنيات والفنانون والفنانات لتحقيق البهجة لأصحاب الجلالة والسعادة والسمو ومن معهم.

وهز بيتهوفن مشاعر المدينة بمقطوعته "Die Schlacht Von Vittaria" وحملت النسوة الجميلات ثروات طائلة في ملابسهنّ وشعورهنّ (المقصود الحلي والمجوهرات)، وأبدين للعيان كثيراً من زينتهن بقدر ما يسمح احترامهن الرقيق للكاردينال كونسالفي Consalvi،

وأصبحت الخليلات رهن إشارة الباحثين عنهن من ذوي المكانة، وسدّت المحظيات والمومسات حاجة أفراد النبالة الدنيا. وسرت الإشاعات في المدينة عن علاقات القيصر الغرامية(٤).

لقد ربح قيصرُ النساءَ لكنه خسر معركته الدبلوماسية. لقد راح ميترنيخ يبحث عن حلفاء ضدّه (ضد القيصر) من بين أعضاء وفود القوى الصغرى. لقد دافع عن أن مبدأ الشرعية يمنع سلب ملك (نزعه من ملكه) وهو الاقتراح الذي قدمته كل من روسيا وبروسيا فيما يتعلق بسكسونيا وملكها. وقد اتفقوا، لكن كيف يستطيعون إقناع روسيا بهذا المبدأ وهي تمركز على جبهتها الغربية ٥٠٠,٠٠٠ جندي؟ وناشد ميترنيخ اللورد كاسلريه Castlereagh المتحدث باسم إنجلترا: ألن تتوقّع إنجلترا شرا من روسياالممتدة عبر بولندا والمتحالفة مع بروسيا المنتفخة بضم سكسونيا إليها؟ ماذا سيفعل هذا بتوازن القوى شرقاً وغرباً؟ وبرّر كاسلريه موقفه قائلاً إن بريطانيا في حرب مع الولايات المتحدة ولا تستطيع المخاطرة بمواجهة روسيا.

وهنا لجأ ميترنيخ – كملاذ أخير – إلى تاليران لقد كان ميترنيخ قد أغضب الرجل الفرنسي (تاليران) باستثناء فرنسا من الاجتماعات الخاصة «للأربعة الكبار Big Four» كما استثنى معها «القوى الأقل أهمية»، وأجّل (أي ميترنيخ) أول اجتماع شامل لكل الدول التي حضرت المؤتمر إلى أول نوفمبر ١٨١٤. فكوّن تاليران فكراً عاماً (قضية مشتركة) بين كل أعضاء الوفود الذين لم يحضروا اجتماعات الأربعة الكبار، وسرعان ما وافقوا على أن يكون متحدثاً باسمهم. وبعد أن أصبح موقفه قوياً على هذا النحو بدأ يتحدث عن فرنسا كقوّة لازالت من الدرجة الأولى، يمكنها أن تقيم جيشاً من ٣,٠٠٠,٠٠٠ مقاتل وتموّله. ووجد ميترنيخ في هذا أملاً (أفكاراً واعدة يمكن استثمارها) مع أنه ربما يكون قد اعتبر هذا تهديدا. وضمن تاليران موافقة لويس ١٨، وكسب الدبلوماسيان (تاليران وميترنيخ) تأييد كاسلريه Castlereagh الذي عقدت بلاده الآن اتفاق سلام مع أمريكا. وفي ٣ يناير ١٨١٥ كوّن كل من فرنسا والنمسا وبريطانيا العظمى تحالفاً ثلاثياً Triple Alliance ليؤازر بعضُهم بعضَهم الآخر للحفاظ على توازن القوى. وعندما وُوجهت روسيا بهذا التحالف الجديد

سحبت كل دعاوٍ لها في بولندا، ووافقت بروسيا – بعد أن استعادت ثورن Thorn وبوزن Posen – على أن تحصل على خُمْسَيْ سكسونيا فقط. لقد أصبح من حق تاليران أن يفخر بأنه حوّل بدبلوماسيته فرنسا من متسوّل مُهان إلى قوة كبرى مرة أخرى.

وبعد نحو تسعة أشهر من المساومة أعاد أصحاب الجلالة والفخامة والسمو المجتمعون توزيع أراضي أوروبا على وفق المبدأ القديم – تبقى الأسلابُ للمنتصرين إن كانوا مازالوا أقوياء قوّة تمكّنهم من الاستيلاء عليها، وظهر هذا واضحا في « قرارات مؤتمر فينا » الصادرة في ٨ يونيو ١٨١٥. واحتفظت مالطا باعتبارها مركز حراسة تابعاً لها في قلب البحر المتوسط، وبسطت حمايتها على الجزر الأيونية كمراكز حراسة تابعة لها في الأدرياتي وشرق البحر المتوسط. وأعادت بعض المستعمرات الفرنسية والهولندية التي كانت قد استولت عليها في أثناء الحرب، لكنها احتفظت لنفسها بمستعمرات أخرى لم تردها (خاصة سيلان ورأس الرجاء الصالح) واستعادت سيطرتها على هانوفر ورتّبت تفاهماً مشتركاً قوياً مع مملكة الأراضي المنخفضة Netherlands الجديدة التي تضم الآن هولندا وبلجيكا وبالتالي تضم بين جنبيها مصبّات نهر الرّاين.

وعانت بولندا من تقسيم جديد مع بعض التحسينات. وتسلّمت بروسيا المناطق المحيطة بكلٍّ من بوزن Posen ودانزج (دانتسج Danzig)، وتسلمت النمسا جاليسيا Galicia، وتسلمت روسيا دوقية وارسو (فرسافا) الكبرى التي أصبح اسمها مملكة بولندا وأصبح القيصر الروسي ملكاً عليها كما أصبح لها دستور ليبرالي.

لقد خرجت بروسيا من الحرب بمكاسب أعدّتها لبسمارك (بمعنى أنها أصبحت تربة صالحة لأفكار بسمارك وجهوده) : فبالإضافة إلى خُمْسَي سكسونيا ضمتّ إليها بوميرانيا Pomerania السويدية وريجن Rugen ومعظم وستفاليا Westphalia ونيوشاتل Neuchatel في سويسرا، وتأثير سائد غلاب في الكونفدرالية الألمانية German Confederation التي حلّت الآن محل الكيان الذي كان نابليون قد أسماه كونفدرالية الرّاين Confederation of the Rhine. واحتفظت سكسونيا بثلاثة أخماس أراضيها السابقة واستعادت ملكها. أما النمسا فبالإضافة إلى أراضيها التي كانت في حوزتها قبل مؤتمر فينا حصلت على سالزبورج

(سالتسبورج Salzburg) وإليريا، ودلماشيا والتيرول و« المملكة اللومبارديه الفينيسية » في الشمال الإيطالي. وعادت الولايات الباباوية إلى البابا، وعادت توسكانيا إلى الحكم الهبسبرجي البوربوني. وأخيراً أدان المؤتمر تجارة الرقيق إذعاناً للمسيحية.

وخلال شهري ديسمبر ويناير ١٨١٤–١٨١٥ نظر المؤتمر بجدية إلى اقتراحات باتخاذ مزيد من الإجراءات مع نابليون. لقد كان من رأي بعض أعضاء الوفود أنه من المؤكد أن هذا الرجل المثير (نابليون) لن يستقر راضياً لفترة طويلة وهو حاكم لجزيرة إلبا الصغيرة، وهذه الجزيرة (إلبا) قريبة جدا (بشكل غير مريح) لإيطاليا وفرنسا. فأي إزعاج سيسببه إن هرب منها؟ وكانت هناك اقتراحات عديدة بإرسال قوة عسكرية إلى إلبا للقبض على نابليون وعزله في مكان آخر أكثر بُعدا، وأكثر أمناً لأوربا. وكان هذا أيضا هو رأي تاليران وكاسلريه، ولكن القيصر إسكندر اعترض، فاستقر الأمر على تركه في إلبا[٥].

وبينما المؤتمر على وشك إنهاء أعماله وصلته في بكور صباح ٧ مارس رسالة تحمل خاتم « طارئ وعاجل ». لقد كانت هذه الرسالة من القنصل النمساوي في جنوه وموجهة إلى الوزير النمساوي ومُفادها أن نابليون هرب من إلبا. وعندما أحيطت الوفود علما وافقت على تأجيل فض الموتمر وأن يبقوا في فينا حتى يتم الاتفاق على عمل موحّد. وفي ١١ مارس وصلت أخبار أخرى مفادها أن نابليون قد نزل بالقرب من أنتيب Antibes، وفي ١٣ مارس أصدر المؤتمر من خلال « لجنة الثمانية » إدانة لنابليون مع اعتباره مُهْدَر الدم، فكل من يقتله لا يقع تحت طائلة القانون، وكان المؤتمر قد أكمل برنامجه، لكنه رغم تفرق الوفود ظل رسميا منعقدا حتى ١٩ يونيو عندما وصلت أخبار بهزيمة نابليون في واترلو في اليوم السابق. ساعتها أعلن المؤتمر إنهاء أعماله رسميا.

٣– إلبا

وصل نابليون إلى بُورْتو فِرْياو في ٣ مايو ١٨١٤. ونزل إلى البر في صباح اليوم التالي فاستقبله سكان المدينة بترحيب يفوق الوصف ظناً منهم أنه أحضر معه ملايين الفرنكات لينفقها (في جزيرتهم) وكانوا قبل ثمانية أيام قد شنقوا تمثالاً له باعتباره رجلا مولعا

بالحرب إلى حدّ الجنون[٦]. لقد حَفّوه حارسين له إلى قصر الحاكم الذي أصبح لابد، الآن، يكتسي بالأبهة الإمبراطورية. وطوال التسعة شهور التالية كان على نابليون أن يكون إمبراطورا على جزيرة مساحتها ٨٦ ميلا وسكانها ١٢,٠٠٠ نفس. وأحاط نفسه بكل مظاهر العظمة – ملابس فاخرة وحرس ملكي وحجّاب وياورات وخدم وحشم وموسيقيين ومائة حصان وسبع وعشرين عربة، وربما كان هذا في جانب منه لإيمانه بأن المظاهر هي لعبة الحكم[٧]. وفي ٢٦ مايو أتى ٤٠٠ عضو من أعضاء الحرس القديم لخدمته كنواة لجيش مصغّر. وأتى نحو مائتي متطوع من فرنسا كما أتاه متطوعون آخرون من إيطاليا وكورسيكا فسرعان ما أصبح لديه نحو ١٦٠٠ مقاتل مستعدين للحرب في مواجهة أية محاولة لايذاء إمبراطورهم المحبوب رغم كراهية آخرين له. وليتمتع بمزيد من المناعة حصّن الميناء ونظّم أسطولا – سفينة كبيرة بصاريين (السفينة إنكونستانت Inconstant) وأربع سفن صغار، وكانت كلها مسلّحة.

كيف أمكنه تمويل كل ذلك، وغير ذلك من الأعمال العامة والمشروعات التي حسّن بها أحوال الجزيرة؟ لقد كانت معاهدة فونتينبلو قد ضمنت له مبلغاً سنوياً يأتيه من فرنسا، لكن ذلك لم يحدث، ولم يتلق المبلغ[٨]. لقد كان نابليون على أية حال قد أحضر معه ٣,٤٠٠,٠٠٠ فرنك ذهباً وفضة، وجمع ٤٠٠,٠٠٠ ليرة سنوياً من الضرائب وعوائد أخرى. وبعد انقضاء نصف عام راح يفكر في كيفية مواجهة هذه النفقات إذا مكث في الجزيرة أكثر من عام.

وظل لفترة سعيداً بشكل معقول، واضعاً في اعتباره أساليبه الموسّعة (المقصود خططه طويلة المدى)، وفي ٩ مايو كتب إلى ماري لويز: «وصلت هنا منذ خمسة عشر يوماً. لقد اتخذت لي محلَّ إقامة جميلا.. صحتي على ما يُرام. المنطقة (الجزيرة) مقبولة. لا ينقصني سوى أخبار منك وتأكيدات بأنك على خير ما يرام.. إلى اللقاء يا حبيبتي. قبلة لابني»[٩].

وكان ابن آخر مع أمه الكونتيسة المخلصة فالفسكا Walewska من بين أوّل من زاره، وظن البحارة والمواطنون أنها الإمبراطورة، فرحبوا بها كما يجري الترحيب بإمبراطورة. وانزعج

نابليون فقد كان يأمل أن تلحق به زوجته (ماري لويز) وابنه « ملك روما »، فاستراح ليوم أو يومين بين ذراعي فالفسكا[١٠] ثم طردها برفق متعلّلاً بالأحوال. وربما تكون ماري لويز قد سمعت إشاعات مبالغاً فيها عمّا جرى في هذين اليومين[١١].

وفي أكتوبر أتت أمه وأخته بولين للإقامة معه. وقدّمت له بولين جواهرها والتمست عنده الأعذار لما ظهر من مورا Murat من عدم ولاء. واهتمت به أمه اهتماما مفعماً بالعاطفة، وواسته وقدَّمت له كل مدّخراتها. وظلت أمه وأخته معه رغم افتقادهما حيوية الحياة الإيطالية.

ويمكننا أن نتصّور كم كان يعاني بعد الشهور القليلة الأولى من الجلل الصغير للجزيرة، وضيقها عن إمكاناته الكبيرة وأحلامه العظيمة. وحاول أن يهرب من الملل بالانهماك في النشاط البدني، لكن ما كان يمضى يوم حتى تأتيه أخبار من البر الأوربي تزيده اضطرابا وتحول بينه وبين الاستقرار. لقد أخبره مينيفال Mĕneval الذي كان في خدمة ماري لويز في فينا عن المناقشات التي جرت في المؤتمر (مؤتمر فينا) بخصوص إبعاده عن جزيرة إلبا إلى مكان أبعد ضمانا لأمن أوربا[١٢] وأضاف قائلا له إن المؤتمر ربما ينتهي في ٢٠ فبراير. وأخبره آخرون باستياء الجيش الفرنسي، ومخاوف الفلاّحين وهياج اليعاقبة وعودة نظم العبادة الكاثوليكية إلى قوتها الأولى. وفي فبراير ١٨١٥ أرسل له هوج مار Hugues Maret (دوق باسانو Duc de Bassano) رسالة حملها فلوري دي شابولو Fleury de Chaboulon يؤكد له فيها كل هذه التقارير[١٣].

واندهش لهذه التقارير التي أنعشت فيه الآمال بنهاية أكثر نبلاً من الموت بسبب الفراغ والعزلة، فأخبر أمه بنواياه وطلب منها النصح، فاعتراها القلق من أنها لو تركته الآن يذهب فلن تراه مرة أخرى أبدا، فقالت له: « دعني أنعم بالأمومة لفترة وبعدها سأقول لك رأيي » لكنها علمت أنه كان قد قررّ بالفعل أن يقوم بمغامرته الأخيرة. فقالت له « اذهب يا ولدي إلى قَدَرِك » (النص: اذهب لتنفيذ ما كتبه القدر لك[١٤]).

لقد شعر أنّ عليه أن يعمل بسرعة. فإن انقضى وقت قصير قد لا يكون لديه الوسائل التي يدفع منها لهؤلاء الفرنسيين البالغين ألفا الذين خدموه والذين يجب أن تستمر

خدماتهم. إن الظروف قد تطورت بما يسمح له بمحاولة لاستعادة عرشه والدفاع عنه ليورّثه لابنه الجميل كأدونيس Adonis بعد تدريبه على فنون الحكم. لقد كان الحلفاء ينهون مؤتمرهم وبسبيل عودتهم إلى بلادهم مصحوبين بجنودهم، وربما يكونون قد أصبحوا مستعدين للاستجابة لدعوته للسلام فُرادى. لقد كانت لياليه لا تزال طويلة، وفي جنح الليل يمكن لأسطوله الصغير أن يُفلت من المراقبة ليكون - مرة أخرى - على الأرض الفرنسية.

لقد جهّز أموره بسرية قدر الإمكان، لكن من خلال تفكيره العميق ونظره الثاقب كما هو معتاد منه. لقد أمر الحرس الإمبراطوري وثمانمائة من رماة القنابل (المجموع ١١٠٠ مقاتل) أن يُعدّوا أنفسهم ليكونوا على رصيف الميناء في مساء ٢٦ فبراير للقيام برحلة تستغرق عدة أيام إلى جهة غير محدّدة، ومع هذا فقد استنتجوا أنهم ذاهبون إلى فرنسا وأسعدهم هذا.

وفي مساء اليوم المحدد عانق أمه وأخته (اللتين كان عليهما أن تتجها حالا إلى أصدقاء في إيطاليا) وانضم إلى كتيبته الصغيرة وركبوا معه السفينة إنكونستانت والسفن الأربع الصغار وأبحروا بهدوء في جُنح الليل. ولم تكن الريح مواتية فكانت تهمد حينا فتترك أسطولهم بلا عون، وأحيانا كانت تقترب بهم إلى الشاطئ، واعتراهم القلق مخافة أن تتعرفهم السلطات ويتم إيقافهم فيتعرضون للسجن بشكل مخز. لقد ظلوا طوال ثلاثة أيام يبحرون شمالا ثم غربا متجاوزين جنوا والريفيرا الفرنسية. وفي أثناء الإبحار على هؤلاء الرجال - ممن يعرفون الكتابة - أن يستنسخوا مئات النسخ من بيان نابليون الذي سيُوَزَّع في فرنسا:

«أيها الفرنسيون

لقد سمعتُ في منفاى تفجعّكم ودعاءكم. إنكم تتطلعون إلى الحكومة التي تختارونها، فالحكومة التي تختارونها هي وحدها الحكومة الشرعية. لقد عبرْتُ البحرَ، وإنني آتٍ لاسترداد حقوقي التي هي حقوقكم - بالنسبة إلى الجيش: إن ممتلكاتك ورتبك وعظمتك ومجدك، هي ممتلكات أبنائك ورتبهم وعظمتهم ومجدهم، وليس هناك للأبناء

أعداء أشد وطأة من هؤلاء الأمراء الذين فرضهم الأجانب عليكم . . . . إن النصر سيُسرع الخطى، والنسر (العقاب) والأعلام الوطنية ستتحلّق فوق كل أبراج الكنائس من برج كنيسة إلى برج كنيسة آخر، بل حتى على أبراج نوتردام Notre Dame . ستكونون أنتم محرّري وطنكم(١٥) » .

٤- رحلة لا تُصَدَّق: ١- ٢٠ مارس ١٨١٥

ظهر الأسطول الصغير الذي يحمل الإمبراطور وقَدَره أمام رأس أنتيب Cap d' Antibes في فجر أول مارس، وفي وسط النهار بدأ الجنود البالغ عددهم ١١٠٠ بالنزول إلى البر في جولف جوان Golfe Juan ، وقفز بعضهم في المياه الضحلة وخاضوا إلى الساحل. وكان نابليون آخر من هبط، فأمر بإقامة معسكر مؤقت في مزرعة زيتون بين البحر والطريق من أنتيب إلى كان Cannes . وأرسل مجموعة صغيرة إلى كان لشراء خيول ومؤن على أن يدفعوا ثمنها نقدا إذ كان قد أحضر معه من إلبا ٨٠٠,٠٠٠ فرنك ذهبا. وأمر مجموعة أخرى أن تذهب إلى أنتيب لتحث حاميتها على الانضمام إليه، فعنَّف آمرُ الحامية مبعوثي نابليون وسجنهم ولم يحاول نابليون التوجه إليه لإطلاق سراح رجاله فقد كان قد قرر الاستيلاء على باريس دون أن يطلق طلقة واحدة.

لم يجد نابليون ترحيبا في أنتيب فلم يكن العابرون يبدون حماسا عندما كان يقال لهم إن الرجل الضئيل الحجم الذي يدرس الخرائط على منضدة في الهواء الطلق هو الإمبراطور. لقد كانت المنطقة قد أصابها الضُّر بسبب الحرب والتجنيد الإلزامي والحصار المزدوج (حصار بريطانيا للسواحل الفرنسية والحصار المضاد الذي فرضه نابليون على البضائع البريطانية) وبالتالي لم يكن لدى أهل أنتيب شهية للمزيد من هذا. وأتى محافظ أنتيب (رئيس بلديتها) ليتفحّص أحوال هؤلاء الغزاة (نابليون ورجاله) وقال لنابليون : « لقد كنا قد بدأنا نشعر بالسعادة والسكون. إنك ستفسد كلّ شيء » . وقد تذكر نابليون بعد ذلك وهو في سانت هيلانا هذا القول، فذكر لجورجو Gourgoud : « لن أقول لك كيف أثّرت فيّ هذه الملاحظة ولا الألم الذي سببته لي(١٦) » . وأكد له مراسل (جاسوس) عابر أن كل الجيش

والعوام يقفون إلى جانبه - على نحو أو آخر - من باريس إلى كان، «لكن أهل بروفنس Provence يقفون ضدّه».

وكان نابليون يعرف ذلك جيدا فتذكر تجاربه المريرة في أورجون Orgon قبل ذلك بأحد عشر شهرا، والآن فإن هذه الذكريات حدّدت طريقه إلى باريس. لقد اختار أن يسلك الطريق الجبلي من كان إلى جراس Grasse، ودِنْي Digne وجرينوبل Grenoble وليون وكانت المنطقة إلى الجنوب من جرينوبل غير كثيفة السكان كما كانت الحاميات فيها قليلة العدد، وكانت مناطق معروفة بعدم موالاتها للبوربون. وكانت الجبال التي سيتعين مرورهم فوقها لازالت مغطاة بالجليد، وقد يتذمر من ذلك حرسه القديم ورماة القنابل، لكنهم لن يتخلّوا عنه.

وهكذا، في نحو منتصف ليلة الأول من مارس انطلق بجنوده البالغين ١١٠٠ في الطريق إلى كان. وكان نحو ستين منهم قد تمكنوا من شراء خيول، لكن كان عليهم أن يحفظوا المسافة والأُلفة بينهم وبين الباقين، ولهذا ساروا إلى جانب الركائب الحاملة للأمتعة. وعادة ما كان نابليون يركب عربة، وفي وسط الركب كان هناك حرس يحرس ذهب نابليون، كما كان هناك عدد من الكورسيكيين الصارمين يحمون المؤخرة(١٧).

وفي جراس Grasse تركوا مدفعهم لفرط ضخامته لأنه سيسبب مشكلة في طرق جبلية يجلّلها الجليد. وقطع المحاربون القدماء الذين اعتادوا كسب المعارك بسيقانهم (المقصود بسرعة حركتهم) مسافات طيبة، وفي الخامس من مارس وصل الرَّكب إلى جاب Gap بعد أن كان غالبهم قد قطع ١٥٠ ميلاً في أربعة أيام. وعند لامور La Mure (٢٠ ميلا إلى الجنوب من جرينوبل) واجهوا أوّل تحدٍّ خطير.

لقد كان قائد القسم الخامس في الجيش المتمركز في جرينوبل قد تلقّى أوامر من باريس بالقبض على نابليون فأرسل كتيبة من ٥٠٠ جندي لوقف المتمردين الذين اقتربوا. وعندما اقتربت الكتيبة المعترضة وتقارب أفرادها أمر نابليون رجاله بإلقاء أسلحتهم (تنحيتها جانبا) وتقدم هو إلى الصدراة وترجّل متقدما إلى الجنود (المهاجمين) واقترب منهم، وتوقف إزاءهم وخاطبهم: «يا جنود القسم الخامس، أنا إمبراطوركم، ألا تعرفونني؟»

وكشف عن معطفه العسكري ثم قال: «إن كان بينكم جندي يريد أن يقتل إمبراطوره، فها أنا ذا» فخفض غالبهم أسلحتهم (نحُوها جانبا) وصاحوا «عاش الإمبراطور» وتفرقت الكتيبة وتجمع جنودها حول نابليون سعداء محاولين لمسه، فتحدث إليهم نابليون بعاطفة جيَّاشة وعاد إلى جيشه الصغير، وهناك قال «إن الأمور قد استقرّت وسنصبح في غضون عشرة أيام في التوليزي[١٨]».

وفي تلك الليلة اقتربوا من جرينوبل فتجمهر مئات الفلاحين والبروليتاريا للترحيب بنابليون، وعندما وجدوا إحدى بوابات المدينة مغلقة كسروها ليتمكن جيشه الصغير من العبور، وترك رجاله المرهقين لينالوا قسطا طيبا من الراحة حتى ظُهر اليوم التالي، وذهب هو نفسه إلى فندق تروا دوفين Trois Dauphins (الدلافين الثلاثة)، فرحب به رئيس المجلس البلدي ومسؤولو الإدارة، بل وجاء القادة العسكريون لتحيته. وفي الصباح أقبلت إليه وفود أكبر طالبة منه أن يتعهَّد بحكومة دستورية. لقد كان يعلم أنّ جرينوبل كانت في طليعة الثورة وأنها لم تفقد أبداً تعطّشها للحرية فحدّثهم حديث من ترك أفكار تركز السلطة في يد الحاكم (الحكم الاستبدادي) ووعدهم بالإصلاح. لقد اعترف أنه كان أسرف في استخدام السلطة وأنه كان قد سمح للحرب التي كانت دفاعية في الأساس لتصبح موجّهة للغزو فاستنزفت فرنسا تقريبا، ووعد أن يقدم لفرنسا حكومة نيابية على وفق مبادئ ١٧٨٩ و ١٧٩٢. وقال لهم إن أعزّ أمانيه الآن هو أن يُعد ابنه ليكون زعيما ليبراليا جديرا بحكم فرنسا المتنوِّرة[١٩]».

وبعد ظهر هذا اليوم (٨ مارس) أمر أتباعه بمواصلة مسيرتهم لأنه سيبقى يوما آخر في جرينوبل لإصدار توجيهات للمدن التي قبلت قيادته لكنه وعد جماعته بالانضمام إليهم ثانية في الوقت المناسب لمساعدتهم في تحقيق انتصارات سلمية. وفي العاشر من مارس انضم إليهم وقادهم إلى ليون.

وقبيل هذا الوقت، وصلت أخبار مغامرة نابليون إلى لويس الثامن عشر، فلم ينزعج في البداية، وشعر بالثقة في أن هذا المتَّهم (نابليون) سُرعان ما سيتم إيقافه. لكن عندما استمرت مسيرة نابليون واقتربت من جرينوبل – المعروفة بعدائها للبوربون – أصدر (أي

لويس) إعلانا في السابع من مارس يحُضُّ فيه كل مواطن على المساعدة في القبض على هذا المجرم المزعج (نابليون) لإعدامه بعد محاكمة عسكرية، كما صدر مرسوم بإيقاع العقاب نفسه على كل من ساعده. واستدعى الملك نَيْ Ney من محل تقاعده وطلب منه أن يقود قوّة عسكرية ضد نابليون، فوافق، لكن قصّة تعهّده بأن يأتي بنابليون في قفص حديدي، ربما كانت قصة موضوعه[٢٠]. لقد أسرع نَيْ Ney جنوبا، وتولّى قيادة كتيبة عسكرية في بيسانسو Besançon واستدعى الجنرال دي بورمون de Bourmont والجنرال ليكورب Lecourbe للانضمام إليه بقواتهما عند لون – لي – سونييه Lons - Le - Saunier (شمال غرب جنيف)، وتوجه للستة آلاف مقاتل الذين جُمّعوا على هذا النحو بكلام حماسي شديد لإلهاب شجاعتهم. لقد قال لهم: « حسنا. هذا الرجل القادم من إلبا حاول تنفيذ مشروعه الغبي، وسيكون هذا آخر عمل له[٢١] » ولم يتجاوب معه رجاله إلا قليلا.

وفي ذلك اليوم (١٠ مارس) كانت ليون ترحِّب بنابليون، فقد كان الصنّاع وأصحاب المصانع هناك قد انتعشت أحوالهم في ظل الحصار القاري الذي فتح كل أوربا (ما عدا إنجلترا) أمام منتجات ليون ولم يكن أهل ليون يحبون المهاجرين (الذين تركوا فرنسا إِثْر أحداث الثورة الفرنسية) الذين عادوا الآن إلى المدينة وراحوا يتصرفون كما لو أن الثورة الفرنسية لم تقم في وقت من الأوقات أو بتعبير آخر راحوا يتصرفون كما كانوا يتصرفون قبل الثورة. وفي وسط هذا الاستياء راح أصحاب الأعمال – لأسباب خاصة بهم – يرحبون بنابليون، وكان كثيرون من أهل المدينة يعاقبة متحمِّسين كما ظهرت الآن على السطح تيارات لم تكن ظاهرة راحت ترحب بنابليون على أمل أن يعود بهم إلى عام ١٧٨٩. وكان الفلاحون في المناطق الداخلية قلقين بشأن أراضيهم، وراحوا يتطلعون إلى نابليون كمخلّص سينهي لصالحهم معركة استرداد الأراضي المؤمّمة أو الأراضي التي وزعتها الثورة من ممتلكات الكنيسة، وكان جنود حامية ليون توّاقين لوضع عقدة الشريط الأحمر على حرابهم.

لكل هذا فتحت ليون بواباتها، فهرب الملكيون وابتسم البورجوازيون وابتهج العمال والجنود، بينما كان نابليون يقود كتيبته في المدينة. وأقبل مسئولو البلدية والقضاة بل

وبعض القادة العسكريين ليقدموا ولاءهم له، فأجابهم بأن وعدهم بحكومة دستورية وبانتهاج سياسة السَّلام. وانضمت الحامية كلها - فيما عدا الضباط النبلاء - إلى جيشه المتضخّم (الذي راح عدده يزداد بالتدريج) وهو يواصل مسيرته إلى باريس. لقد أصبح عدد جيشه الآن ١٢,٠٠٠ كلهم مستعد للحرب بناء على أوامره، لكنه كان لا يزال عاقداً الأمل على إحراز النصر دون إطلاق النار. وكتب إلى ماري لويز واعداً إياها أن يكون في باريس في ٢٠ مارس (الذكرى السنوية الثالثة لميلاد ابنه) وقال لها إنها ستُسعده سعادة فوق الحد إن استطاعت اللحاق به هناك حالاً. وكتب إلى نَيْ Ney ملاحظات ودودة كما لو أن صداقتهما لم تشبها شائبة قط، ودعاه للالتقاء به في شالون Chalons ووعده أن يلقاه كما لقيه بعد معركة بوروديو Borodio، أي «كأمير موسكو Prince of Moskva» وفي ١٤ مارس دعا نَيْ Ney (وكان لايزال في لون - لي - سونييه Lons - Le - Saunier) جنوده جميعا وقرأ عليهم الإعلان الذي كلفه حياته بعد ذلك: «أيها الجنود إن قضية البوربون قضية خاسرة وإلى الأبد. فالأسرة الحاكمة الشرعية لفرنسا على وشك أن تعتلي العرش. إن الإمبراطور نابليون هو حاكمنا وهو الذي سيحكم بلدنا العظيم من الآن فصاعدا» فهزّ الجنود الأرض بصيحاتهم وهتافهم المتكرر «عاش الإمبراطور عاش المارشال نَيْ![٢٢]» وعرض عليهم أن يقودهم للانضمام إلى قوات نابليون، فوافقوا، ووجدهم نابليون في أوكزير Auxerre في ١٧ مارس. وفي ١٨ مارس استقبل نابليون المارشال ني Ney وتجدّدت صداقتهما وبعدها لم يجسر أحد على اعتراض سبيل الزحف إلى باريس.

وفي مساء ١٧ مارس اجتمع الملك لويس ١٨ بالمجلسين في قصر البوربون، مرتديا زيه الملكي كاملا وأعلن عزمه على مقاومة نابليون. قال: «لقد عملتُ لسعادة شعبي، أيمكن - وأنا في الستين من عمري - أن أجد نهاية أفضل من الموت دفاعا عنه؟» وأمر بتعبئة كل القوى الملكية، وقد استجاب له بعض ممثلي هذه القوى وكان معظمهم - بشكل أساسي - من جنود حرس أسرته، أما الجيش النظامي فكان متوانياً بطيء الاستجابة، ولم يظهر قائد قدير يعرض قيادته لهذا الجيش أو بث الحماس فيه. وشرعَ الملكيون والموالون للملكية في الهجرة (تَرْك فرنسا) مرة أخرى.

وغصّ صالون مدام دي ستيل بالإشاعات وراحت هي أيضا تفكّر في الهرب. وفي ١٩ مارس نشرت جريدة (جورنال دي ديبات Journal des débats) (أي: جريدة المناقشات) مقالا بقلم عشيق مدام دي ستيل غير الدائم - بنيامين كونستانت يعيد فيه تأييده للويس الثامن عشر والحكومة الدستورية، ثم اختفى في مساء اليوم نفسه (أي أخفى نفسه وسترها عن العيون).

أما لويس الثامن عشر نفسه الذي كان دوما كارها للانتقال فقد أجّل رحيله حتى وصلته الأخبار في ١٩ مارس بأن نابليون وصل إلى فونتينبلو، ومن المتوقع أن يصل باريس في اليوم التالي. وفي الساعة الحادية عشرة مساء ركب لويس ١٨ مع أسرته خارجاً من التوليري قاصدا ليل Lille تلك المدينة الموالية للملكية بشدّة لكن الملك - بلاشك - فكر في أخ له انطلق في رحلة مماثلة في سنة ١٧٩١ فأعاده الشعب سجينا (إشارة إلى محاولة الهرب التي قام بها لويس ١٦). وفي ٢٠ مارس قام بعض البونابارتيّين المتحمّسين - بعد أن علموا أن قصر التوليري قد خلا من الملك وحرسه - بدخول القصر بفرح غير منضبط، وأعدوا الغرف الملكية لاستقبال نابليون. وكان جيش نابليون كلما تقدم لهدفه ازداد عدده. وبقي نابليون نفسه في فونتينبلو حتى الثانية ليلا. يُملي الرسائل ويصدر التعليمات، ومن المفترض أنه تجوّل بشغف بالقرب من القصر الذي شهد كثيرا من أحداث التاريخ بما في ذلك تنازله عن العرش للمرة الأولى، ذلك التنازل الذي حان وقت إلغائه والثأر ممن كانوا سببا فيه. ووصل باريس في نحو الساعة التاسعة صباحا بصحبة بيرتران Bertrand وكولينكور Caulaincourt، فساروا ولا يكاد يتعرفهم أحد حتى وصلوا التوليري، وهناك كان جمع من الأقارب والأصدقاء حيّوه بعاطفة جيّاشة وحملوه ليرقوا به الدرجات، وراح ينتهي من عناق أحدهم حتى يعانق الآخر حتى جلس أمامهم منهكا مذهولا لكنه كان سعيدا إلى درجة أن الدموع ذرفت من عينيه. وأتت هورتنس Hortense فوبّخها لأنها قبلت تودّد إسكندر إليها، فدافعت عن نفسها، فرقّ لها وأخذها بين ذراعيه وقال: «أنا أب طيب.. أنت تعرفين هذا... وأنتِ حضرت موتَ جوزفين البائسة. لقد آلم قلبي موتها رغم أني كنت أعاني من أمور سيئة كثيرة[٢٣]».

وهكذا انتهت هذه الرحلة التي تفوق الخيال: ٧٢٠ ميلا من كان إلى باريس في عشرين يوما، وأنجزها غالب الجنود والمرافقين سيرا على الأقدام، وأوفى نابليون وعده بأن تتم إعادة فتح فرنسا دون إطلاق نار. والآن كونّ حكومة جديدة لإعادة السلام والوحدة في البلاد واستعد لمواجهة ٥٠٠,٠٠٠ جندي تجمعوا من روسيا وبروسيا والنمسا وإنجلترا ليعيدوه إلى جزيرته الصغيرة أو إلى جزيرة أخرى أبعد أو إطلاق النار عليه.

كل نهاية هي بداية، ففي ٢٠ مارس بدأ نابليون فترة حكم المائة يوم Hundred Days منها.

٥- إعادة البناء

لقد كانت عملية استعادة الحكومة والجيش والإرادة الوطنية عملية صعبة تواجهها عوائق ثلاثة: عدم شرعية موقفه، واتحاد القوى الخارجية المعادية له، وتفرّق شعبه.

هاهو مرة أخرى يستولي على السلطة بالقوة، كما حدث في سنة ١٧٩٩ أو على الأقل بالتهديد باستخدام القوة ويزيح حكومة مستقرة تشريعيا. وحقيقة أنه استولى بالقوة على سلطة نُزِعت منه بقوّة السلاح، لكنه كان قد تنازل عن العرش كما أن السينات Senate قدَّم العرش للويس ١٨ فقبله كحق شرعي له، وهو الآن (أي لويس ١٨) لم يتخلّ عنه (أي عن العرش). لقد بدا في نظر الحلفاء وعدد غير قليل من الفرنسيين مغتصباً. لقد زاد اتحاد أعدائه الأجانب ضدّه عن ذي قبل أي عن أيام معاركهم المشتركة ضده في عامي ١٨١٣ و ١٨١٤. لقد أجمعت الأمم العديدة التي مُثّلت في مؤتمر فينا على أنه خارج على القانون. لقد تعهّدت كل من روسيا وبروسيا والنمسا وإنجلترا بأن تقدم كل منها ١٥٠,٠٠٠ مقاتل لخوض معركة جديدة لإخفائه من فوق مسرح الأحداث، ولم تكن هذه الدول وحدها، فقد قامت فدرالية الراين الجديدة بل وسويسرا الصغيرة بالإسهام في تكوين حاجز بشري ضده وتقديم المال اللازم للانقضاض عليه. وأرسل لهم نابليون عرضاً ذليلا للمفاوضات دون إراقة دماء فلم يتلقَّ منهم ردا، وناشد والد زوجته (إمبراطور النمسا فرانسيس الثاني) للتدخل لصالحه لدى المتحالفين الآخرين ضده، فلم يتلق منه ردا، وكتب لزوجته (ماري لويز)

يتوسّل إليها أن تُلين عريكة والدها، ومن الظاهر أن الرسالة لم تصل إليها. وفي ٢٥ مارس أعلن الحلفاء أنهم لن يشنوا الحرب على فرنسا ولكنهم لن يُبرموا أبداً سلاماً مع نابليون بونابرت مخافة أن يقود فرنسا ثانية – راغبةً أو غير راغبةٍ – في حرب أخرى تزعزع مؤسسات النظام الأوربي.

لم تكن فرنسا موحّدة بأية حال في مواجهة حلفاء متحدين. لقد ظل فيها آلافُ الملكيين للدفاع عن قضية الملك الغائب (لويس ١٨) وتنظيم دفاعاتهم وفي ٢٢ مارس رحب مئات من الملكيين بالملك (لويس١٨) عند وصوله إلى ليل Lille هاربا من باريس وحزنوا عندما تركهم مواصلا طريقه إلى جنت Ghent ليكون مرة أخرى تحت حماية القوات الإنجليزية – وفي الجنوب الفرنسي كان الملكيون أقوياء قوَّة تمكنهم من إحكام السيطرة على بوردو Bordeaux ومرسيليا. وفي الغرب الفرنسي هب إقليم فندي الكاثوليكي شديد التمسك بكاثوليكيته، هب مرَّة أخرى حاملا السلاح ضد نابليون الذي كانوا يعتبرونه ملحداً اضطهد باباهم، وتحالف مع قاتلي الملك[٢٤]، وكان حليفا لليعاقبة في السر كما كان مدافعا عنيدا عن الاستيلاء على أموال الكنيسة. وفي مايو سنة ١٨١٥ أرسل نابليون ٢٠,٠٠٠ مقاتل لقمع هذا العصيان المسلح في إقليم الفندي، لكنه في وقت لاحق راح يندم على ذلك فلو أن هذا العدد من الجنود (٢٠,٠٠٠) قد انضم إليه في معركة واترلو فربما كان قد ربحها[٢٥].

وفي مواجهة أعدائه داخل فرنسا قد يجد بعض عناصر الدّعْم العام لم تكن كلها متمشية مع آرائه وطبيعته، وكان الجيش هو الأكثر توافقاً معه، ذلك الجيش الذي كان مخلصا له (فيما خلا القوات الموجودة في بوردو Bordeaux والفندي) باعتباره مخطط النصر والمكافئ عليه. وكانت الشرائح الدنيا من الأمة الفرنسية – الفلاحون والبروليتاريا وجماهير المدن – على استعداد لاتباع قيادته لكنها – أي هذه الشرائح – كانت تأمل أن يتمكن من تجنّبْ الحرب، كما أنهم لم يعودوا يعبدونه عبادة تجعله متكبراً طائشا. ولازال هناك كثير من اليعاقبة في المدن راغبين في نسيان عداوته لهم إذا ما أعلن ولاءه للثورة. وقد قبل تأييدهم له لكنه لم يتعهّد بالانضمام إليهم في حربهم ضد التجّار ورجال الدين.

وكان نابليون محلّ إعجاب الطبقة الوسطى باعتباره واضع أسس النظام الاجتماعي والأخلاقي منذ مذابح سبتمبر، وقد أصبح هذا النظام محور فلسفته السياسية، ولكنها - أي الطبقة الوسطى - لم تقدم له الدّعم ولم تقدّم له أبناءها. لقد كانت الطبقة الوسطى تقدّر حرية التجارة وحرية الصحافة لكنها لم تكن تؤيد حرية الاقتراعات العامة (السرية) أو الحديث العام؛ فقد كانت تخشى الرّاديكاليين وترغب في قَصْر حق الانتخاب على الملاّك. لقد كان أفراد الطبقة الوسطى قد انتخبوا مجلس النواب وقرروا حماية حقوق هذا المجلس لمواجهة سلطان الملك (أو الإمبراطور) وسياساته. كما أن ذلك القسم الصاعد من البورجوازية (الصحفيين والمؤلفين والعلماء والفلاسفة) قد أوضح بجلاء أنه سيحارب بكل أسلحته أي محاولة يقوم بها نابليون لفرض سلطة إمبراطورية مرة أخرى. أما البطل الذي يواجه التحدي فكان هو نفسه ممزّقاً بين الغرض والرغبة. لقد كان مايزال يعمل بجد، يراقب كل شيء ويدوّن كل شيء، وأحيانا كان يُملي ١٥٠ خطابا في اليوم(٢٦). لكن فَرْط انتباهه وحذره أوْهنه إذتبيّن الآن أنه لا يمكنه - إلاّ قليلا - الاعتماد على جنرالاته الجُدد أو مجلسيْه أو الأمة بل ولا حتى على نفسه. لقد كانت الأمراض التي تمكنت منه طوال الست سنوات التالية قد أضعفته بالفعل، لقد وتّره داء البواسير وأذلّه فلم يعد قادرا على العمل لمدة طويلة كما كان حاله أيام تألقه في مارينجو، وأوسترليتز (أوسترليتس). لقد كان قد فقد شيئا من صفاء ذهنه ووضوح غرضه وثقته القديمة في النصر؛ تلك الثقة التي كانت مصحوبة بالتفاؤل والبهجة. لقد كان قد بدأ يشك في «نجمه his star»(٢٧).

اختار نابليون في المساء نفسه الذي وصل فيه باريس وزارة جديدة، لأنه كان في حاجة إلى عونها تماما. واعتراه السرور عندما علم أن لازار كارنو Carnot «منظّم النصر في أثناء الثورة» مستعد لخدمته لمواجهة أعدائه لكن نابليون وجده كبير السن (٦٢ عاماً) لا يتحمل معركة حربية، لكن نابليون عينه وزيرا للداخلية باعتباره شخصا يمكن للجميع الوثوق به. ويكاد يكون هذا السبب هو نفسه الذي دعاه لاختيار جوزيف فوشيه Fouché وزيرا للشرطة إذ كان قد بلغ من العمر ستا وخمسين عاما يخشى الجميع بأسه ويشكّون فيه، وكان يدير شبكة خاصة من الجواسيس وتكاد تكون له علاقات سرّية بكل الفرق، وربما أسرع الحاكم

الذي هو في عجلة من أمره (نابليون) للاستعانة به بعرض منصبه (منصب فوشيه) القديم عليه، رغبة منه (نابليون) في إحكام مراقبته والتدقيق في أعماله وتوجهاته بالإضافة إلى أن أحداً ما لا يشكك في قدرات فوشيه Fouché. وظل فوشيه محتفظا بأوضح رؤيه كما كان متمتعا بمرونة لا حد لها طوال معظم الفترة المعقّدة التالية. لقد كتب في مذكراته: «الإمبراطور في نظري مجرّد ممثل احترق، لن يستطيع إعادة ما كان قد أنجزه[٢٨]». وحتى في أثناء عمله مع نابليون نجده قد تنبأ في نحو نهاية شهر مارس «أنه – أي نابليون – لن يستطيع البقاء أكثر من ثلاثة أشهر[٢٩]».

وكانت الخطوة التالية، بعد اختيار الحكومة هي تنظيم جيش. لقد كان لويس ١٨ قد شعر بعدم جدوى الجيش سوى لضبط الأمور الداخلية، وبالتالي فقد ألغى التجنيد الإلزامي وقلّص القوات العسكرية إلى ١٦٠,٠٠٠ رجل، فأعاد نابليون التجنيد الإلزامي في شهر يونيو لكن هؤلاء الشباب المحظوظين لم يكونوا قد جُنّدوا عندما أنهت معركة واترلو الحرب. ودعا نابليون الحرس الوطني للاستعداد لأداء خدمات عسكرية كاملة بما في ذلك الحرب ضد الأجانب، فرفض كثيرون منهم، ولم يمثل سوى ١٥٠,٠٠٠. وبهؤلاء وبعض المتطوعين بالإضافة إلى الجيش القائم أصبح في إمكانه أن يحشد في يونيو ٣٠٠,٠٠٠، مَرْكَزَ معظمهم في الدوائر (المحافظات) الشمالية وأمرهم بانتظار أوامر أخرى. وفي هذه الأثناء كررّ مرة أخرى أعماله الجليلة كما كان في سنة ١٨١٣ و ١٨١٤ بتدبير المؤن والمواد اللازمة للجيش الجديد. واستورد سرا البنادق والمدافع من إنجلترا عدوته الأثيرة[٣٠]. ولم يستطع استخدام كل مارشالاته السابقين لأن بعضهم نذر نفسه لخدمة لويس الثامن عشر، لكن كان لا يزال في خدمته كل من ني Ney ودافو Davout وصول Soult وجروشي Grouchy وفاندام Vandamme. ودرس خرائط الطرق والتضاريس وتقارير تحركات العدو وخطط لكل الجوانب الكبيرة في المعركة القادمة. وفي هذا التخطيط كان في ذروة تألقه العقلي وفي ذروة سعادته. ورغم أنه كان يقبض على زمام الحكم إلاّ أن مهمته الثالثه ألا وهي كسب الدّعم الجماهيري، كانت هي الأصعب من مهامه الثلاث – لقد كانت كل العناصر تقريبا – فيما عدا الملكيّين – يطالبون بالتزامه بدستور يحمي حرية الحديث والصحافة ويجعله مسؤولاً

أمام برلمان منتَخَب. وكان هذا ضد مزاجه على نحو موجع، لأنه كان قد اعتاد لفترة طويلة على الحكم المطلق، وشعر أنّ موجّها (مُرشدا) مقتدرا حسن النوايا مثله أفضل للبلاد من برلمان اللّغو والمناقشات، ومع هذا ففي إيماءة منه للتسوية أرسل يستدعي بنيامين كونستانت (٦ أبريل) لصياغة دستور لتهدئة الليبراليين دون أن يَغُلَّ يد العرش. لقد كان نابليون يعرف أنه كتب ضدّه بعنف لكنه كان يعرف أنه صاحب أسلوب محكم وعقل مَرِن. وأقبل كونستانت – غير واثق من مصيره – فتم استقباله ليجد أن كل ما يطلبه الإمبراطور منه هو أن « يرتجل » دستورا يرضي كلاً من نابليون ومدام دي سيتل، فظل يعمل في هذا المشروع طوال أسبوع، ويعرض كل يوم ما أنجزه على (صاحب العمل) وفي ١٤ أبريل قدم نتاج عمله لمجلس الدولة. لقد أقترح ملكية دستورية يكون المُلك (بضم الميم) فيها متوارثا وتكون السلطة التنفيذية في يد رأس الدولة هذا، لكنه سيكون مسئولاً أمام مجلس الشيوخ الذي يعين أعضاءه الحاكم (الملك). ومجلس تشريعي (من ٦٠٠ عضو) يضم ممثلين ينتخبهم الشعب عن طريق جمعيات (لجان) وسطى (أي بين الشعب والحكومة) وألغت مواد معينة رقابة الدولة وضمنت حرية العبادة، وحرية الصحافة. وبهذه الطريقة التقليدية تماما وجد الإمبراطور وكاتبه (المقصود كونستانت) أنهما جمعا بين مزايا الديمقراطية والأرستقراطية والملكية.

وبعد أن قبل نابليون كل هذا أصر على تقديم الدستور الجديد للشعب لا باعتباره تبرؤاً من حكمه الماضي وإنما باعتباره « وثيقة إضافية » تشهد بالحريات التي كانت موجودة بالفعل في ظل الإمبراطورية (من وجهة نظر نابليون) واعترض كونستانت ومستشاروه الليبراليون واستسلموا. وفي ٢٣ أبريل طُرِحت (الوثيقة الجديدة) للاستفتاء العام على كل الناخبين المسجَّلين، ورفض الملكيون التصويت وامتنع آخرون كثيرون. وكانت نتيجة التصويت ١,٥٥٢,٤٥٠ لصالح الدستور واعترض ٤٨٠٠، وأمر نابليون بضرورة اجتماع الشعب في كامب – دي مارس Champ - de - Mars لإقامة احتفال جماهيري رسمي احتفاءً بالدستور وبداية حقبة جديدة ولمباركة الجنود ووداعهم في أثناء الرحيل. وتم تأجيل هذا الاحتشاد إلى أول يونيو حيث شاهدت الجموع نابليون في أبهته الملكية: لقد أقبل مرتديا ملابسه

الإمبراطورية في عربة تتويجه التي تجرها خيول أربعة يسبقه إخوته كأمراء للإمبراطورية. ولم تكن الجموع سعيدة بهذا العبق الآتي من مَاضٍ مات. ماذا جرى للدستور الجديد؟

لقد قابلته الأمة ببعض التشكّك وكثير من عدم الاهتمام فقد كان من الجليّ أن كثيرين تشكّكوا في إخلاصه وإمكان استمراره، بل إن نابليون نفسه أبدى شواهد متناقضة. لقد شعر فيما يقول لا كاس Las Cases أنّ الشكّ في إخلاصه ليس له ما يبرّره:

«لقد عُدت من جزيرة إلبا رجلا جديدا. إنهم لا يستطيعون تصديق هذا. إنهم لا يستطيعون أن يتخيلوا أن المرء قد يكون لديه من قوة العقل والنفس ما يمكنه من تغيير شخصيته أو ما يمكنه من الانحناء أمام قوة الظروف. وعلى أية حال فإن لدي ما يثبت هذا وهناك آخرون يخضعون للتأثير نفسه. من يجهل أنني لست رجلا ناقص التدبير؟ إنه يمكنني أن أكون مخلصا للملكية الدستورية والسلام تماما كما كنت مخلصا للحكم المطلق والمشروعات (التوسعية) الكبرى(٣١)». لكن جورجو Gourgaud وهو مخلص لنابليون، كما عادة ما يكون محل ثقة (في رواياته) نقل عن نابليون قوله: «لقد كنت مخطئا في إضاعة وقت ثمين في مسألة الدستور، فلم هذا ما دامت نيتي قد انعقدت على إزاحتهم جميعا (النوّاب) حالما أُحقّق النصر؟(٣٢)».

لقد كان قد خطط ألاّ يدعو المجلسيْن للانعقاد إلاّ بعد المعركة حين قد يأيتهم مُكلَّلاً بنصرٍ مُقْنِع. لكن لافايت Lafayette الذي كان قد خرج من مكان اعتزاله وقد بلغ الثامنة والخمسين من عمره، ليلعب دورا في هذه الدراما (الأحداث)، فقد أصرَّ على عقد اجتماع لمجلس النوّاب قبل مغادرة نابليون للانضمام إلى جنوده. وأذعن نابليون واجتمع المجلس في ٣ يونيو، وسرعان ما أبدى المجلس ما يشير إلى اتجاهه إذ انتخب لرئاسته الكونت جان – دينى – لانجواني Jean - Denis Languinais عدو الإمبراطور اللدود. وفي ٧ يونيو ذهب نابليون في زيّ بسيط إلى قصر البوربون، وخاطب المجلسين المجتمعين معا وبتواضع طالب أن يُقسم كل عضو للالتزام بالدستور والإخلاص للإمبراطور(٣٣).

وفي ١٢ يونيو، في نحو الساعة الثالثة صباحا غادر نابليون باريس – وأهلها نيام – قاصداً الجبهة.

٦– المعركة الأخيرة

٦ / ١ : ١٥ يونيو ١٨١٥ : بلجيكا

كانت خطة نابليون للمعركة القادمة تقوم على المعلومات التي جمعها عن حجم قوات الحلفاء وتقسيمها وقيادتها وموقعها واستراتيجيتها القادمة. لقد كانت قوات الحلفاء قد تباطأت في تقدمها غرباً لإتاحة الوقت اللازم لوصول القوات الروسية واشتراكها في المعركة، لكن تقدم نابليون السريع حسم المسألة قبل وصول القوات الروسية لنهر الراين.

وفي أول يونيو تجمع جيش بروسي قوامه ١٢٠,٠٠٠ مقاتل بالقرب من نامور Namur في بلجيكا بقياده المارشال بلوخر (بلوشر Blucher) البالغ من العمر ٧٣ سنة. وإلى الأبعد شمالا كان الدوق ويلنجتون Wellington (كانت مهمته في البرتغال وإسبانيا قد انتهت بالنصر) على رأس ما أسماه «الجيش سيِّئ السمعة» المكوّن من ٩٣,٠٠٠ مجنَّد بريطاني وهولندي وبلجيكي وألماني، وكان معظمهم لا يعرف الواحد منهم سوى لغة واحدة مما سبّب مشكلة للقائد الإنجليزي. وكان على ويلنجتون أن يعوّض نقص تدريبهم، بقرارات وحلول يبتدعها من عند نفسه على وفق خبرته. وقد رسم له لورنس صورة شخصية وهو في لحظة تأمل تُظهره في وضع فخور (معتز بنفسه) وملامح وسيمة ونظرة هادئة ثابتة، ومن هذه الصورة يمكن أن نستنتج ما كان يجب على نابليون المرهَق والمعتَل كبير السن أن يفعله عند المواجهة في ١٨ يونيو.

وكان نابليون قد ترك جزءاً من جيشه لحماية باريس وخطوط مواصلاته. ولم يكن مع نابليون سوى ١٢٦,٠٠٠ مقاتل مما يسمّى بجيش الشمال Armée du Nord لمواجهة ٢١٣,٠٠٠ مقاتل بقيادة بلوخر Blucher وويلنجتون. وبطبيعة الحال فقد كان يأمل أن يلتقي بواحدٍ من الجيشين (جيش بلوخر أو جيش ويلنجتون) ويهزمه قبل أن يجتمع شمل الجيشين، ومن ثم يعطي جيشه قسطا من الراحة ويعيد تنظيم صفوفه قبل خوض معركة مع الجيش الآخر.

لقد كان الطريق بين الجيشين المتحالفين (جيش بلوخر وجيش ويلنجتون) يمتد من نامور Namur عَبْر سومبريف Sombreffe إلى كاتر – برا – Quatre Bras (أربعة جيوش) ومن ثمّ

غرباً (حيث يتسع الطريق عن ذي قبل) من الحدود الفرنسية البلجيكية عند شارلروي Charleroi فشمالاً من واترلو إلى بروكسل. وكان هدف نابليون الأول هو الاستيلاء على كاتر – برا Quatre - Bras ومن ثم يُوصد الطريق بين الجيشين الحليفين.

وكان نابليون قد أصدر تعليمات بأن تتقارب الكتائب الثلاث من جيشه (جيش الشمال) في ١٤ يونيو عند نهر سامبر Sambre في مواجهة شارلروي Charleroi. وانضم هو إلى واحدة من الكتائب الثلاث وأمر الكتائب الثلاث جميعا بعبور النهر إلى الأرض البلجيكية نحو الساعة الثالثة من صباح ١٥ يونيو، وتمّ هذا، فاستولوا بسهولة على شارلروي بعد أن هزموا حاميتها البروسية الصغيرة.

وعلى أية حال، ففي الوقت نفسه انهزم الجنرال لويس دي بورمون Bourmont لصالح الحلفاء وأفضى إلى ضباط بلوخر بخطط نابليون. لكن الحَذِر (بلوخر) كان قد استنتج هذه الخطط وبالتالي فقد كان قد أرسل جانبا من جيشه غربا إلى سومبريف Sombreffe وانضم إليه في نحو الساعة الرابعة من صباح ١٥ يونيو. لقد قسم نابليون الآن جيشه إلى ميمنة بقيادةِ جروشي Grouchy وميسرة بقيادة ني Ney وقوة احتياطية بقيادة درو دَرْلو Drouet d'Erlon بالقرب من شارلروي لتهب لنجدة جروشي أو نَيْ على وفق ما تمليه الظروف. وكان على جروشي أن يتقدم شمالا بشرق نحو سومبريف لمواجهة بلوخر. وكان على نَيْ Ney أن يتوجه شمالاً للاستيلاء على كاتر – برا Quatre - Bras وأن يمنع في كل الأحوال قوات ويلنجتون من الانضمام إلى قوات بلوخر. ولأن نابليون نفسه كان يتوقع صداما حادا مع بلوخر، فقد ركب مع جروشي.

ونَيْ Ney الذي كان حتى الآن « أشجع الشجعان » راح طوال ١٥ و ١٦ يونيو يتبع سياسة الحذر التي عطلت خطط نابليون بشكل سيّئ. لقد توجه شمالا من شالروا وطرد البروسيين من جوسّيل Gosselies ومن ثمّ توقّف مخافة مواجهة قوات ويلنجتون الأكثر عددا. لقد أرسل فصيلة خيّالة (فرسان) لدراسة الموقع عند كاتر – برا Quatre - Bras فعادت له بتقرير مُفاده أنها خالية من قوات العدو، فقاد ٣٠٠٠ من رجاله للاستيلاء عليها اعتقادا منه أن هذا سيكون كافيا لكن في الوقت الذي رأى فيه كاتر – برا Quatre - Bras،

كانت قوات الأمير بيرنهارد الساكس – فيماري Bernhard of Saxe - Weimar البالغ عددها ٤٠٠٠ مقاتل قد استولت عليها، وكان بيرنهارد يصحب معه أربعة مدافع، فاستدار نَيْ Ney عائدا إلى جوسيل وراح ينتظر هناك تعليمات أخرى. وأرسل بيرنهارد رسالة إلى ويلنجتون طالبا أن يحضر بقواته الرئيسية إلى كاتر – برا Quatre - Bras مخافة أن تأتي قوات ني Ney سريعا لحصارها.

وفي الساعة الثالثة صباح ١٥ يونيو تلقى ويلنجتون في بروكسل أخبارا مفادها أن جيش نابليون قد عبر إلى بلجيكا، واحتفظ ويلنجتون بقواته في حالة استعداد قرب العاصمة البلجيكية ظناً منه أن نابليون سينفذ خطته المعتادة بالإسراع للقيام بهجوم جانبي (على جناح العدو). وفي تلك الليلة كان هو وكثيرون من ضباطه «الرجال الشجعان» منهمكين مع النسوة الجميلات إذ كانوا في حفل راقص أعدته الدوقة ريشمون Richmond[٣٤] وفي أثناء الحفل تلقى في منتصف الليل الرسالة التي تُفيد أن كاتر – برا Quatre - Bras في خطر، فأصدر أوامره بهدوء لضباطه بالاستعداد للانطلاق في بكور الصباح، أما هو فلم يُعكّر صفو الحفل الراقص وظل يرقص حتى الساعة الثالثة صباحا[٣٥].

٦/٢/١٦ : ١٦ يونيه: لِني Ligny

في نحو الساعة الثانية من صباح ١٦ يونيو، أرسل المارشال سول (صول Soult) رئيس أركان نابليون أوامر نهائية إلى ني Ney:

«كلّفني الإمبراطور أن أحيطك علما بأنّ العدو جمّع جانبا من قواته بين سومبريف Sombreffe وبري Brye وأنه في الساعة الثانية والنصف صباحا سيهاجم بالفصيل الثالث والرابع هذه القوات. إن صاحب الجلالة الإمبراطور يريد أن تهاجم أيّ عدو تواجهه وبعد الضغط عليه بشدّة وإجباره على التراجع، عُد إلينا لتنضم إلى قواتنا لتطويق العدو[٣٦]».

لقد أحضر بلوخر كل رجاله البالغ عددهم ٨٣,٠٠٠ لمقاومة الفرنسيين، وبدأت المعركة في نحو الساعة الثالثة بعد الظهر بالقرب من مدينة لني (ليجني Ligny) بهجوم متزامن

(في الوقت نفسه) تقوم به ميمنة جروشي بقيادة فاندام Vandamme وقلب قوات جروشي بقيادة جيرار Gérard، وميسرة جيشه.(جيش جروشي) بالإضافة إلى سلاح الفرسان بقيادة جروشي نفسه، بينما يوجّه نابليون العمليات الثلاث التي ينفذها ٧٨,٠٠٠ مقاتل. وسرعان ما اتضح أنّ تحطيم بلوخر المهيب ليس أمراً سهلا، وإذا كان لابد أن ينهزم الفرنسيون هنا إذن فقد تنهار معركتهم كلها (يفقدون المعركة الأساسية كلها) . وفي الساعة الثالثة والربع أرسل نابليون إلى ني Ney «سيتبدّد الجيش البروسي إن حاربت بضراوة. مستقبل فرنسا بين يديك، لذا فلا تتوانَ للحظة في إنجاز ما أُوكِلَ إليك، ثم عد إلى سان أرمان Armand وبري Brye لتشارك في النصر الذي قد يقرر مصيرنا جميعا[٣٧]» .

لكن ني Ney أيضا كان يواجه صعوبات. فبحلول الساعة الثالثة بعد الظهر كان ويلنجتون قد جلب معظم جيشه إلى كاتر – برا Quatre - Bras. ولم يعلم نابليون بهذا (لأن السيطرة على وسائل الاتصال كانت قد أفلتت من صول)، لذا فقد أرسل الأوامر إلى درو درلو Drouet D'Erlon في شارلروي ليسرع شمالا بقوات الاحتياط التابعة له ليهاجم ميمنة بلوخر، وتقدم درو بالفعل حتى كاد يصل إلى لني (لجني Ligny) حيث وصله طلب عاجل من ني Ney ليندفع مسارعا إلى نجدته في مواجهة قوات ويلنجنون الأكثر عددا في كاتر – برا Quatre - Bras، ووجد درو أن طلب ني Ney هو الأكثر إلحاحا فسارع إليه ليجده – بعد جهود يائسة – قد تخلّى عن محاولة طرد ويلنجتون من المدينة (كاتر – برا) .

في لني (لجني Ligny) استمرت المعركة ست ساعات من المذابح. وتذكر ضابط بروسي – في وقت لاحق – ما حدث، قائلاً: لقد راح الرجال يذبح بعضهم بعضا بكراهية شديدة وكأنما الواحد منهم يكن للآخر كراهية شخصية[٣٨]» . إن قريتين هادئتين مثل سان أرمان St.Armand ولا هاي La Haye كانتا تنتقلان من حَوْزة فريق إلى حَوْزة فريق آخر، والحرب على أشدها رجلا إزاء رجل، واشتعلت النيران في لني (لجني Ligny) نفسها، وبينما الليل يرخى سدوله والمطر يهطل، أمر نابليون حرسه القديم بمهاجمة قلب Center القوات البروسية، وأصبح المطر مصحوبا برعد، فافسح القلب البروسي الطريق، وسقط بلوخر الذي كان لايزال يقاوم من فوق حصانه، وكان لابد من حمله بعيدا. وكانت القوات الفرنسية قد

اعتراها إرهاق شديد فلم تحول هزيمة أعدائها إلى هزيمة منكرة لا قيامة بعدها. وانسحبت القوات البروسية شمالا نحو ويفر Wavre مُخلِّفة وراءها ١٢,٠٠٠ قتيل وجريح. وكان نابليون نفسه قد كاد يستنفد كل موارده وأعصابه، فلو أن ويلنجتون كان قد استطاع الوصول هذه اللحظة إلى هنا من كاتر – برا لما كانت هناك حاجة إلى معركة واترلو.

٦/٣/١٧: يونيو: المطر

لقد كان من صالح نابليون أن جعل المطر الغزيرُ المعركة الكبرى مستحيلة في ١٧ يونيو. لقد كانت الأرض غاصّة بالطين فكيف يمكن سحب المدافع وتثبيتها فوق أرض مشبعة بالمياه وغير ثابتة بسبب الطين الكثير فوقها؟ ربما كانت هذه الأوضاع واضحة في عقل الإمبراطور عندما وصلته رسالة من ني Ney تفيد أنّ ويلنجتون قابض على زمام الأمر في كاتر – برا Quatre - Bras، ولمحّ – أي ني Ney – إلى أنه لا يمكن إخراجه منها إلاّ بالقوات الفرنسية مجتمعة، فأجابه نابليون بعبارة مبهمة لابد أنها تركت ني Ney أكثر ارتباكاً من ذي قبل: تمسّك بموقعك عند كاتر – برا Quatre - Bras.. لكن إن كان هذا مستحيلا، أرسل حالاً معلومات عن الموقف، وسيتصرف الإمبراطور على وفقها. وإذا.... لم يكن هناك إلاّ مؤخرة جيش العدو فهاجمها واستولِ على الموقع(٣٩)». وكان هناك أكثر من المؤخرة، ورفض ني Ney أن يجدّد الهجوم. وكان ويلنجتون – بعد أن علم بهزيمة بلوخر – قد سحب جيشه شمالاً إلى هضبة مونت سان جان Mont St. Jean التي يمكن الدفاع منها وتراجع هو إلى مركز قيادته بالقرب من واترلو.

ووجّه نابليون جنراله جروشي على رأس ٣٠,٠٠٠ لمتابعة البروس طوال يوم ١٧ يونيو ولمنعهم في كل الأحوال مِن الانضمام إلى قوات ويلنجتون. أما هو نفسه (نابليون) فقاد ٤٠,٠٠٠ ممن نجوا من معركة لني (لجني Ligny) لينضم إلى ني Ney عند كاتر – برا Quatre - Bras، وعندما وصل في الساعة الثامنة مساء ثبطت همته فتفجّع صارخا «ضاعت منا فرنسا!(٤٠)» فراح يلاحقه وقاد هو نفسه عملية الملاحقة هذه لكن المطر الكثيف أجبره على إنهاء هذه العملية، وفي التاسعة مساء حيث كانت الرطوبة شديدة ركب **عائداً** قاطعا

ميلا أو ميلين لينام في مخدع في كايو Caillou بينما عسكر جيشه المنهك على أرض رطبة طوال الليل، وكان المطر قد توقف.

٦ / ٤: الأحد ١٨ يونيو: واترلو

في الثانية صباحاً أرسل بلوخر رسالة إلى ويلنجتون يعده فيها بأن جيشا بروسيا بقيادة الجنرال فريدريش فيلهيلم فون بولو Friedrich Wilhelm Von Bulow سيغادر ويفر Wavre فجراً لينضم بقواته إليه لقتال الفرنسيين، وأن جيشين بروسيّين آخرين سرعان ما سيتبعانه. وفي العاشرة صباحا أرسل نابليون الذي لم يكنَ يعلم بهذا التدبير تعليمات إلى جروشي لمواصلة ملاحقة بلوخر إلى ويفر Wavre.

لقد كان قد خطط ليبدأ العمليات في التاسعة صباحا لكن قادة المدفعية حثّوه على التأجيل حتى تبدأ التربة في الجفاف. وفي هذه الأثناء ركز ويلنغتون ا قواته فوق أرض مرتفعة جنوب تل مونت سان – جان Mont St. Jean لقد كان معه ٧٠,٠٠٠ مقاتل و ١٨٤ مدفعاً، أما نابليون فكان على رأس ٧٤,٠٠٠ مقاتل وكان معه ٢٦٦ مدفعاً. وكان مع كل منهما (ويلنجتون ونابليون) جنرالات كان لهم مكانة في التاريخ (أو حققوا في هذه المعركة مكانة): الأمير فريدريش البرونسفيكي Friedrich of Brunswick (ابن الدوق الذي خسر في فالمي وجُرِح جرحاً مميتا في أورشتدت Auerstedt) ودورنبرج Dornberg وألتن Alten وكمبت Kempt وسومرست Somerset وأكسبردج Uxbrisge وهِل Hill وبونسونبي Ponsonby وبيكتون Picton، وكان كل هؤلاء مرتبطين بويلنجتون، وكان كل واحد منهم معتزا بنفسه كدوق. وبالإضافة إلى هؤلاء كان هناك بولوف Bulow وتسيدتن Zieten وبيرخ (بيرش Pirch) تحت قيادة بلوشر (بلوخر)، وبالنسبة إلى الفرنسيين كان هناك ني Ney وجروشي وفاندام وجيرار وكامبرون وكيلرمان Kellermann وريل Reille ولوبو Lobau ونابليون.

لقد كان نابليون قد بدأ يدفع حساب سنواته المزدحمة بالأحداث حيث كان يأكل بعجلة ويضاجع بعجلة ويعاني غاية التوتر وهو فوق العرش أو في ميدان المعارك وأخيرا وجد

سلواه في الأكل بنهم. وبعد ذلك بست سنوات أثبت تشريح أعضائه بعد مماته وجود ست علل. والآن في واترلو كان عليه أن يظل ممتطياً جواده طوال ساعات بينما هو يعاني من داء البواسير[٤١]، وكان يعاني من حصوات في المثانة، وكان عُسر البول يتطلب منه محاولة التبول مرارا وغالبا ما يكون ذلك في أوقات غير مناسبة. وربما يكون السرطان الذي أودى بحياته وحياة أبيه قد بدأ فعلاً في التغلغل في بدنه[٤٢]. هذه المتاعب قد ثبطت من همته وأثرت في شجاعته وصبره وثقته. «لم أعد أجد في نفسي الإحساس بالنجاح النهائي... إنني أحس أن الحظّ قد تخلّى عني[٤٣]» ومع هذا فقد أكّد لجنرالاته الذين اعتراهم الخوف (من المفترض أن ذلك لتقوية عزيمتهم): «إذا تم تنفيذ أوامري بشكل جيد، فسننام الليلة في بروكسل[٤٤]».

لكن جنرالاته كانوا يرون الموقف بشكل أوضح. لقد نصحه صول Soult أن يأمر جروشي Grouchy بالاتجاه بقواته البالغ عددها ٣٠,٠٠٠ غربا بالسرعة الممكنة لينضم إلى الهجوم، لكن بدلاً من ذلك سمح نابليون لهم أن يضيعوا الوقت وأنفسهم في مطاردة قوات بلوخر شمالاً حتى ويفر Wavre، ومن المفترض أنه كان يأمل أنه إذا اتجه البروس غربا لمساعدة ويلنجتون لاستطاع جروشي مهاجمة المؤخرة. وقد ارتكب ويلنجتون على وفق ما ورد في تحليل لاحق سلسلة من الأخطاء المماثلة بتركه ١٧,٠٠٠ من رجاله بالقرب من بروكسل لمواجهة هجوم فرنسي جانبي على طرقه المهمة والحيوية المؤدية إلى البحر.

وأمر نابليون في الساعة الحادية عشرة صباحا جيشه ببدء الهجوم على قلب (مركز أو وسط) العدو حيث كان المقاتلون من الإسكتلنديين الأشداء. وقاد ني Ney قواته باندفاعه وبسالته المعروفين لكن البريطانيين ثبتوا وراحوا من وراء تل بعد تل ينشرون الموت بالجملة بمدافعهم (التي أخفوها عن الأعين) في صفوف الفرنسيين الذين اعتراهم الهلع. وفي نحو الساعة الواحدة بعد الظهر رأى نابليون من موقع المراقبة جنوب غرب العمليات جيشا في أقصى الشرق يتحرك صَوْب ميدان العمليات، فأخبره أسير ألماني أن هذه القوات هي طليعة قوات بولو Bulow البروسية تتقدم لمساعدة ويلنجتون. فأرسل نابليون كتيبة بقيادة الجنرال لوبو Lobau لوقف القوات البروسية المتقدمة، وأرسل إلى جروشي لمهاجمة بولو (بولوف)

Bulow ثم القدوم لمساعدة الجيش الفرنسي الرئيسي ضد ويلنجتون. وفي نحو الساعة الحادية عشرة صباحا توجه جروشي شمالا بين جمبلو Gemblow وويفر Wavre فسمع صوت إطلاق المدافع قادما (أي الصوت) من الغرب، فحثّه الجنرال جيرار Gérard ليكفّ عن ملاحقة بلوخر وأن يشق طريقه عبر المنطقة ليضم جنوده البالغ عددهم ٣٠,٠٠٠ إلى قوات نابليون، والتقى جروشي بجزء من قوات بلوخر وهزمها، ودخل ويفر Wavre فاستراح بقواته بعد أن وجد بلوخر قد ابتعد بقواته.

لكن في هذا الوقت (الساعة الرابعة عصرا) كانت معركة واترلو في ذروتها: تلاحم صاخب بين رجال يقتلون ويُقتلون (بضم الياء) يفقدون ضربات استراتيجية أو يستعيدونها، يواجهون الخيول المندفعة يتلقّون ضربات السيوف أو يروغون منها، يسقطون ويموتون في الوحل. وفر الآلاف من الجانبيْن تاركين ساحة الوغى. وقضى ويلنجتون جانبا من وقته يُرهب الفارين للعودة إلى مواقعهم. وتولّى ني Ney مهمّة بعد مهمّة ومسئولية بعد مسئولية، وماتت تحته أربعة خيول. وفي نحو الساعة التاسعة مساء تلقى أمراً من نابليون بالاستيلاء على لاهاي سانت La Haye Sainte – الهولي هيدجرو the Holy Hedgerow. ونجح في مهمته وظن أنه وجد طريقا (فتحة) إلى مؤخرة ويلنجتون، فأرسل إلى نابليون طالبا مزيدا من الجنود المشاه واندفع متقدما .واستشاط نابليون غضبا بسبب تقدّمه الطائش إذ لم يكن لدِى نابليون الدّعم العسكري الكافي الذي يُمكن إرساله إليه دون أن يكون ذلك على حساب الخطة العامة (أي دون أن يؤدّي هذا إلى إضعاف الموقف العام) لكنه – أي نابليون – شعر أنه لا يجب تَرْك هذا «البائس» ليهلك ومن معه، فأمر كيلرمان Kellermann بالتوجه لدعْم نَيْ بثلاثة آلاف من الفرسان المدّرعين (اللابسين دروعا). وعندما طلب قائد الخط البريطاني الأخير دعماً من ويلنجتون أجاب الدوق بأنه لا يستطيع تقديم أية تعزيزات. ويُقال إن الضابط أجابه: «حسنا جدا يا سيدي اللورد، إننا سنصمد حتى آخر رجل[٤٥]». وعندما بدأ هذا الخط الإنجليزي في الانكسار اندفع الفرسان الفرنسيون إلى الأمام للمشاركة في النصر؛ فعلّق ضابط إنجليزي هو الكولونيل جولد Gould: «لقد انتهى كل شيء[٤٦]» وهربت كتيبة هانوفرية عند هذا الحد إلى بروكسل،

وراح أفرادها يصيحون جميعا: « خسرنا المعركة، والفرنسيون قادمون[٤٧] ».

وحقيقة الأمر أن البروسيِّين كانوا هم القادمين. لقد كسر بولو (بولوف Bulow) (البروسي) مقاومة لوبو Labau (الفرنسي) وراح يقترب بسرعة من مسرح العمليات الرئيسية، كما كانت قوتان بروسيتان أخريان تقتربان. ورأى نابليون أنّ فرصته الأخيرة هو أن يهزم الإنجليز قبل أن يتمكّن البروسي من التدخّل، فدعا حرسه القديم ليتبعه في معركة حاسمة، واتخذ هارب فرنسي طريقه إلى ويلنجتون وحذّره « ستصل إليك قوات الحرس الفرنسي في غضون نصف ساعة ». وفي نحو هذا الوقت رأى رجل مراقبة بريطاني – نابليون، وقال: « ها هو نابليون يا سيدي أظن أنني أستطيع اصطياده، هل أطلق عليه النار؟ » فمنعه الدوق: « لا.. لا.. فالجنرالات الذين يقودون الجيوش، لديهم ما هو أهم من إطلاقهم النار بعضهم على بعضهم الآخر[٤٨] ».

وهنا ظن الفرنسيون أنّهم الغالبون، لكنهم علموا فجأة بهجوم ٣٠,٠٠٠ جندي بروسي راحوا ينشرون الفزع والفوضى في صفوف الفرنسيين[٤٩]. وعندما شرع ني Ney في مواصلة مهمته تماسكت القوات البريطانية بسرعة وتراجع ني Ney، وانتهز ويلنجتون هذه الفرصة فصعد قمة منحدر وراح يلوّح بقبعته – كإشارة متّفق عليها لتتقدّم قواته كلها، وواصلت الطبول والأبواق توصيل الرسالة، فتحوّل ٤٠,٠٠٠ إنجليزي وإسكتلندي وبلجيكي وألماني من الدفاع إلى الهجوم واندفعوا متقدمين لا يهابون الموت. ووهنت الروح المعنوية للفرنسيين وعمهم الانهيار فولّوا مُدْبرين، حتى أفراد الحرس القديم بدأوا يُديرون رؤوس خيولهم متراجعين. وصاح نابليون مُصدرا الأوامر بالتوقف فذهب صوته أدراج الرياح وسط الجلبة، ولم يعد من الممكن تمييزه (التعرف عليه) بسبب دخان المعركة والأتربة المتصاعدة فاستسلم لهذا الاستفتاء العام (بمعنى أنه أذعن للتحركات العفوية لقوّاته) فأمر بالانسحاب في تشكيلات لكن القوات الفرنسية التي كانت تتعرض لهجوم من قوات تفوقها عدداً بكثير، من المقدمة ومن الجانب – لم يكن لديها الوقت لتنظم نفسها في تشكيلات، فأصبح شعار كل فرد فيها « دع كل فرد يُنقذ نفسه بقدر ما يستطيع » لقد أصبح هذا هو الشعار السائد سواء نطقوا به أم لا، ذلك أنهم لم يعودوا جنودا بل بشراً ليس إلاّ. ووسط

هذه الهزيمة وقف المارشال ني Ney مذهولا بلا حصان، وقد اسودّ وجهه بالبارود وتمزقت ثيابه العسكرية، وسيفه مكسور في يده، هذا السيف الذي طالما حقق به النصر. كان هذا هو وضع ني Ney بطل الأبطال في واترلو(٥٠). لقد انضم هو ونابليون إلى أربعين ألف فرنسي يندفعون في الطرقات والحقول إلى جيناب Gennape وإلى كاتر – برا Quatre - Bras وإلى شارلروي Charleroi ومن ثم عبروا بكل وسيلة متاحة نهر سامبر Sambre إلى فرنسا. لقد ترك الفرنسيون في ميدان المعركة ٢٥,٠٠٠ ما بين قتيل وجريح و ٨٠٠٠ أسير، وفقد ويلنجتون ١٥,٠٠٠ وفقد بلوخر ٧,٠٠٠ والتقى المنتصران (ويلنجتون وبلوخر) في الطريق بالقرب من لا بِل أليانس La Belle Alliance وتبادلا القبلات فرحاً بالنصر. وترك ويلنجتون مهمة ملاحقة الفرنسيين للبروس المتحمسين. وبلوخر أيضا كان كبير السن بدرجة لا تسمح له بالمطاردة، فترك هذه المهمّة لجنايسناو Gneisenau في جيناب Genappe التي أرسل منها خطابا لزوجته: «بالتنسيق مع صديقي ويلنجتون أبدنا جيش نابليون». لكنه كتب أيضا لصديقه كنيزبك Knesebeck: «لقد اضطربت كل أعضائي، فقد بذلنا جهودا مُضنية(٥١)». أما ويلنجتون فقد بَسَط الأمر أمام لورد أكسبردج Uxbridge بطريقة حماسية: «لقد وجهنا لنابليون ضربة حاسمة فليس أمامه إلاّ أن يشنق نفسه(٥٢)». وفي أثناء الانسحاب انضم نابليون إلى كتيبة أكثر انضباطا من غيرها، وترجّل وسار على قدميه مع الآخرين. وبكى لضياع جيشه، وحزن لأنه لم يَلْق حتفه(٥٣).

إلى سانت هيلانا

١- التنازل الثاني عن العرش: ٢٢ يونيو ١٨١٥

وصل نابليون إلىٰ باريس في نحو الساعة الثامنة صباح يوم ٢١ يونيه. وذكر في وقت لاحق «لقد كنُت منهكاً تماما، لانني لم آكل شيئا ولم أنم منذ ثلاثة أيام[١]» وذهب إلى قصر الإليزيه، وقال لكو لينكور ملتمساً: «أريد أن أستريح ساعتين[٢]». وفي هذه الأثناء اجتمع مجلس النوّاب، وكان الشعور العام يميل بشدّة لعزله. ولما علم بهذا الاتجاه، اقترح على أصدقائه أن الأمر يتطلب دكتاتورية مؤقته نظراً لاضطراب الآراء في البلاد، والحاجة إلى عمل موحّد للدفاع عن فرنسا وعاصمتها في مواجهة الحلفاء، وذلك لضبط الأمة وحكومتها.

وعندما علم أهل باريس بالنكسة العسكرية تجمع عدد كبير منهم أمام قصر الإليزيه مؤكّدين استمرار ثقتهم في نابليون بهتافهم: «عاش الإمبراطور» وراحوا يطالبون بالسلاح للدفاع عن مدينتهم. ولما سمعهم نابليون قال لبنيامين كونستانت: «أنت ترى! ليس هؤلاء هم الرجال الذين أغدقت عليهم التشريف والأموال. بماذا هم مدينون لي؟ إنني أراهم بؤساء، وقد تركتهم بؤساء... إنني لو أردتُ لانهيتُ وجود هذا المجلس Chamber المتمردّ في ظرف ساعة... لكن حياة شخص واحد لا تستحق هذا الثمن. إنني لا أريد أن أكون ملك الفلاحين Jacqueries. إنني لم آت من إلبا لأُغرق باريس في الدماء[٣]».

لقد كان نابليون حتى في أثناء فراره من واترلو يخطط لإقامة جيش جديد من ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل[٤]. وفي الفترة من ٢٢ إلى ٢٤ يونيو كانت بقايا جيشه المهزوم تتجمع في لون Loan وكان هناك من يُعيد تنظيمها «تقع لون Loan على بعد ستة وسبعين ميلا إلى الشمال الشرقي من باريس)، وهناك – في ٢٦ يونيو – انضم إلى هذه البقايا جروشي على رأس ٣٠,٠٠٠ من رجاله بعد انسحاب عبقري. وعلى أية حال، ففي هذه الأثناء، كان بلوخر قد جمّع قواته المنتصرة وكان يقودها نحو باريس متجنبا – بعناية – المرور بلون

Laon. وتردّد ويلنجتون الذي أُضير جيشه ضررا شديدا في الانضمام إلى البروسي المندفع لكنه سرعان ما كان على الطريق نفسه (إلى باريس) متجنبا المرور بلون Loan، وفي الفترة نفسها (٢٢ – ٢٥ يونيو) كانت جيوش النمسا وبافاريا وفيرتمبرج تعبر نهر الراين في طريقها إلى باريس. إن التاريخ يُعيد نفسه.

وقرر مجلس النواب بعد مناقشات حامية أن مقاومة القوات المتحالفة مسألة غير عملية وأن الأعضاء سيصرّون على اعتزال نابليون. وعمل Fouché بأساليبه الحاذقة على ضمان هذا الاعتزال، **وكان فوشيه قد تنبأ قبل واترلو أن «الامبراطور سينتصر في معركة أو** معركتين لكنه سيُهزم في الثالثة وعندها سيبدأ دورنا[٥]» لكن فوشيه لم ينتظر طويلا، لقد اندفع لوسيا Lucien – أخو نابليون – إلى المجلس Chamber طالبا التريّث فعارضه فوشيه وتساءل لافايِت ألم يستهلك نابليون ما يكفي من الحيوات؟ (جمع حياة). لقد فشل لوسيا Lucien الآن فيما كان قد نجح فيه في سنة ١٧٩٩، ولكنه نصح نابليون أن يُطيح بالمجلسين بالقوة، فرفض نابليون. لقد كانت المعركة قد استنفدت قواه، وكانت الهزيمة قد أضعفت من إرادته لكنها أنارت بصيرته، وبينما كانت الجماهير تهتف حول القصر «عاش الإمبراطور، راح يُملي على أخيه لوسيا Lucien صيغة اعتزاله للمرة الثانيه موجها إيّاه للمجلسين:

«لقد عملت على إعادة توحيد كل الجهود.. وموافقة كل الأجهزة في الحكم في بداية الحرب التي كان هدفها تحقيق استقلال الأمة، لكن الظروف تبدو لي وقد تغيرت... إنني أقدم نفسي فداء (أضحية) لمواجهة كراهية أعداء فرنسا. ربما كانوا صادقين في إعلاناتهم من أنهم حقيقة لا يريدون إلاّ الخلاص منّي. اتحدوا جميعا لتحقيق السلامة العامة ومن أجل ما بقي من استقلالِ إرادتنا.. إنني أعلن تنصيب ابني باسم نابليون الثاني[٦]».

ووافق كل الوزراء على هذا التنازل ما عدا كارنو Carnot فقد بكى، أما فوشيه فقد غمرته السعادة.

وقبل المجلسان هذا التنازل متجاهلين تعيين ابنه ذي الأعوام الأربعة (وكان وقتها في فينا) كخَلَف له، واختار المجلسان خمسة من أعضائها ((فوشيه وكارنو، وكولينكور، وجرينييه

(الجنرال الغامض) وأونيت Ouinette عضو الجمعية الوطنية الثورية القديمة))، ليكونوا مجلسا تنفيذيا Commission Exécutive وحكومة مؤقتة. وتم اختيار فوشيه Fouché رئيسا للمجلس التنفيذي وشرع مباشرة في التفاوض مع الحلفاء ونابليون. ومخافة القيام باضطرابات شعبية لصالح نابليون. حثَّ دافو Davout القائد العسكري في باريس على إقناع نابليون بمغادرة باريس والإقامة في مالميزو Malmaison. وفي ٢٥ يونيو غادر نابليون قاصدا مالميزو بصحبة برتران Bertrand وجورجو Gourgaud وكونت دي لا كاس de Las Cas وكونت دي مونثولو Montholon، فرحبت به هورتنس Hortense بدعوته إلى بيت أمها الراحلة. وراح يمشي مع هورتنس في الحديقة ويتحدث برقة عن جوزفين. لقد قال: حقا لقد كانت أفضل امرأة عرفتها(٧) ».

إنه يفكّر الآن في البحث عن الملجأ والأمان في أمريكا. لقد طلب من بيرتران Bertrand أن يدبّر له مجموعة كتب عن الولايات المتحدة(٨). وكان قد قرأ كتاب إسكندر فون همبولدت Humboldt « رحلات إلى القارة الجديدة »، وقد اعتزم أن يكرّس ما بقي من حياته للعلم. انه يود الآن الذهاب إلى أمريكا لاكتشاف أرضها وغطائها النباتي وحيواناتها من كندا إلى رأس هورن Horn، وفي ٢٦ يوليو أرسل إلى الحكومة المؤقته طلباً للانتقال إلى روشفور Rochefort ليُبحر إلى أمريكا(٩). فأمر فوشيه على الفور وزير البحرية « بتجهيز فرقاطتين في روشفور لنقل نابليون إلى الولايات المتحدة(١٠) » وفي اليوم نفسه زار نابليونَ أخوه جوزيف وأخوه لوسيا وأخوه جيروم، وكانوا جميعا قد قرروا مغادرة فرنسا، وكان جوزيف يريد الهجرة إلى أمريكا مع أخيه نابليون. وربما يكونون هم الذين أحضروا له خطابا من أمهم تعرض عليه فيه « كل ما تملك » فأرسل لها شاكرا ولم يأخذ منها شيئا. فلازال معه قدر كبير من المال مع البنكيٌ جال لافيت Jacques Lafitte الذي أتي بنفسه إلى مالميزو ليرتب أمور نابليون المالية.

وفي ٢٨ يونيو أتاه ضابط يحذره من اقتراب البروس من مالميزو قُربا يكفي لإرسالهم فصيلاً عسكريا للقبض عليه، وبالفعل فقد كان بلوخر قد أرسل رتلاً سريعا آمراً إيّاه بإحضار نابليون حيا أو ميتا وعبر عن نيته بإطلاق النار عليه كمجرم خارج على

القانون[١١]. وعندما سمع جورجو بهذه النية أقسم لئن رأى الإمبراطور وقد سقط في أيدي البروس لأطلق النار عليه، ومع هذا كان نابليون كارها لمغادرة ماليزو الذي حفلت كل غرفة وممراته بذكريات سعيدة. وفي ٢٩ يونيو كلّف فوشيه الجنرال بكه (بكر Becker) بالتوجه بفرقة من الجنود لإجبار نابليون على الاتجاه إلى روشفور.

ووافق نابليون، وأقنعته هورتنس بقبول قلادتها الألماسية الموضوعة في حزام والتي تساوي ٢٠٠,٠٠٠ فرنك. وودع نابليون الجنود القلائل الذين كانوا في حمايته. وفي الخامسة مساء (٢٩ يونيو) ركب عربة ذات غطاء تجرها أربعة خيول مصحوبا بحرس عسكري قليل العدد وغادر ماليزو، وبعد ساعات قليلة من مغادرته وصلت خيّالة بلوخر.

٢- البوربون يستعيدون العرش للمرة الثانية: ٧ يوليو ١٨١٥

راح المجلسان والحكومة المؤقتة يتناقشون هل يحاربون الحلفاء الذين اقتربوا أم يتفاوضون للوصول لأفضل الشروط المتاحة. وعرض دافو Davout أن يقود الميليشيا الموجودة بالمدينة (باريس) ضد ويلنجتون وبلوخر إن أصرّا على إعادة لويس ١٨ إلى العرش. وخاف النوّاب أن تؤدي المقاومة والهزيمة إلى تمزيق فرنسا وما يعقب ذلك بوقت وجيز، من فضّ المجلسين معا. ولم تكن بقايا جيش نابليون المعروف بجيش الشمال في حالة نفسيه تسمح بهزيمة أخرى (واترلو أخرى) بالإضافة إلى نقص المؤن، بينما كانت قوات الأعداء موحّدة بين لون Loan وباريس.

وعندما علم لويس الثامن عشر أن فريقاً من الحلفاء كان يعمل على إحلال لويس فيليب (دوق دورليان Duc d'Orléans) مكانه كملك لفرنسا انتقل وهو في حالة قلق من جنت Ghent إلى شاتو كمبريزي Chateau - Cambrésis وأصدر من هناك (في ٢٥ يونيو) بيانا يعد فيه بالترضية (التسوية) ونظام الحكم الليبرالي. وأدى هذا إلى ابتهاج المجلسين، وفي ٣٠ يونيو وقّعت الحكومة الفرنسية المؤقتة والحلفاء شروط تسليم العاصمة. كان على كل القوات الفرنسية أن تنسحب فيما وراء نهر اللوار مع ضمان أمن المواطنين وممتلكاتهم. وفي السابع من يوليو دخل الحلفاء باريس وفي الثامن من يوليو أصبح لويس ١٨ مرة أخرى ملكاً

لفرنسا . واستخدم مدير شرطة دائرة (محافظة) السين Seine عند الترحيب به عبارة « المائة اليوم Cent Jours » للمرّة الأولى ليصف بها الفترة الواقعة بين اغتصاب نابليون الملك للمرة الثانية (٢٠ مارس) واستعادة لويس ١٨ عرشَه .

وقبل معظم الفرنسيين وَقْف المقاومة باعتباره الحل العملي الوحيد للمشاكل الناجمة عن انهيار حكم نابليون المفاجئ . وعلى أية حال فإن بلوخر قد أطلق صيحة احتجاج مؤدّاها أنه سيطلب من مهندسيه نسف جسر بونت دينا Pont d'Iena وذلك الجسر الذي يُذكّر بانتصار الفرنسيين على البروس في سنة ١٨٠٦ ، واقترح تدمير كل ما يذكّر بنابليون (المقصود الآثار والنصب التذكارية . . . الخ)، وانضم ويلنجتون مع لويس ١٨ في حث بلوخر على الكف عن كل ذلك، لكنه أصر، غير أن وصول القيصر إسكندر والملك فريدريك وليم والإمبراطور فرانسيس الثاني على رأس قوات روسية ونمساوية وبيدمونتية أدى إلى إجبار الوطني العجوز (بلوخر) على التهدئة من حدة غضبه(١٢) . لقد بلغ إجمالي القوات الأجنبية الآن نحو ٨٠٠,٠٠٠ لابد أن يُطعمها الشعب الفرنسي لقاء حمايتها له policing (أي قيامها بدور رجال الشرطة)، وعلى وفق حساب كاسلريه Castlereagh فإن هذا كان يكلّف فرنسا ١,٧٥٠,٠٠٠ فرنك في اليوم (لإطعام الذين يحتلّون بلاده)، وبالإضافة إلى هذا كان على كل ولاية أو منطقة أو محافظة أن تدفع للحلفاء تعويضات حرب، وكانت هذه التعويضات باهظة . وأخبر لويس ١٨ قادةَ الحلفاء أنهم إذا لم يلتزموا بإعلان ٢٥ مارس واستمروا في معاملة رعاياه كأعداء، فإنه سيترك فرنسا باحثاً عن ملجأ له في إسبانيا . فوافق الحلفاء على تخفيض تعويضات الحرب إلى خمسين مليون فرنك متذرّعين بأنهم راضون تماما بقوانين الحرب وبالسوابق التي رسخّها نابليون عندما غزا بروسيا والنمسا .

ووجدنا أيضا الملكيّين في بعض المدن الفرنسيّة منهمكين في « إرهاب أبيض White Terror » ثأرا من « الإرهاب الأحمر » الذي أدى إلى مقتل عدد كبير من الملكيّين في عامي ١٧٩٣ - ١٧٩٤ . ولم يكن هذا الإرهاب الأبيض دائما بغير إعدام عاجل، فعندما تظاهر فريق من الملكيّين في مارسيليا مطالبين بعودة لويس الثامن عشر إلى العرش قام بعض جنود الحامية المحلية ممن لا زالوا موالين لنابليون بإطلاق النار عليهم . وسرعان ما أوقف القائدُ

إطلاق النيران وحاول أن يقود جنوده خارج المدينة المعادية لكن في أثناء خروجهم تعرّض مئات منهم لقذائف النيران التي أُطلقت عليهم من النوافذ ومن فوق الأسطح (٢٥ يونيو) وفي هذا اليوم واليوم الذي تلاه راح الملكيون المسلحون يجرون حول المدينة مطلقين النار على البونابرتيِّين واليعاقبة فسقط منهم مئة ضحيّة، وكان كثيرون من هؤلاء الضحايا لا يزالون يهتفون حتى وهم يحتضرون « عاش الإمبراطور » وراحت النسوة الملكيات يرقصن حول جثث البونابرتيِّين واليعاقبة[١٣] . وفي أفينون Avignon سجن الملكيون البونابرتيِّين وقتلوهم. وثمّة شخص كان الملكيون يبحثون عنه على نحو خاص، إنه جولوم برونيه Guillaume Brune الذي كان متهماً بحمل رأس الأمير لامبل Lamballe على سن رمحه في سنة ١٧٩٢ لقد اختبأ في فندق أفينون وعثرت عليه الجماهير فأطلقت عليه النار وجرّت جثته في شوارع المدينة وراحوا يضربون جثته بنشوة حانقة، ثم ألقوها في الرون Rhône وراح الرجال والنساء يرقصون بنشوة وسعادة (٢ أغسطس ١٨١٥). وشهدت مُدن نيم Nimes ومونتبليه Montpellier وتولوز Toulouse مشاهد مماثلة. لقد كان لويس ١٨ رجلا متسامحا لا يمكن عَزو هذه البربرية له، لكنه لم يكن قادرا على التسامح مع ني Ney الذي سبق أن تعهد له (تعهد للويس ١٨) بإحضار نابليون حيا أو ميتا لكنه تخلّى عن وعده وانضم إلى نابليون وتسبب في موت كثيرين في واترلو. لقد فرّ ني Ney من باريس في ٦ يوليو وراح يتنقل متخفيا من مدينة إلى أخرى لكن تم التعرف عليه فقُبض عليه وقُدّم إلى محكمة مكونة من ١٦١ عضوا (نبيلا) Peers أصدرت حكمها بأنه متهم بالخيانة فتم إعدامه بإطلاق النار عليه في ٧ ديسمبر سنة ١٨١٥ بعد أن رفض أي خدمات دينية من القسس (رفض أن يُلقنه القسس أصول المسيحية الكاثوليكية كما رفض الطقوس الكنسية المرتبطة بالموت).

لقد أصبح فوشيه وتاليران الآن في خدمة (وزارة) لويس ١٨ لقد انتصرا لكنهما لم يكونا سعيدين. لقد وصم الملكيون في مجلس الوزراء فوشيه بأنه ضالع في قتل لويس ١٦ ونصحوا الملك بطرده، وسوّى الملك الأمر بتعيينه وزيرا له (سفيرا) في سكسونيا (١٥ سبتمبر) لكنه استدعاه بعد ثلاثة أشهر ونفاه من فرنسا، فراح فوشيه يتنقل من براغ إلى لينز

(لينتس Lins) إلى تريست حيث مات في سنة ١٨٢٠ عن عمر يناهز الواحد والستين عاما مارس فيها كثيرا جدا من الشرور والسلوك الطائش.

وكان تاليران يضارعه مكرا ودهاء ويفوقه تحملا وصمودا. لقد وصفه لويس ١٨ بسطور من كورنيل Corneille : « لقد فعل معي كثيرا من الأمور الطيبة تمنعني من ذكره بشر، وألحق بي كثيرا من الأذى مما يمنعني من ذكره بخير[١٤] » ويبدو أن تاليران هو الذي قال (في سنة ١٧٩٦) عن البوربون: « إنهم لم يتعلموا شيئا ولم ينسوا شيئا[١٥] ». لكن هذا القول لا يكاد ينطبق على لويس الثامن عشر الذي تعلّم كيف يتعامل مع المجالس المنتخبة وكيف يُرحِّب بجنرالات نابليون وكيف يُبقي على كثير من التشريعات النابليونيّة. وكان الوزراء الملكيون يكرهون تاليران ليس لأنه كان شريكا في المؤامرة على قتل الملك (لويس ١٦) فحسب وإنما أيضا باعتباره خائنا لطبقته، وأذعن لويس ١٨ لهم فطرده (٢٤ سبتمبر ١٨١٥)، ولكن تاليَران عاد إلى منصبه، وعاش بعد لويس ١٨ بل وعاش بعد تنازل شارل العاشر (١٨٣٠) وتم تعيينه سفيرا لفرنسا لدى بريطانيا العظمى (١٨٣٠ - ١٨٣٤) وهو في السادسة والسبعين من عمره. وعندما انتقد مركز لوندوندري Londonderry السفيرَ تاليران في مجلس اللوردات دافع عنه ويلنجتون الذي كان قد تعامل مع السيد تاليران في مواقف كثيره فوجده على حد تعبير دوق ويلنجتون أكثر من عرف من الرجال حماسا ومهارة في حماية مصالح بلاده (فرنسا) وأكثر من عرف من الرجال استقامة وشرفا في تعامله مع الدول الأخرى. وعندما قرأ تاليران هذه الكلمات كاد يبكي، فلا شيء أفضل له من هذه الكلمات: « إنني ممتن شديد الامتنان لدوق ويلنجتون فهو رجل الدولة الوحيد في العالم الذي تحدث عني حديثا طيبا[١٦] » أمَا وقد عاون في تنظيم التحالف الرباعي في سنة ١٨٣٤ ومات في سنة ١٨٣٨ عن عمر يناهز الرابعة والثمانين، وفاق الجميع حدة ذهن ودهاء، فإنه كاد يخدع الموتَ نفسه.

وفي ٢٠ نوفمبر ١٨١٥ وقّع لويس الثامن عشر مع الحلفاء معاهدة باريس الثانية التي صاغت العقوبات التي كان على فرنسا أن تتحمّلها لسماحها لنابليون بمواصلة الحكم (بعد عودته من إلبا) لقد كان على فرنسا أن تتنازل عن السار Saar وسافوي وأربع مدن حدودية

بما في ذلك فيليبفيل Philippeville ومارينبورج Marlenburg، وأن يعيد الأعمال الفنية التي استولى عليها جنرالاتها الغازون، وأن تدفع تعويضات حرب مقدارها ٧٠٠ مليون فرنك بالإضافة إلى ٢٤٠ مليون فرنك على وفق دعاوٍ (مطالبات) خاصة، وأن تظل قوات الحلفاء في الأراضي الفرنسية مدة تتراوح بين ثلاث سنوات وخمس وأن تدفع فرنسا تكاليف هذه القوات(١٧). ورفض تاليران توقيع هذه الوثيقة لكن وزير الخارجية الذي خلفه - أرمان إمانويل دي بلسٌ Plessis دوق ريشيليو Duc de Richelieu وقعها محتجّا (وقعها معلنا احتجاجه عليها) وبعدها صاح: «لقد لوّثتُ شرفي(١٨)».

٣- التسليم: ٤ يوليو - ٨ أغسطس ١٨١٥

لقد ركب نابليون من مالميزو متجها جنوبا فلحق به عند نيور Niort أخوه جوزيف، ورفيقه في السلاح جورجو. ووصلوا إلى روشفور Rochefort (جنوب شرق لا روشيل La Rochelle بثلاثة عشر ميلا) في وقت متأخر من الثالث من يوليو فوجدوا الفرقاطتين اللتين توقعوا وجودهما (الفرقاطة سال Saale والفرقاطة ميدوز Mēduse) في الميناء، لكن خلف هاتين الفوقاطتين كان يوجد أسطول حربي بريطاني صغير يحاصر الميناء ويمنع فيما يبدو أي خروج منه دون تصريح.

وفي ٤ يوليو أرسل نابليون استفسارا إلى قبطان الفرقاطة سال Saale - هل تم احتجاز مكان له ولبعض أصدقائه لرحلة إلى أمريكا، وهل يمكن للفرقاطة سال Saale اختراق الحصار؟ فأتته الإجابة بأن الفرقاطة جاهزة ومستعدة للإبحار وستحاول أن تروغ من السفن الحربية (المحاصِرة - بكسر الصاد) ليلا مع احتمال أن تتعرَّض للتوقيف أو القصف لكن إن أفلتت فإن سرعتها الفائقة لن تمكن السفن الحربية من اللحاق بها. إن نابليون الآن في مِحَن راح يقلِّبها فظل تسعة أيام مترددا يقلّب الخطط - خطط هربه، وراح يطلب النصيحة من رفيق بعد رفيق، فعرض عليه جوزيف الذي كان يشبهه في المظهر أن يتنكر هو (أي جوزيف) متقمصا شخصية نابليون وأن يترك نفسه ليحتجزه البريطانيون، بينما قد يُسمح لنابليون بملابسه المدنيّة بمواصلة رحلة تبدو روتينية على متن إحدى الفرقاطتين، ورفض

نابليون تعريض أخيه للخطر. وقد أبحر جوزيف نفسه في وقت لاحق على إحدى الفرقاطتين إلى أمريكا. لقد نسي نابليون خمسة عشر عاما من الحرب، وراح الآن يعزف على أنغام الهوى مع إنجلترا مؤمّلا أنه إذا سلّم نفسه لها فقد تعامله كأسير مُميّز وتسمح له بقطعة أرض متواضعة ليعيش فيها كمالك - بسلام. وفي ١٠ يوليو أرسل لا كاس Las Cases وسافاري Savary (دوق روفيجو Rovigo) ليطلب من القبطان فريدريك ميتلاند Maitland على ظهر السفينة بيلروفون Bellerophon التابعة للتاج البريطاني عما إذا كان قد تلقى أية جوازات سفر (تصاريح سفر) باسم نابليون يتوجه بمقتضاها إلى أمريكا. ولم يكن لدي القبطان بطبيعة الحال مثل هذه الجوازات. عندئذٍ سأله لا كاس عما إذا سلّم نابليون نفسه للبريطانيين فهل يتوقع أن يعامله الإنجليز بالكرم المعروف عنهم، فأجاب ميتلاند أنه يسعده أن يستقبل نابليون ويأخذه إلى إنجلترا لكنه - أي ميتلاند - غير مخوّل بتقديم أية وعود عن كيفية استقباله هناك.

وقبل هذا الحوار أو في أثنائه أو بعده تلقى القبطان ميتلاند من رئيسه - السير هنري هوتام Hotham نائب الأدميرال (الذي كان يطوف وقتها إزاء الساحل الشمالي الغربي لفرنسا) رسالة يُخبره فيها أن نابليون موجود في روشفور Rochefort أو بالقرب منها وأنه ينوي العبور إلى أمريكا، وأضاف الأدميرال: «عليك أن تبذل قصارى جهدك لمنعه من الإبحار فوق الفرقاطات، . . . وإن أسعدك الحظ بالقبض عليه، ضعه تحت حراسة جيدة وتوجه به بأقصى سرعة إلى ميناء بريطاني[١٩]».

وفي ١٤ يوليو أوْ نحو هذا التاريخ تلقى نابليون تحذيرا من أن لويس الثامن عشر كان قد أمر الجنرال بونفور Bonnefours بالتوجه إلى روشفور للقبض عليه (على نابليون)[٢٠] وتحرك بونفور ببطء. لقد أصبح نابليون الآن ملزما بخيار من خيارات ثلاثة: إما أن يسلم نفسه للويس الثامن عشر الذي لديه كل الأسباب التي تجعله كارهاً له، أو أن يخاطر بالهرب محاولا الإفلات من الحصار البريطاني أو أن يسلم نفسه للقبطان ميتلاند على أمل أن يحظى بمعاملة كريمة من بريطانيا. واختار نابليون الطريق الثالث، ففي ١٤ يوليو كتب للوصي على العرش الذي كان يحكم بريطانيا آنئذ:

« يا صاحب السمو الملكي

نظراً للفُرقة (الشقاق) التي استنزفت بلادي، واختلاف القوى الكبرى في أوربا قررت أن أنهي كل عمل لي في مجال السياسة وإنني آت - مثل تيميستوكل Thémistocle - لأقيم في بيت الشعب البريطاني لأنعم بالدفء بينه. إنني أضع نفسي تحت حماية قوانينكم التي أناشد سموكم الملكي باعتباركم أكثر أعدائي قوة وعزما وكرما أن تمنحوني حمايتها.

نابليون [٢١](*).

وعَهِد نابليون إلى جورجو بتسليم هذا الخطاب وطلب منه أن يحصل على إذن لتوصيل الخطاب في القارب التالي. وقد وافق ميتلاند لكن القارب الذي استقل جورجو قد تم احتجازه طويلا في الحجر الصحي، وليس هناك ما يشير إلى أن هذا الخطاب قد وصل إلى الوصي على العرش.

وفي ١٥ يوليو وُضع نابليون ورفاقه على متن السفينة البريطانية بيلروفون Bellerophon، واستسلموا طائعين لبريطانيا العظمى. قال نابليون لميتلاند: « لقد أتيتُ على متن سفينتك لأضع نفسي تحت حماية القوانين الإنجليزية[٢٢] ». وقد استقبلهم القبطان بمودّة ووافق على نقلهم إلى إنجلترا ولم يقل لهم شيئا عن رسالة الأدميرال هوثام Hotham لكنه حذّر نابليون من أنه لا يضمن أن يتم استقباله بود في إنجلترا. وفي ١٦ يوليو أبحرت السفينة بيلروفون قاصدة إنجلترا وفي وقت لاحق أبدى ميتلاند ملاحظة طيبه عن أسيره الكبير: « لقد كانت طباعة دَمثة تماما. لقد كان يشارك في كل مناقشة، ويروي كثيرا من النوادر، ويسلك كل السبل ليجعل الجوّ فَكِهاً مرِحا. وكان مؤتلفاً بشكل كبير جدا مع كل من معه.. رغم أنهم كانوا يعاملونه بكثير من الاحترام. وكان يملك - بشكل مدهش - القدرة على إحداث تأثير محبّب على من يناقشونه»[٢٣].

وكان طاقم السفينة مبتهجاً وعامله بأقصى درجات الاحترام. وفي ٤ يوليو وصلت السفينة تيلروفون إلى خليج تور Tor Bay وهو خليج صغير في القنال الإنجليزي على ساحل

(*) أعظم جنرالات أثينا. نفته السلطات الأثينية نحو ٤٧٠ ق.م. وظل مُلاحقاً من مدينة إغريقية إلى أخرى. وأخيراً استقبله الفُرس - أعدى أعداء أثينا - وقدموا له الحماية مع أنه كان قد هزم الفرس في سالامي Salamis في سنة ٤٨٠ ق.م.

ديفونشير Devonshire وسرعان ما تمركزت فرقاطتان مسلحتان عند الجانب الآخر للسفينة. لقد أصبح من الواضح أن نابليون قد غدا أسيرا، وأتى الأدميرال الفيسكونت (النبيل) كيث Viscount Keith فوق سطح السفينة وحيّاه بمودّة متسمة بالبساطة: وبعد ذلك قال جورجو لنابليون إنه لم يستطع تسليم خطابه (خطاب نابليون) للوصي البريطاني على العرش، لكنه كان مضطراً لتسليمه إلى كيث الذي لم يعره اهتماما[٢٤]. وأمر كيث القبطانَ ميتلاند أن يتجه بسفينته إلى بلايموث Plymouth على بعد ثلاثين ميلا حيث ظلت السفينة هناك حتى الخامس من أغسطس. وفي هذه الفترة أصبحت محط حب استطلاع البريطانيين. لقد ركب الرجال والنساء من كل أنحاء جنوب إنجلترا إلى بلايموث وازدحموا في القوارب ليروا الغول الإمبراطوري وهو يمشي الفترة المقررة له يوميا فوق متن السفينة.

وأمضت الحكومة البريطانية أياما لتقرر ما تصنعه معه. وكان الرأي السّائد هو معاملته كشخص خارج على القانون على وفق ما سبق للحلفاء أن أعلنوه رسميا وباعتباره شخصا خرق اتفاق فونتينبلو المتساهِل معه، فأجبر أوربا على حرب أخرى معه كلفتها كثيرا من الأرواح والأموال. من الواضح أنه يستحق الموت، فإن سُجن فقط لكان ممتنا، لكن إن كان لا مناص من سجنه فليكن بحيث لا يهرب ليحارب مرة أخرى. وربما كان يستحق بعض الرحمة لتسليم نفسه طوعا فوقى الحلفاء مزيدا من المتاعب، لكن هذه الرحمة لا يجب أن تدع له طريقاً للهرب، وعلى هذا أمرت الحكومة البريطانية الأدميرال كيث أن يخبر الأسير (السجين) أنه عليه أن يقيم من الآن فصاعدا في جزيرة سانت هيلانا (هيلانه) على بعد نحو ١٢٠٠ ميل من غرب إفريقية. إنها جزيرة بعيدة، لكن كان لابد أن يختاروا له مكانا بعيدا، كما أن بُعدها قد يُريح السجين (نابليون) والمتحفّظين عليه مما تتطلبه المراقبة عن قرب من صرامة. وتناقش حلفاء بريطانيا ووافقوا على هذا الحكم مع احتفاظهم بحق إرسال مندوبين عنهم للجزيرة للمشاركة في الإشراف عليه (مراقبته) وكاد نابليون ينهار عندما علم أنه قد حُكم عليه بما اعتبره موتا رغم أنه يتنفّس، فاعترض بشدة لكنه استسلم عندما رأى أنه لا جدوى من ذلك. ومُنِح عدة مزايا، فقد سُمِح له باختيار من يرغب من أصدقائه ليصحبوه، فذكر الجنرال بيرتران «المارشال الكبير في القصر» والكونت دي مونثولو،

والكونتيسه دي مونثولو Montholon (كان هذا الكونت هو معاونه في معركة واترلو) والجنرال جورجو المدافع المخلص عنه، كما اختار واحدا من اثنين: الكونت دي لا كاس وابنه. وسمحت السلطات لكل واحد منهم (نابليون وصحبه) أن يصحب معه خدما ومبلغ ١٦٠٠ فرنك. لقد أخذ نابليون معه عديدا من الخدم ودبّر ليأخذ معه مبلغا كبيرا من المال، فقد أخفى قلادة هورتنس الألماسية الثمينة في حزام لا كاس، وخبّأ ٣٥٠,٠٠٠ فرنك في عباءات خدمه. وكان مطلوبا من كل منهم تسليم سيفه، لكن عندما تقدم الأدميرال كيث ليأخذ سيف نابليون هدده نابليون بسلّه دفاعا عن نفسه، ولم يصر كيث[٢٥]. وفي الرابع من أغسطس أبحرت السفينة بيلروفون من بلايموث قاصدة بورتسموث Portsmouth وهناك سلّمت أسيرها (نابليون) وحاشيته ومتعلّقاتهم لسفينة أكبر (النورثمبرلاند Northumberland) التي أبحرت في ٨ أغسطس قاصدة سانت هيلانا.

الفصل التاسع والثلاثون

إلى النهاية

١- جزيرة سانت هيلانا

لقد كانت رحلة طويلة من إنجلترا – من ٨ أغسطس إلى ١٥ أكتوبر. وكان نابليون معتادا على السرعة في الحركة والفعل والحديث فاعتراه الملل وتحمّله بشق النفس. وفكر الأدميرال السير جورج كوكبورن Cockburn في تيسير الأمر بأن راح يدعو يوميا نابليون وأحد رفاقه لتناول الغداء معه ومع بعض الضباط البريطانيين، وعلى أية حال فقد كان البريطانيون يقضون ساعتين ونصف على مائدة الغداء أمّا نابليون فكان يحثهم على قبول اعتذاره عندما يبدأون في تناول الشراب (الخمور)، وكان يجفل عندما ينادونه «بجنرال» بدلا من «إمبراطور» لكنه كان معجبا بمودّتهم ولطفهم. واقترح أصدقاؤه كوسيلة لقتل الوقت وتهوينه أن يُملي عليهم ذكرياته في الحكم والحرب. لقد بدأ الآن دور الذكريات التي دوّنها أوميرا O'Meara أوْ لاكاس أو جورجو، أو مونثولو والتي نشروها بعد وفاته. ولعبت دورا في أن أصبحت ذكرى نابليون قوّة حيّة في فرنسا طوال القرن. لقد طال مقام الرجال في البحر فلابد أن نابليون نفسه قد اعتراه السرور عندما رأى الساحل الصخري لجزيرة سانت هيلانا. إن نظرة واحدة يمكنها أن تحيط بمعظم أنحاء الجزيرة. لقد كان محيطها عشرين ميلا فقط، ويكاد يكون كل سكانها متجمعين في مينائها جيمستون ذى الشارع الواحد. لقد كان عدد سكان هذه الجزيرة خمسة آلاف نفس. وكانت الأرض المتضرّسة (الوعرة) غير المستوية ترتفع صُعُدا إلى هضبة عند لونجوود Longwood ومناخها إستوائي حار ممطر سديمي، والفصول المنتظمة لا وجود لها وإنما هناك تغيرات غير محسوبة من رطوبة وجفاف. وكانت تربتها غير ودودة (المقصود غير خصبة) تضن بالطعام عند زراعتها. إنها «بقعة من الأرض» صالحة لعزل «صانع مشاكل» لكنها كتعذيب لرجل كانت حياته عملاً يتطلب قارة تكون مسرحاً له.

لقد ظل هو ومن معه على متن السفينة، بينما راح الأدميرال كوكبورن Cockburn

يبحث لهم عن مقر إقامة مؤقت حتى ينتهي العمل في البيت الكبير الذي كانت الحكومة البريطانية قد اختارته ليقيموا فيه معا. فبالنسبة إلى نابليون ولا كاس Las Cases وابنه وجد الأدميرال مكانا باعثا على المسرّة « البريار Briars(*) » ظن مالكه (وليم بالكومب Balcombe) أن استضافته للإمبراطور (نابليون) ستكون أمراً شائقا. وكان لمالك هذا البيت ابنتان إحداهما في السادسة عشرة والأخرى في الرابعة عشرة، أبهجتا البيت، فقد كانتا تتحدثان قليلا من الفرنسية وتمثلان وتغنيان، وقد شُغفتا بنابليون حتى أن الصغيرة منهما بكت عندما أصبح عليه أن يغادر إلى البيت المشترك الذي أعدته الحكومة البريطانية لإقامته ومن معه، وكانت يطلق عليه « بيت لونجوود Longwood ».

لقد كان هذا البيت المشترك « لونجوود » بيتا ريفيا قديما على بعد نحو ستة أميال من جيمستون. وكانت غرفه الكثيرة بسيطة لكنها مؤثّثة بشكل كاف. وعلى وفق الخطة الممتازة التي وضعها لاكاس Las Cases يكون من نصيب نابليون ست غرف: « غرفة انتظار واسعة للزوار وحجرة مؤدية إليها » وردهة وغرفة نوم وغرفة دراسة ومكتبة وغرفة طعام واسعة. وكانت الجدران مغطاة من الداخل بكانافا مشبعة بالقار، وكانت طريقة تغطيتها أنيقة، وكان هناك نوافذ كثيرة. وقبل نابليون هذا دون شكوى مبدئياً، بل إنه كان سعيداً بالحمّام الذي وصفه بأنه « فخم مترف بطريقة لم يُسمع عنها في هذه الجزيرة البائسة(١) » وقد ذكر لا كاس أن « الإمبراطور » كان راضيا عن كل شيء(٢). أما الجناح الآخر من الغرف المشيّدة فقد هيِّئت لكل من لا كاس وابنه والكونت دي مونثولو Montholon والكونتيسة دي مونثولو، والجنرال جورجو، والدكتور أوميرا O' Meara طبيب نابليون. وتم إعداد غرف كبيرة عامة لخدم نابليون وخدم الآخرين(٣). أما الجنرال بيرتران Bertrand وزوجته وخدمهما فقد أقاموا في بيت صغير في الطريق إلى جيمستون.

وكان لنابليون حرية الحركة - على قدميه أو راكباً حصانا أو في عربته في حدود دائرة نصف قطرها خمسة أميال من البيت الذي يُقيم فيه، لكن كان لابد أن يخضع لمراقبة الجنود الإنجليز إذا ما خرج من هضبة لونجوود (الهضبة التي فيها بيت لونجوود الذي يقيم فيه،

(*) المعنى الحرفي للكلمة هو الورد البرّي. (المترجم).

والآنف ذكره)، وكان حاكم الجزيرة الإنجليزي يرسل يوميا الوجبات الغذائية لنابليون ومن معه، وكان يمكنهم طلب طعامهم في حدود لا يتعدونها[٤]. واعتاد الإمبراطور أن يأكل بمقادير ضئيلة حتى الساعة الثامنة مساء (المعنى: لا يتناول وجبته مرة واحدة) ثم يتناول هو ومن معه عشاءهم بتروّ مما يجعله - بعد العشاء - مستعدا للنوم. وكان نابليون قد أحضر معه من فرنسا أدوات مائدة مُترفة غالية الثمن، وكان يستخدمها بانتظام بل لقد سمعنا أنه جلب معه سكاكين وملاعق وشوكات من ذهب[٥]. أما الأطباق فكان غالبها من خزف سيفر Porcelain Sèvres (سيفر مدينة فرنسية). وكان الخدم يرتدون ملابسهم الرسمية الخضراء المحلاة بالذهب كاملة. وكان لا كاس مبهورا «بأناقة أدوات المائدة والطريقة الممتازة التي تنظّم بها موائد الطعام»[٦] لقد استمر «الإتيكيت» الذي كان معمولا به في التوليري في لونجوود. وسمح نابليون لأصدقائه المخلصين بالحديث معه بكثير من الصراحة لكنه لم يُزل الكلفة بينه وبينهم، فقد كانوا دوْما يشيرون إليه في حديثهم بالإمبراطور، وكانوا يخاطبونه بصاحب العظمة، وكانت الخطابات التي توجه إليه كجنرال لا يتم فضّها، وكان على الزوّار أن يخاطبوه كإمبراطور أو أن يمكثوا بعيدا عنه (لا يخاطبونه) وكانت هناك بعض الصعوبات ومسبّبات السخط، فقد استوطنت الفئران في منزل الإمبراطور، بل وحتى في قبعته، وكانت تجري حول أرجل المائدة وهو يتناول طعامه، ولم تكن البراغيث ولا البّق لتميز بين الخادم والإمبراطور. لقد تذمّر لاكاس قائلا: «لقد أكلتنا هذه الحشرات بكل معنى الكلمة[٧]» وكان الضباب المسبب للكآبة يَعُم المنطقة يوما بعد يوم، وكان الماء يسقط أحيانا وافتقد الإمبراطور حمامهُ الدافئ. وأدت المراقبة الدائمة - مهما كانت مهذّبة أو من بُعد - إلى اعتكاف يشبه اعتكاف الرهبان في الدير، ومما جعل هذا مقبولا رتابة الحياة في هذا المكان. لكن في أي مكان آخر يُتاح لسجين أن يكون له هذا العدد من الأصدقاء والخدم وحصان وعربة خفيفة وكل الكتب التي يمكنه استخدامها؟ باختصار لقد كان سجنا محتملا أكثر مما يتوقع أي سجين خاصة بعد أن هرب من مكان احتجازه السابق وبعد أن كلف ملايين الجنيهات الإسترلينية والضحايا لإعادة القبض عليه. لقد سارت الأمور بشكل معقول حتى وصل السير هدسون لو Lowe.

٢- السير هدسون لو

وصل إلى جزيرة سانت هيلانا في ١٤ أبريل سنة ١٨١٦ ليحل محل السير جورج كوكبورن، كحاكم للجزيرة. وقد وضعت الحكومة البريطانية في اعتبارها عند اختياره أنه موظف واع ينفّذ التعليمات بإخلاص. وكان لابد أن تمتد التعليمات التي لديه لتشمل السجين (نابليون) «كل عمل مرتبط بسلامته» لقد بدأ السير هدسون لو مهامّه بشكل طيب. لقد أحضر معه نحو ألفي مجلّد باللغة الفرنسية وجعلها تحت أمر نابليون ومن معه وأرسل يقول إنه سمع أن المنزل الذي يقيم فيه هو ومن معه (منزل لونجوود) في حاجة لبعض الترميمات وإنه سيأمر بإجرائها حالا[٨]. وظن أنَّ عليه أنْ يزور سجينه المميّز وطلب من سلفه الأدميرال كوكبورن أنْ يصحبه في هذه الزيارة. ومن المُفترض أنه لم يكن يعلم أن نابليون كان قد أصدر تعليماته إلى بيرتران ألاّ يسمح لأحد بزيارته إلاّ بإذنه – أي إذن بيرتران – وعلى أن يكون هو (أي بيرتران) مرافقا لهذا الزائر، خوفا من الفضوليين والراغبين في مشاهدته حبا للاستطلاع. وأتى السير هدسون والأدميرال دون ميعاد سابق وطلباالإذن فكان رد نابليون أنه مريض ولا يمكنه رؤيتهما فسأل لو Lowe متى يأتي إذن، فأجاب نابليون: غداً. لقد جُرِح كبرياء لو **Lowe** ولكنه أتى في اليوم التالي ومعه بيرتران، فاستقبله نابليون ببرود وسرد عليه بعض الأمور التي يُعاني منها: الحُراس متمركزون بالقرب القريب من منزله وهم أحيانا يحدّقون ليلا عبر نوافذ بيته، وهو لا يستطيع أن يجول بحصانه إلا في حدود ضيقة دون أن يتبعه ضابط بريطاني. فوعده لو Lowe بأن يبذل قصارى جهده لإزالة أسباب الشكوى[٩]. وبعد مغادرته، ذكر نابليون لرفاقه أنه «لم ير أبداً» ملامح أكثر شبهاً بملامح طائر السفّاح الإيطالي من ملامحه[١٠]».

وكان السير هدسون لديه من الكبرياء أكثر مما لديه من روح الفكاهة، وبعد عودته إلى مكتبه أرسل إلى مساعدي نابليون يخبرهم أن القيود موضع الشكوى فرضتها الحكومة البريطانية وليس لديه الصلاحيات لإلغائها، وأضاف قائلا إنه بناء على تعليمات حكومته لابد أن تمر كل مراسلات بين لونجوود والعالم الخارجي من خلاله وأن تكون خاضعة لتفتيشه (رقابته[١١]) وعلى وفق ما ذكره لا كاس Las Cases رفض الحاكم أن يوصّل لنابليون

الخطابات التي تخاطبه «بالإمبراطور نابليون[١٢]». وأرسل الحاكم دعوة على العشاء للجنرال بيرتران، والجنرال نابليون، فرفضها نابليون. وبلغ النزاع درجة عالية من السخونة عندما أخبر الحاكمُ الجنرالَ بيرتران أن الحكومة البريطانية تذمّرت من التكاليف الباهظة التي تتكبدها للحفاظ على نابليون والإنفاق على إقامته ومن معه (٥١ شخصا)[١٣]. وكانت الحكومة قد سمحت بمبلغ ٨٠٠٠ جنيه إسترليني سنويا لهذا الغرض، لكن المصاريف الفعلية بلغت ١٨,٠٠٠ جنيه إسترليني في العام الأول واقترحت الحكومة البريطانية أن أي مبلغ يزيد – بعد ذلك – عن ٨٠٠٠ جنيه لابد أن يدفعه نابليون. فأمر الإمبراطور مونثولو أن يبيع الفضة الإمبراطورية وعرض أن يدفع المصاريف الزائدة إذا وافق لو على ألا يَفُض خطاب نابليون لمسئوله البنكي في باريس، ولم يستجب لو Lowe. وأرسلت أسرة نابليون له عروضا بتقديم الأموال له فشكرهم ولكنه قال إنه سيضع ذلك في اعتباره، وعرضوا عليه أن يأتوا للإقامة معه فمنعهم قائلا إنهم لن يتحملوا المناخ ولا العزلة طويلا. وفكر لو في تيسير الموقف برفع المخصصات إلى ١٢٠٠٠ جنيه استرليني[١٤]، لكن مناقشاته حول النفقات أحنقت نابليون. وعندما زاره (لو) مرة أخرى (١٦ يوليو ١٨١٦) قال له نابليون (على وفق ما ذكره للا كاس) محرقا كل الجسور بينهما «أتسمح لي أن أقول لك عن رأينا فيك؟ إننا نعتبرك قادراً على كل شيء... نعم كل شيء. إنني لن أشكو من هؤلاء الذين أرسلوني إلى سانت هيلانا، وإنما من هؤلاء الذين جعلوك حاكما عليها. إنك مصيبة حلّت بنا، مصيبة أبشع من كل ما تسببه لنا هذه الصخرة المرعبة من بؤس[١٥]».

يقول لا كاس: «إن الإمبراطور ذكر أنه أزعج مرارا السير هدسون لو في أثناء المناقشة. «لقد كنت متعكر المزاج تماما. لقد أرسلوا إلي أكثر من سجان. إن السير هدسون لوجلاّد بكل معنى الكلمة... ولابد أن يكون غضبي قد ازداد بقوّه لأنني كنت أشعر باهتزاز ربلة ساقي (بطة ساقي) اليسرى[١٦]».

وسيطر السير هدسون على نفسه وانسحب، ولم تجر بينهما أية مناقشات بعد ذلك.

٣- الرفاق العظماء

إن الجانب المثير والداعي إلى الدهشة في حياة الحبس هذه هو الإخلاص الدائم والعميق لهؤلاء المساعدين الذين صحبوا نابليون إلى سانت هيلانا. ومن المفترض أن عطر الشهرة المُسْكر قد حفزهم على المزيد من خدمته، لكن إصرارهم على هذا ومثابرتهم عليه رغم قيود المنفى وحنينهم إلى وطنهم، يكاد يضفي على ذكراهم طابعا أسطوريا Arthurian Legend، فهم قد واصلوا إخلاصهم بل وتعاركوا متنافسين على خدمة الإمبراطور، رغم المناخ القاسي المسبب للإحباط، ورغم حاكم الجزيرة غير المقبول منهم. لقد كان إخلاصهم نبيلا رغم الغيرة.

وكان أنبلهم جميعا هو الكونت هنري - جراتيا بيرتران Henri - Gartien Bertrand (١٧٧٣ - ١٨٤٤). لقد دخل التاريخ كمهندس في أثناء معركة نابليون الأولى في إيطاليا. وفي الحملة الفرنسية على مصر قاد كتيبة في معركة الأهرام، وجُرِح في أثناء معركة أبي قير، وكانت الجسور التي أقامها على الدانوب في معركة ١٨٠٩ تُعد على وفق تقدير نابليون من أجمل الكباري (الجسور) منذ عهد الرومان[١٧]. وفي سنة ١٨١٣ تم تعيينه مارشالا لحراسة القصر. وظل مواليا لنابليون خلال الأعوام المريرة التي انسحب (تراجع) فيها نابليون أمام الحلفاء، وصحبه إلى إلبا وظل معه طوال المائة يوم (بعد العودة إلى فرنسا) وركب معه إلى روشفور وأبحر معه إلى إنجلترا وسانت هيلانا. وظل في سانت هيلانا مارشالا لمحل الإقامة، يُعاين الزوّار ويهدِّئ الغِضاب ويلطِّف الجو بين نابليون وحاكم الجزيرة، وتحمل بصبر متسامح **محاولة اغتصاب زوجته**[*][١٨]. لقد كانت إنجليزية مخلّطة (كيرول) ابنة أخ اللورد ديلون Dillon وتمت بصلة قرابة لجوزفين. وتحملت عزلتها بصبر نادر في سانت هيلانة تاركة الحياة الاجتماعية في باريس. وقد صحبها بيرتران عائداً بها إلى فرنسا بعد موت نابليون بخمسة أشهر، وكتب ثلاثة مجلدات عن يوميات سانت هيلانا ولكنه رفض

(*) يذكر بيرتران في يومياته تحت يوم ٢٦ أبريل ١٨٢١: «الإمبراطور أجاب [وفقاً لما ذكره مونثولو لمدام بيرتران]: إنني أمقت رفضها أن تكون خليلة لي.. لن أسامح أبداً الدكتور أنتومارشي لأنه أحضر إمرأة رفضت أن تكون خليلتي». لكن عندما قال نابليون هذا لم يكن قد بقي من حياته سوى عشرة أيام (أي مات بعد عشرة أيام) وربما يكون قد فقد شهوته للجماع. وقد لاحظ بيرتران أنه في اليوم نفسه كان يبدو - تباعاً - وقد فقد ذاكرته.

نشرها. وقد تمّ فك رموزها وتم نشرها (١٩٤٩ – ١٩٥٩) بعد قرن من وفاته؛ وقد دفن في سرداب مقبرة المحاربين القدماء بجانب رفات نابليون.

ويكاد يضارعه في إخلاصه لنابليون الجراح الأيرلندي بري أوميرا Barry O' Meara (١٧٨٦ – ١٨٣٦). لقد كان – باعتباره طبيبا على متن السفينة نورثمبر لاند – يعود نابليون ويتحدث معه بالفرنسية والإيطالية، وكان متفقا معه إلى حد ما في آرائه عن الأطباء، وارتبط به ارتباطا شديدا حتى إنه طلب الإذن من الحكومة البريطانية أن يظل يرعى نابليون طبيا في سانت هيلانا، فوافقت الحكومة على ذلك. ولم يكن السير هدسون لو موافقا على هذه العلاقة الحميمة بين الطبيب البريطاني والمجرم الفرنسي (نابليون) وشك في أن الطبيب أوميرا يشارك في خطة لتمكين نابليون من الهرب، وأصر (أي الحاكم) على تعيين جندي ليصحب هذا الطبيب الجراح أينما ذهب فاعترض أوميرا، فعمل (لو) على أن يتم استدعاؤه إلى بريطانيا (يوليو ١٨١٨) وفي سنة ١٨٢٢ نشر أوميرا كتابه (نابليون في المنفى أو نداء من سانت هيلانا،) وهو دفاع مشبوب بالعاطفة يطالب فيه بمعاملة أفضل للإمبراطور الذي سقط. وحقق هذا الكتاب ذو المجلدين مبيعات كبيرة فبدأت موجة من التعاطف البريطاني مع نابليون. ويحتوي الكتاب على بعض الأخطاء[١٩] لكن لا كاس دافع عن رواية أوميرا، وكان كل المحيطين بنابليون يكنون لأوميرا احتراما كبيرا كطبيب وكإنسان مهذب (جنتلمان).

أما إخلاص الكونت عما نويل – أوجسطين – ديودونيه دي لا كاس - Emmanuel Augustin - Dieudonne de Las Cases (١٧٦٦ – ١٨٤٢) والأحداث الكثيرة التي شهدها وكتابه متعدد المجلدات عن ذكريات سانت هيلانا Mēmorial de Sainte - Hélène – فتجعله في المقام الثاني بعد نابليون ولو Lowe في النزاع الشخصي الذي جرى في الجزيرة. لقد كان نبيلا صغيرا (المقصود ليس من طبقة النبلاء العليا) حارب في جيش كونديه Condé ضد الثورة، وهاجر إلى إنجلترا وانضم إلى محاولة بعض المهاجرين (الذين تركوا فرنسا عقب أحداث الثورة الفرنسية) لغزو فرنسا عند كويبرو Quiberon وفشلت المحاولة فعاد إلى إنجلترا وراح يكسب معيشته بتدريس التاريخ. ولقد وضع الأطلس التاريخي الذي

حظي في وقت لاحق بتقدير نابليون الشديد. وغامر بعد ١٨ برومبير Brumière بالعودة إلى فرنسا، وانتهى إلى أن نابليون هو أحسن دواء للثورة وراح ينتهز كل الفرص للعمل في خدمته فترقى ليصبح عضوا في مجلس الدولة، ولم تطفئ معركة واترلو من حرارة إعجابه بنابليون، فذهب إلى ماليزو لمساعدته وتبعه إلى روشفور وإلى إنجلترا وإلى سانت هيلانا.

لقد كان هو الأقرب إلى الإمبراطور من بين كل رفاقه، فكان هو الأكثر حماسا في تسجيل ما يمليه، وحظي بتقديره الكبير خلال كل العواصف (المشكلات) التي مرت بهم في المنفى. لقد دوّن كل شيء عن نابليون خلا أخطاءه، فلم يكن يعتقد - مثله في ذلك مثل كرومويل Cromwell - في الأخطاء الخالدة (المقصود التي لا تُمحى. وكان تقريره عن ذكريات نابليون وملاحظاته يفيد أنها ليست دقيقة دقة كاملة: «كان الامبراطور يُملي بسرعة، وعادة ما كانت سرعته في أثناء الإملاء تفوق سرعته في أثناء المناقشات العادية، لذا فقد كنت مضطرا لابتداع نوع من الكتابة الهيروغليفية (المقصود المختصرة أو المختزلة) ثم أعود فأمليها بدوري على ابني» أو «كنت أجلس إلى جوار ابني وهو يعيد كتابة ما أملاه الإمبراطور... وكنت دائما أقرأ على الإمبراطور ما كان قد أملاه في اليوم السابق فيقوم بإجراء تصحيحات ثم يواصل الإملاء[٢٠]». وعلى أية حال فإن اللغة التي عبّر بها لا كاس عن آرائه الخاصة تشبه إلى حد كبير اللغة التي عزاها (نسبها) إلى نابليون حتى إننا لا نستطيع أن نقبل تقريره باعتباره بالنزاهة نفسها التي ظهرت في كتابات جورجو Gourgaud حيث كان يدوّن مباشرة يومياته المفعمة بالحيوية.

ورغبة من لا كاس في إثارة أوربا بسبب الصعوبات التي كان نابليون يواجهها في منفاه كتب عن هذه المشاق والصعوبات على قطعة من الحرير ليرسلها إلى لوسيا بونابرت Lucien عَهِد بها إلى خادم كان على وشك العودة إلى أوربا، إلا أن سلطات الجزيرة فتّشت الخادم واكتشفت الرسالة، فأمر السير هدسون لو بالقبض على لا كاس ومصادرة أوراقه (بما في ذلك مناقشاته مع نابليون) وأمر بترحيله هو وابنه إلى كيب تاون (مدينة الرأس) في ١٥ نوفمبر ١٨١٦ ومن هذا المكان القصي (كيب تون) بدأ الكونت أعواما من الترحال إلى إنجلترا وبلجيكا وألمانيا، وعادة ما كان خاضعا لمراقبة مشددة في أثناء تجواله هذا. وفي

أكتوبر سنة ١٨١٨ قدم لمؤتمر الحلفاء المنعقد في إيكس – لا – شابل Aix - La Chapelle (آخِن Aachen) التماساً من أم نابليون لإطلاق سَراح ابنها، وقدم هو نفسه مناشدات لحكام روسيا وبروسيا والنمسا وإنجلترا للغرض نفسه لكنه لم يتلق ردا. وبعد موت نابليون سُمح له بالعودة إلى فرنسا (١٨٢٢). وحصل من الحكومة البريطانية على مخطوطاته المصادرة ونشرها كلها تقريبا في كتابه «ذكريات سانت هيلانا» (١٨٢٣) فأصبحت هذه المذكرات هي الحدث الأدبي لذلك العام. وقد أثرى لاكاس وورثته من حصيلة البيع. وقد أدت شهادته المتحمسة على المعاملة السيئة – كما اعتقد – التي أدت إلى موت نابليون إلى استمرار نابليون «كأسطورة» وأدت إلى رفع نابليون الثالث إلى سدّة الحكم فاستمر فيه أكثر مما استمر عمّه، كما أدى إلى وصول لا كاس الصغير إلى منصب السيناتور في الإمبراطورية الفرنسية الثانية (أصبح عضوا في مجلس الشيوخ) وكان الرفاق الآخرون غيورين من لا كاس لأنه كان كثير التردد على نابليون وأكثر منهم قربا إليه، ولأن نابليون كان يُكن له مودّة شديدة. وكان أكثرهم ضجراً وغيرة هو الجنرال جاسبار جورجو (١٧٨٣ – ١٨٥٢) الذي كان لديه أسباب كثيرة لهذا، فقد حارب من أجل الإمبراطور في إسبانيا والنمسا وروسيا وفرنسا، وكان قد أنقذ حياة الإمبراطور في برين Brienne. وكان أكثر مَنْ في المنفى حيوية وحديثا، متحمس في صداقته، متحمس في عداوته، وتحدى مونثولو وطلب مبارزته، وكان يحب نابليون ويغار عليه من محبيّه الآخرين. قال نابليون «إنه يحبني كما يحب العاشق معشوقته[٢١]» (بمعنى أنه يغار عليه من الآخرين). ولكي يُعيد نابليون الوئام إلى جماعة المنفى، أرسله إلى أوربا (١٨١٨) حاملا رسالة إلى القيصر إسكندر. ورغم هذا فإن يوميات جورجو (١٨٩٩) Journal inédit de Sainte Hélène هي الأكثر واقعية وفتنة (جمالاً) من بين كل الأصداء التي انبعثت من سانت هيلانا. ولا يكاد الكونت شارل – تريزا دي مونثولو Comte Charles - Trisan de Montholon (١٧٨٣ – ١٨٥٣) يستحق كراهية جورجو لأنه كان أكثر الأربعة المحيطين بالإمبراطور أدباً ولين عريكة. لقد كان لديه ذكريات تدعو إلى الفخر إذ تعلّم الرياضيات وهو في العاشرة من عمره على يد قائد مدفعية شاب اسمه بونابرت، وبعد ذلك تبع نابليون في صعوده وسقوطه وأصرّ على اصطحابه إلى سانت هيلانا،

وكانت زوجته ألبني دي فاسا Albinie de Vassad قد تزوجت وطلقت قبله مرتين، وكان مطلّقاها لايزالان على قيد الحياة، لذلك لم يكن مونثولو واثقاً فيها تماما في أي وقت من الأوقات، وتردّدت إشاعات في سانت هيلانا أنها كانت تساعد نابليون على تدفئة فراشه، وقد تناول المندوبون الروس أمرها بخشونة: «رغم أنها كبيرة السن وفاسقة وسمينة فإنها اليوم خليلة رجل عظيم(٢٢)». وعندما غادرت الجزيرة (١٨١٩) بكى نابليون(٢٣). أما مونثولو نفسه فقد بقي إلى النهاية وشارك بيرتران في العناية بالأسير المحتضر وكان يُسمَّى المنفّذ المشارك لتحقيق الإرادة الإمبراطورية. وعندما عاد إلى فرنسا شارك ابن أخي نابليون في السجن سبع سنين وساعده بعد ذلك ليكون إمبراطورا آخر.

٤- الدكتاتور الكبير

لقد كان العدو اللدود لهؤلاء المنفيِّين هو الوقت وابنه الضجر، فهم رجال كانوا قد أدمنوا العمل وتآلفوا مع الموت، وصاروا الآن وقد أصبحت مهمتهم هي العناية بشخصية عالمية سقط من عليائه الإمبراطورية إلى سجين لا حول له ولا قوة بكل آلامه وأمراضه وضعفه البشري، بل إن نابليون نفسه قال «إن وضْعي مُرْعب، إنني كميّت حي(٢٤)» أو كميت لازالت رغباته موجودة، فالبطل الذي كان فيما سبق يتطلع إلى مزيد من الوقت لمواجهة مهامه التي اختارها أو لينفذ خططه، أصبح يشعر الآن أن الساعات تمر ثِقَالا، وأصبح يرحب بالليل ليخفف عنه - بالنوم - وطأة الوقت، بل لم يكن الليل حتى ليشفي علّته، فنظراً لقلة العمل وجد صعوبة في النوم فراح يتنقّل من سرير إلى أريكة إلى كرسي، ثم يعود مرة أخرى بحثا عن اللاوعْي (راغباً في الغَيبوبة).

وغالبا ما كان يلعب الشطرنج يوميا، وكان يضجر بانتصاره (في الشطرنج) فلم يكن من ندٍ له يجرؤ على هزيمته (في لعبة الشطرنج) وخلال السنة الأولى في منفاه كان يركب حصانه لعدة أميال يوميا لكنه سرعان ما عزف عن ذلك عندما لاحظ أن بعض الضباط البريطانيين كانوا يراقبونه دوما. وكان يقرأ لعدّة ساعات في اليوم لقد كان دَوْما يحب الكتب، وكان لابد أن يقرأ بعض الوقت حتى في الأيام التي يكون مشغولاً فيها، لقد كان

يأخذ معه مئات المجلدات في أثناء المعارك، بل لقد أخذ معه ٨٠٠ مجلد إلى واترلو (كان من بينها سبعون مجلدا لفولتير[٢٥]). وكان قد جلب معه إلى سانت هيلانا ٤٠٠ كتاب من فرنسا، وعند توقف السفينة نورثمبر لاند في ماديرا Madeira أرسل طلباً للحكومة البريطانية طالباً عدداً من الكتب التعليمية وصلته في يونيو سنة ١٨١٦، ووصلته شحنة أخرى في العام التالي، وأرسل له السير هدسون لو بعض الكتب من مكتبته[٢٦]. وأصبح خبيرا في معارك الإسكندر الأكبر وهانيبعل (هانيبال) وقيصر. وقرأ مرارا درامات كورنيل وراسين بل لقد كان يقرأهما بصوت عال أمام رفاقه ويوزّع عليهم الأدوار. وكان يحب الأدب الإنجليزي وجعل لا كاس يعلّمه المزيد من الإنجليزية ليتمكن من القراءة بها بل والحديث بها. ذكر جورجو «أن الإمبراطور كان دَوْما يتحدث معي بالإنجليزية»[٢٧].

وكان لديه ميزة يتميز بها عن سائر مرافقيه في المنفى: لقد كان يستطيع أن يدمج الحاضر في الماضي بإعادة سرد تاريخ بلاده، وتاريخ نصف أوربا من سنة ١٧٩٦ إلى سنة ١٨١٥، وغالبا ما كان هذا من الذاكرة (كان التاريخ حاضراً في ذاكرته)، ومن وجهة نظر المشارك الرئيسي (في الحدث)، ولم يكن يطيق صبرا على الكتابة لكنه كان يستطيع أن يتحدث. ويبدو أن لا كاس هو الذي اقترح أنه (أي نابليون) بإملائه مذكراته لواحد أو آخر من حاشيته يعطي قيمة وتشويقا لكل يوم يمر. والآن قد لا يجد نابليون في قول دانتي حقيقة ينقصها الكمال: «ليس هناك أكثر مدعاة للألم من تذكر السعادة في أيام الشقاء» فإن ذكريات الأيام السعيدة قد تخفف الأحزان الحالية وإن كانت تعمقها في الوقت نفسه. لقد هتف قائلا: «لقد كانت إمبراطورية جميلة! لقد كان هناك ٨٣ مليون إنسان تحت حكمي – آه إنهم نصف سكان أوربا[٢٨]».

ومن هنا فقد دشّن دكتاتورية جديدة في السفينة نورثمبر لاند واستمر يمارسها على نحو أوآخر في سانت هيلانا طوال أربع سنوات. لقد بدأ بأن راح يعيد على لا كاس رواية معاركه الإيطالية في سنة ١٧٩٦ حيث أدت سرعته الحاسمة وانبهار أوربا إلى أن أصبح (أي نابليون) لازما لفرنسا لزوما لافكاك منه. وعندما لم يصبح لا كاس موجودا بسبب حنق لو Lowe راح الإمبراطور يملي على جورجو، وبعد ذلك على مونثولو، وقليلا على بيرتران

وأحيانا كان يملي على اثنين منهم في يوم واحد. الآن، تحوّل هؤلاء المقاتلون من السيف إلى القلم، فأراقوا أحبارا كثيرة واستهلكوا أوراقا كثيرة لحفظ ذكريات الإمبراطور من الضياع وليصبح اسمه مقبولا حسن السمعة في فرنسا التي أصبحت بوربونية من جديد، وأمام محكمة التاريخ. وسرعان ما تعبوا أسرع مما تعب هو، فقد شعر أن هذه هي فرصته الأخيرة ليدافع عن نفسه في مواجهة الخطباء والبلغاء والصحفيين ورسّامي الرسوم الكاريكاتيرية الذين مكّنوا أعداءَه من تصويره في صورة لا إنسانية بجعله غولاً متعطشا للدماء. وكان نابليون يعلم أنه لا يمكن أن يكون وازعهم لتسجيل أعماله ومذكراته دون مقابل، لذا فقد أعطى لكل منهم الحق الكامل للتصرف في مخطوطته وما تدرّه من عوائد. والحقيقة أن كل مخطوطة من هذه المخطوطات أفاضت - عندما نُشرت - على كاتبها أو ورثته ثروة(٢٩).

ومن الطبيعي أن يُبرز المؤلف أفضل الوجوه مبررا أخطاءه لكن - بشكل عام - كانت هذه المذكرات صحيحة بقدر ما يمكن أن يُتوقع من رجل يدافع عما فعله في حياته. وقد كان نابليون قد تعلم في هذا الوقت أنه ارتكب أخطاء خطيرة في مجالي السياسة والقيادة العسكرية. «لقد كنتُ مخطئا في الاختلاف مع تاليران. لقد كان يمتلك كل ما ينقصني. فلو أنني سمحت له بنفس رضيّة أن يشاركني عظمتي لكان قد خدمني جيدا، ولظللتُ حتى تحين مينتي وأنا أعتلي عرش فرنسا(٣٠)» وقد اعترف أنه أساء تقدير صعوبات غزو إسبانيا، وقهر روسيا. «لقد تسرّعت في الانطلاق من إلبا. لقد كان عليّ أن أنتظر حتى ينفض مؤتمر فينا وحتى يكون الأمراء والملوك قد عادوا إلى بلادهم(٣١)». «لا أستطيع أن أفهم حتى الآن الهزيمة في واترلو(٣٢)». «لقد كنت أتمنى أن أموت في واترلو(٣٣)».

لقد كاد الذين أَمْلى عليهم مذكراته يتعبون، فلم يجدوا وقتا لتدوين مناقشاته إلا بشق الأنفس. وكانت بطبيعة الحال شائقة فمن في عصره يضارعه في مغامراته المثيرة التي شملت ثلاث قارات؟ لقد كان راوية ممتازا يذكر كثيرا من النوادر والطرائف في أي موضوع يتناوله. لقد كان بطريقته الموضوعية (المحايدة) فيلسوفا، وكان يمكنه أن يتحدث بتسامح في أي موضوع بدءا من الزراعة حتى زيوس Zeus(*). لقد قرأ التاريخ وتوسع في قراءته توسعا

(*) زيوس: كبير آلهة اليونان. (المراجع)

جعله يتنبأ بالمستقبل وإن كان في بعض تنبؤاته جنوح عن الصواب. «النظام الاستعماري... انتهى بالنسبة إلى الجميع، انتهى بالنسبة إلى إنجلترا التي تملك كل المستعمرات، وانتهى بالنسبة إلى القوى الأخرى[٣٤]». سرعان ما سيطيح الشعب الفرنسي بعبودية البوربون[٣٥]. سرعان ما ستواصل ألمانيا طريقه الذي بدأه هو (أي نابليون) نحو الوحدة[٣٦]. سيكون القرن التاسع عشر قرن الثورات، فمبادئ الثورة الفرنسية - باستثناء بعض الإسفاف - ستنتصر في أمريكا وفرنسا وإنجلترا، «ومن هذه الدول الثلاث سيغمر النورُ العالَم[٣٧]». «لقد انتهى النظام القديم، وثمة نظام جديد يقوّي من نفسه ولن يتأثلّ قبل حدوث اضطرابات عنيفة[٣٨]» «إن روسيا قوة ستتقدم مندفعة بالتأكيد، وبخطىً واسعة نحو الهيمنة العالمية[٣٩]». وإحدى تخميناته الخاطئة «إن السلطة الملكية في إنجلترا تزداد قوة يوميا... إنها الآن تسير ولا يعوقها عائق نحو السيادة المطلقة[٤٠]» وأخيرا عرض لنا سياسة ولخصها لنا بشكلٍ مُرْضٍ: «لقد أغلقت خليج الأنارشية (المناداة بمبدأ القضاء على الحكومة) وطهرت الطريق من الفوضوية. لقد نقّيت الثورة ووقّرتُ الأُمم ورسخت أقدام الملوك. وضربت المثل وكنتُ القدوة ومددتُ حدود العظمة، وكافأت على كل تميّز.. إن الدكتاتورية كانت ضرورية بكل ما في كلمة الضرورة من معنى. ألن يُقال إنني قمعتُ الحرية؟ لقد كان هذا هو مستهل الحرية. ألن أتّهم أيضاً بأنني كنتُ مولعاً بالحرب ولعاً شديدا؟ لقد كنتُ أنا الذي أتلقّى الهجوم الأول. ألن يُقال إنني كنت أهدف إلى حُكم العالم كله (أن أتربّع على عرش العالم؟) إن أعدائي أنفسهم هم الذين قادوني خطوة خطوة إلى هذا العزم. وأخيرا، أسوف أُلامُ على طموحي؟ لابد أن يُسمح لي بالطموح بلاشك، فطموحي هو أسمى وأنبل أنواع الطموح، بل وربما أسمى وأنبل أنواع الطموح على الإطلاق - إنه الطموح إلى تأسيس إمبراطورية العقل وتكريسها، وإلى الاستفادة الكاملة من كل القدرات والملكات البشرية والتنعّم بها. هنا ربما يشعر المؤرخ أنه مضطر إلى الأسف لأن هذا الطموح لم يتحقق ولم يُكافأ صاحبه عليه... هذا هو كل تاريخي في كلمات قلائل[٤١]».

وفي ٩ مارس ١٨٢١ أدفأ قلبه المحبَط بالتنبؤ برؤيا فخورة: سيظل «خيال الفرنسيين طوال الخمسمائة سنة القادمة عامراً بذكراي. إنهم لن يتحدثوا إلا عن عظمة معاركنا العبقرية. فليكن الله في عون من سيجرؤ على الحديث عني بشكل سيئ[٤٢]».

٥- المعركة الأخيرة

أدت الاضطرابات الداخلية ونقص التدريبات البدنية إلى أن أصبح نابليون شيخا هَرِماً وهو لايزال في سني الأربعين. لقد أدّى إصرار لو Lowe على أن يقوم جندي بريطاني بمتابعة الامبراطور أينما ذهب بحصانه خارج حدود لونجوود إلى غضب الأسير (نابليون) فتحاشى الخروج للتريّض بحصانه أو في عربته. كما أن وجود العسس على مرأى من غرفه جعله يطيل المكث وراء الأبواب المغلقة، كما أدّى عزوفه عن الحياة وأمله ألاّ يطول مقامه في الدنيا إلى سكون وعدم نشاط. لقد كتب بيرتران في سنة ١٨١٨: «مضى مائة يوم منذ... خرج من المنزل» وذكر لا كاس أن الدورة الدموية للإمبراطور كانت تعاني صعوبات[٤٣] إذ انخفض نبضه إلى ٥٥ نبضة في الدقيقة[٤٤].

وفي سنة ١٨٢٠ بدأ العمل في زراعة حديقة، وهاجم مشاكله بشجاعة حربية وانضباط. لقد جنّد كل مستعمرته للعمل في المشروع فسعدوا بالخروج على روتينهم اليومي وانخراطهم في الحفر وجر عربات المزرعة والزرع والري وإزالة الأعشاب الضارة. وبادر السير هدسون لو - في مبادرة ودية منه - إلى إرسال النباتات وأدوات الزراعة لسجينه[٤٥]. وازدهرت الحديقة فسرعان ما أنبتت خضروات طازجة راح نابليون يأكلها ببهجة. وتحسنت صحته بشكل ملحوظ. لكن بعد أن تمّ استهلال محصول الحديقة وساد الطقس السيّئ عاد نابليون إلى كسله قابعا خلف الأبواب.

وسرعان ما عاودته الآلام وحاصرته في جبهات عديدة: آلام في الأسنان، صداع، طفح جلدي، تقيّؤ، دوسنتاريا، برودة أطراف، وساءت قرحته، وداء السرطان الذي تبين أنه مصاب به بعد تشريح جثته، اتضح أنه كان قد بدأ يُسبب له آلاما متواصله[٤٦]. لقد أثرت هذه المعاناة الجسدية في مزاجه بل وحتى في عقله، فأصبح متشائما سريع الهياج، مُحِسّا

بالمرارة، بل إنه راح ينظر لما حققه من فخار وعظمة على أنهما شيء تافه، مستعداً للإساءه سريع التسامح، يَعُد البنسات القليلة ويعطي – برغبته – مبالغ كبيرة[٤٧]. وفي سنة ١٨٢٠ وصف حالته بجزع: «كيف سقطت؟! أنا – الذي كان نشاطي لا حد له. أنا الذي لم أخلد للراحة! أيصبح هذا حالي؟ كسولا بليدا خَدِرا! لقد أصبحت أبذل جهدا لأفتح عيني (لأرفع الجفن عن عيني) لقد كنت في بعض الأحيان معتاداً أن أُملي في مختلف الموضوعات على أربعة أو خمسة من السكرتيرين يكتبون بالسرعة نفسها التي بها أتحدث، لكنني كنتُ وقتها نابليون... أما الآنا فأنا لا شيء.... إنني حي لكنني ميت[٤٨]».

لقد تعاقب عليه عدد من الأطباء المختلفين لكن واحداً منهم لم يمكث معه الفترة الزمنية الكافية لدراسة أعراض مرضه بشكل منهجي أو وضع نظام دائم لعلاجه وطعامه. وكان الدكتور أوميرا O'Meara هو أول أطبائه (في سانت هيلانا) وأفضلهم، لكن مهمته قد أُنْهيت بعد فترة وجيزة. وحل محله طبيبان بريطانيان (ستوكو Stokoe وأرنوت Arnott) وكان كلاهما طبيبا جيدا وصبورا وواعيا، لكن في ٢١ سبتمبر ١٨١٩ اضطرب الأمر بوصول الدكتور فرانسسكو أنتومارشي Antommarchi البالغ من العمر تسعة وثلاثين عاما، وكان يحمل توصية من خال نابليون (الكاردينال فش Fesch) فسمح له الطبيبان الآخران بالعناية به. لقد أجاب أنتومارشي بإسهاب عن سؤال نابليون عما إذا كان الجنرالات أم الأطباء هم الاكثر إفناءً للبشرية أو بتعبير آخر أيهما أكثر ضحايا، إذ كان هذا الطبيب معتزا بنفسه واثقامنها عديم الرحمة إذ عندما اشتكى نابليون من آلام في معدته، وصف له أنتومارشي مُقَيئًا على عصير الليمون، فكادت روحه تخرج لفرط الألم، وظن أنّ السُّم قد دُسَّ له في الدواء، فطرد أنتومارشي ولم يسمح له بالعودة لعلاجه[٤٩]، لكن في غضون يوم أو يومين عاد أنتومارشي بأدويته وقاروراته، وكان على الإمبراطور أن يتحمله رغم أنه (أي الإمبراطور) راح يسبّه ويلعنه بأقذع السباب واللعنات مما لا يُمكن كتابته هنا[٥٠].

وفي نحو منتصف مارس ١٨٢١ لزم نابليون فراشه ولم يعد يغادره بعد ذلك إلا نادرا. لقد كان يعاني من آلام مستمرة لا تكاد تتوقّف فراح أنتومارشي والطبيبان الآخران يهدّئانها بإعطائه جرعات صغيرة من الأفيون على نحوٍ متكرر. وقال نابليون في ٢٧ مارس: «لو

انتهت مهمتي في هذه الدنيا، إني إذن لسعيد. لقد كنتُ أتطلّع للموت في عدة أوقات فأنا لا أخاف الموت(٥١)». وخلال هذا الشهر الأخير من حياته كان يتقيّأ كل الطعام الذي يتناوله تقريبا. وفي ١٥ أبريل كتب وصيته، وفيما يلي قبس منها:

«١- أموت على دين الدين الرسولي الروماني (دين الدعاة الأوائل للمسيحية) الذي وُلدت في أحضانه.... ٢- أريد أن توضع رفاتي على ضفاف نهر السين وسط الشعب الفرنسي الذي أحببته كثيرا. ٣- لقد كان لدي دوما من الأسباب ما يجعلني أسعد بزوجتي الحبيبة ماري لويز. إنني أكِنّ لها لآخر لحظة في حياتي أسمى مشاعر المودّة. إنني أتوسل إليها أن ترعى ابني وأن تحميه من الشِّراك (والمشاكل) التي لا زالت تعكر طفولته... ٥- إنني أموت قبل الأوان مقتولا على يد الحكومة البريطانية The English Oligarchy(٥٢)».

لقد كان لديه ستة ملايين فرنك، كان عليه توزيعها (٣ر٥ مليون + الفوائد)، وكان قد أودعها مع لافيت Laffitte، وكان يعتقد أن له مليونين آخرين عند يوجين بوهارنيه. لقد أوصى بمبلغ كبير لبيرتران ومونثولو ولا كاس، ولكبير خدمه مارشان Marchan وسكرتيره مينيفال Mēneval ولجنرالات آخرين أوأبنائهم وأوقف أشياء مختلفة على عدد كبير من الأشخاص ممن خدموه أو ساعدوه. لم ينس أحدا. كما أوصى بعشرة آلاف فرنك للضابط كانتيلون Cantillon الذي تحمل المحاكمة بتهمة اشتراكه في مؤامرة لقتل اللورد ويلنجتون، وهي التهمة التي بُرِّئَ منها. لقد كان لكانتيلون كثير من الحق لقتل هذا الأوليجارشي (الملكي المؤيد لحكم الأقلية) تماما كما كان لهذا الأخير الحق في أن يرسلني لأهلك على صخرة سانت هيلانا(٥٣)».

وترك في ورقة منفصلة (وصية لابني) ربيع ١٨٢١: «لا يجب أن يفكر ابني في الثأر لموتي، بل الأحرى به أن يتعلم منه درسا. يجب أن يضع في عقله ما أنجزته دون أن ينساه. وعليه أن يكون مثلي فرنسيا تماما. وعليه أن يكافح ليحكم بسلام. وإن كان عليه أن يحاول بدء حروبي التي انتهت بدءا جديدا لا لشيء إلا لمجرد تقليدي، وبدون ضرورة تفرضها هذه الحرب، فإنه ساعتها لن يكون أكثر من قرد (مقلّد). فإن يبدأ أحد القيام بعملي نفسه فهذا يعني أنني لم أنجز شيئا. فالأجدى هو إكمال هذا العمل بإثبات قوّة أساساته (ومؤسساته)

وإكمال الصّرْح الذي وضعت أساسه وتصميمه. فالعمل الذي قمتُ به لا يمكن أن يحدث مرتين في قرن واحد. لقد كنتُ مضطرا لكبح أوربا وترويضها بقوّة السلاح، أما الآن فيجب إقناعها (لابد أن تكون مقتنعة). لقد أنقذتُ الثورة بينما كانت على وشك الموت. لقد طهّرتها من جرائمها وسموْتُ بها فأصبح الشعب الفرنسي يتألق شهرة. لقد أوحيتُ لفرنسا وأوربا بأفكار جديدة لن تُنسى أبدا. عسى أن يرعى ابني البذرة التي وضعتها حتى تُزْهر! عساه يطور كل عناصر الرخاء الكامنة في التربة الفرنسية[٥٤]».

وكان لابد أن تتم الاستعدادات الأخيرة كي يُسْلم الروح. لقد استغرق وقتا طويلا ليصل إلى الايمان الديني (المقصود الكاثوليكي – المترجم) ولأنه كان قد قرأ جيبون Gibbon فقد ظهر أنه يعتبر كل الأديان زائفة (كما ينظر إليها الفيلسوف) لكنه كرجل دولة كان يعتبرها مفيدة[٥٥]. لقد كان قد تحّول للإسلام (النص: الدين المحمدّي) ليربح مصر، وإلى الكاثوليكية ليقبض على زمام الأمر في فرنسا. ولقد عبّر لجورجو بما يفيد إيمانه بالمادية البسيطة: «قل ما تشاء! إن كل شيء مادي (كل شيء مادة) غير أن التنظيم (الاتساق) فيها مختلف، **فهناك ما هو أكثر** اتساقا، وهناك ما هو أقل. عندما أخرج للصيد آمر بفتح أحشاء الأيْل deer فأرى أن ما بداخله هو نفسه الذي بداخلي. وعندما أرى أن للخنزير معدة مثلي، وحصيلة هضم مثلي، أقول لنفسي (إن كان لي روح فإن له أيضا روحاً[٥٦]». «عندما نموت يا عزيزي جورجو نصبح جميعا موتى[٥٧]». وفي ٢٧ مارس (أي قبل موته بستة أسابيع) قال لبيرتران: «إنني سعيد جدا أنني بغير دين. إنني أجد في هذا ترضية (سلوى كبرى)، فأنا لا أضع في اعتباري إرهابا متخّيلا (المقصود عذابا مُنتَظراً) ولا خوفاً من المستقبل[٥٨]». وسأل: «كيف نوائم بين ازدهار الشرّير وعذاب القدّيس مع وجود إله عادل؟ انظر إلى تاليران. إنّه متأكد أنّه سيموت في فراشه[٥٩]».

وكلما اقترب منه الموت بدأ يجد أسبابا للايمان. قال لجورجو: «المجنون وحده هو الذين يعلن أنه سيموت دون اعتراف. هناك الكثير مما لا يعرفه المرء[٦٠]» وكان يشعر؟ أن «الدين» جزء ضروري من «الوطنية»:

«الدين يشكل جزءا من قدرنا. إنه مع التربة والقوانين والعادات يكوّن الكلّ المقدّس

الذي نسميه (أرض الآباء Fatherland) التي لايجب أن نتخلّى عن مصالحها. وعندما طلب مني بعض الثوريين القدامى أيام الكونكوردات (الوفاق مع الكنيسة الكاثوليكية) أن أجعل فرنسا بروتستنطية شعرتُ كما لو أنهم يطلبون مني خلع الجنسية الفرنسية لأصبح إنجليزيا أو ألمانيا(٦١) ».

لذا فقد قررّ بتواضع أن يخضع للطقوس التقليدية التي يتبعها الفرنسي وهو يُسلم الروح، فوجد قسيسا محليا ورتب الأمر لإقامة قدّاس على روحه كل يوم أحد في لونجوود، وراح يجد راحة في عقيدة طفولته وراح يُسلّي أصدقاءه ونفسه بكيفية استقباله في السماء: « إنني أذهب للقاء كليبه (كليبر) وديزيه Desaix ولان Lannes ومسينا Massēna . . . ني Ney. سيأتون للقائي. وسنتحدث عما فعلناه. سنتحدث عن مهامنا مع فريدريك وتورين Turenne وكونديه Condé وقيصر وهانيبال Hannibal(٦٢) » وفي ٢٦ أبريل بلغ به الوَهَن مبلغا كبيرا حتى أنه أطاع الأطباء دون سؤال. وفي هذا المساء راح يهذي مهتاجا للحظة قائلا إنه سيعطي ابنه ٤٠٠ مليون فرنك(٦٣) ». وذكر مونثولو الذي يقيم معه الآن ليل نهار أنه في نحو الساعة الرابعة صباح يوم ٢٦ أبريل قال له بعاطفة جيّاشة: « لقد رأيتُ لتوّى جوزفين الطيبة . . . إنها تجلس هناك، كما لو أنني لم أرها إلا ليلة البارحة. إنها لم تتغير – إنها دائما هي نفسها لا زالت مخلصة لي. لقد قالت لي إننا سنلتقي ثانية، ولن نفترق ثانيةً أبدا. لقد وعدتني، أرأيتها؟(٦٤) ».

وفي ٣ مايو أُجريت له الطقوس الدينية. وفي هذا اليوم انضم طبيبان إلى أرنوت Arnott وأنتومارشي واتفق الأربعة على إعطاء المريض عشر حبات من الكالول Calomel (مُسهِّل) « لقد أدّى هذه الجرعة الكبيرة بشكل غير معتاد من هذا الدواء غير المناسب إلى اضطراب عنيف مرعب مع فقد للوعي . . وظهرت كل علاقات النزيف في الجهاز المعوي(٦٥) ». فمات في ٥ مايو ١٨٢١ وهو يتمتم قائلاً: « على رأس الجيش A la tête de L'armée » وفي ٦ مايو أنهى أنتومارشي فحص الجثة بعد الوفاة بحضور ستة عشر آخرين بمن فيهم سبعة جراحين بريطانيين، وبيرتران ومونثولو. لقد أظهر تشريح الجثة السبب الرئيسي لما كان يعاني منه نابليون: قرحة سرطانية في الفتحة بين المعدة والمعي (البيلورس Pylorus) وثمة قرحة

أحدثت ثقبا بسعة ربع بوصة في جدار المعدة متسببة في نشر التعفّن فيما حولها، وكان أنتومارشي قد شخص العلّة على أنها التهاب كبدي لكن اتضح أن الكبد رغم أنه كان أكبر من المعتاد لم تكن به ظواهر مرضية[٦٦]. واتضح وجود الأكياس الدهنية لا في الجلد فقط وغشاء التجويف البطني وإنما أيضا في القلب وربما كان هذا سببا في بطء نبضاته على نحو غير طبيعي. وكانت المثانة صغيرة وبها بعض الحصوات الصغيرة، وربما كان هذا بالإضافة إلى تشوّه الكلية اليسرى سببا في حاجة الإمبراطور إلى التبول تباعا وربما يفسّر هذا عدم تركيزه بشكل مستمر في أثناء معركة بورودينو Borodino ومعركة واترلو. ولم يسجل أي واحد ممن فحصوا الجثة أي أثر لمرض السيفلس (الزهري) لكن أعضاءه التناسلية كانت صغيرة وبدت ضامرة.

وفي ٩ مايو انطلق موكب كبير يضم السير هدسون لو Lowe لنقل الجثمان إلى مقبرة خارج لونجوود في «وادي جيرانيومز Geraniums» وكان نابليون نفسه قد اختار هذا الموقع، ولُف بالعباءة التي كان يرتديها في معركة مارنجو Marengo ودُفن معه سيفه الذي كان محل فخره وشعار حياته. وظلت جثته في هذا القبر تسعة عشر عاما حتى أحبته فرنسا ثانية فأعادت رفاته إلى بلاده[٦٧].

الفصل الأربعون

وماذا بعد؟

[١٨١٥ - ١٨٤٠]

١- الأسرة:

عاشت أمه بعده خمسة عشر عاما وماتت من عمر يناهز السادسة والثمانين. وتكاد تكون حياتها موجزا للأمومة في مراحلها المختلفة: زوج غير دائم الإقامة في البيت، أطفال كثيرون، أفراح وأحزان، إنجاز وحرمان، فزع ووحدة، دهشة وأمل. لقد رأت كل انتصارات أبنائها، وظلّت ليوم قد يحتاجون فيه إليها. «من يدري غيري، فربما يأتي يوم يتعيَّن عليَّ فيه أن أُقدِّم لكل هؤلاء الملوك؟»(١). لقد ظلّت تعيش باعتدال (بلا إسراف) لآخر عمرها، وكان البابا يحميها ويجلّها، مع أنّ ابنها قد أساء معاملته. وكانت من الناحية العرقية أقوى آل بونابرت وأصحَّهم عقلا.

أما جوزيف - ابنها الأكبر - فكان مُولعاً بالكتب والمال وتزوّج زواجا سعيدا من جولي كلاري Julie Clary وقد أحبه أخوه الإمبراطور وكلّفه بمهام، وخدم جوزيف أخاه (نابليون) بكل قدراته المحدودة، ولجأ إلى أمريكا بعد انهيار الإمبراطورية وعاد إلى أوربا حيث عاش بهدوء في منطقة ريفية بجوار جنوا، ومات في فلورنسا في سنة ١٨٤٤ وهو في السادسة والسبعين من عمره.

أما لوسيا Lucien، فبعد أن ترقى في ظل حكومة الإدارة وبعد أن ساعد أخاه (نابليون) في الإطاحة بها، عارض دكتاتورية نابليون، وتزوّج ضد الرغبة الإمبراطورية، وابتعد عن الصراع من أجل السلطة، وأصبح أميرا باباويا، وأبحر إلى أمريكا فأسرته سفينة بريطانية وتم التحفظ عليه في إنجلترا، ووجد طريقه إلى جانب نابليون في الأيام المائة (بعد عودة نابليون من إلبا) ودافع عنه في المجلسين، وهرب إلى روما بعد تنازل أخيه عن العرش للمرة الثانية، ومات في فيتربو Viterbo في سنة ١٨٤٠.

أما لويس بونابرت فبعد أن تخلّى عن عرش هولندا، وانفصل عن هورتنس Hortense -

عـاش في بوهيـمـيـا والنـمـسـا وإيطاليـا، ومـات قـبل ست سنوات من وصـول ابنه الثـالـث إلى العرش باسم نابليون الثالث.

ونَعِم جيروم بثروته الملكية في وستفاليا، وفشل كجنرال في الشهر الأول في أثناء المعركة مع الروس، وعاد إلى عرشه، وفقده لصالح الحلفاء في سنة ١٨١٣ وحارب ببسالة في واترلو، وكاد يكون آخر فرنسي يغادر ميدان الهزيمة[٢]. وبعد تنازل نابليون عن العرش للمرة الثانية راح ينتـقل من مكان إلى مكان وعـاد إلى فـرنسـا في سنة ١٨٤٧ وشـهـد وصـول ابن أخيه للحكم فأصبح رئيسا للسينات في ظله (في ظل نابليون الثالث) ومات في سنة ١٨٦٠ وهو في السادسة والسبعين من عمره في عصر كان كل عام فيه عامراً بالأحداث.

أما إليزا بونابرت بكيوشي Bacciocchi فكانت أكبر أخوات نابليون وأكثرهن قدرة. لقد لاحظنا نجاحها كحاكمة في توسكانيا المنطقة الإيطالية المتأثرة بالثقافة الهيلينية (الطُرز الأثينية). وعندما تبيّنت أنّ أخاها لا يستطيع مواجهة الحلفاء المتحدين، انسحبت إلى نابلي وانضمت إلى أختها كارولين لمساعدة مورا في الحفاظ على عرشه.

وكان مورا Murat بعد أن قاد قوات الفرسان إلى جانب نابليون في ليبزج (ليبتسج) عاد إلى نابلي ودخل في تحالف مع النمسا (٨ يناير ١٨١٤) وتعهد باستخدام جيشه لصالح الحلفاء ضد نابليون في مقابل أن تساعده النمسا في الحفاظ على عرشه في نابلي. ورفض الحلفاء اعتماد هذه المعاهدة. وعندما هرب نابليون من إلبا، خاطر مورا بكل شيء بمناشدته كل إيطاليا للانضمام إليه لشن حرب استقلال ضد الحكم الأجنبي كله (٣٠ مارس ١٨١٥)، وتركته زوجته (كارولين) وأختها (إليزا) ووجدتا ملجأ لهما في فينا. وهُزِم مورا في تولينتينو Tolentino أمام جيش نمساوي (٢ مايو) وهرب إلى فرنسا ومنها إلى كورسيكا واستعاد فرديناند الرابع عرش نابلي. وبعد معركة واترلو كان مورا قد أصبح رجلا بلا وطن، فعبر من كورسيكا إلى كالابريا Calabria مع حفنة رجال، فتم القبض عليه وحوكم أمام محكمة عسكرية، قضت بإطلاق النار عليه وتم تنفيذ الحكم في ١٣ أكتوبر. وقد وصفه نابليون في سانت هيلانا بما يفيد حبه له، وإن كان حكمه عليه قاسيا لا يرحم: «إنه أشجع الرجال في مواجهة العدو، ولا نظير له في ساحة الوغى، لكنه غبي في كل أفعاله الأخرى

خارج الميدان[٣]».

وكانت بولين (١٧٨٠ - ١٨٢٥) أخت نابليون هي أكثر ذويه جاذبية. لقد كان من نصيبها أن تنشر السعادة والمشاكل لأنها كانت أجمل نساء عصرها، فالرجال الذين رأوها لم ينسوها أبدا، والنسوة اللاتي رأينها لم يسامحنها أبدا. ولم تكن مكتفية أبداً بزوج واحد، لكنها كانت فيما يبدو زوجة محبوبة في أثناء زواجها الأول حيث شاركت زوجها الجنرال ليكليرك Leclerc المخاطر التي تعرض لها ولم تتركه عندما أصيب بالحمى الصفراء في سانت دومنج St. Domingue. وعندما مات (١٨٠٢) عادت إلى باريس، وبعد فترة حداد قصيرة كوّنت ثروة أخرى من الشَّعر تجلّل رأسها، وكانت تستحم بخمسة جالونات من الحليب الطازج يوميا[٤]. وافتتحت صالونا وأسعدت الأزواج بجمالها وأسعدت بعضهم بكرمها. وكان نابليون نفسه مفتونا - على نحو طاهر - بتكوينها فسارع بتزويجها من الأمير الثري الوسيم كاميلو بورجيز Camillo Borghese (١٨٠٣) وفي فلورنسا طلب منها كانوفا أن تتخذ وضع ديانا الصيادة، وكانت بولين ميّالة للموافقة، إلا أنها عندما سمعت أنّ ديانا طلبت من جوبيتر Jupiter أن يهبها عذرية دائمة ضحكت واستبعدت الفكرة. وعلى أية حال فهناك من حثها على أن تتخذ وضع فينوس Venus Victrix وهي شبه عارية، فكثر المترددون على متحف بورجيز (جاليريا بورجيز Galleria Borghese) لرؤية الصورة وكان بورجيز نفسه واعيا بعدم كفاءته فتفرغ لواجباته العسكرية كضابط عند نابليون، وتركها. وراحت بولين تسلّي نفسها بشكل مخزٍ متجاوزة المعايير الأخلاقية، فألحقت بصحتها الضرر لكن ليس من دليل واضح على إصابتها بالسيفلس (الزهري)[٥] وكانت ربة الجمال اللعوب أيضا مثالا للرقة ولم تكن تفوقها في رقتها سوى جوزفين التي راح كل آل بونابرت - ما عدا نابليون - يشنون عليها حرب مستمرة. لقد أعطت بولين بسخاء وكسبت صداقات كثيرة دائمة حتى من بين عشاّقها الذي تخلّت عنهم، وكانت أكثر آل بونابرت ولاءً لنابليون بعد أمّها. لقد خرجت عن طريقها لتقابل أخاها غير السعيد وتواسيه وهو في طريقه إلى فريجو Frejus في سنة ١٨١٤ وسرعان ما تبعته إلى إلبا، وهناك عملت مضيفة له وأنعشت حياته وحياة الجزيرة بحفلاتها ومرحها وحيويتها ومداعباتها. وعندما خرج من الجزيرة في آخر

مغامراته أعطته أجمل قلادة من قلائدها. وعمل مارشان Marchand على انتقالها إلى سانت هيلانا، وكانت تخطط بالفعل لذلك عندما وصلتها أخبار موت نابليون، ولم تعش بعده أكثر من أربع سنوات إذ كان السرطان سببا في موتها[٦] (٥ يونيو ١٨٢٥) وهي في الرابعة والأربعين، وسامحها زوجها على ما ارتكبته من آثام وعاش معها عامها الأخير وأقفل جفنيها عندما ماتت.

وكانت جوزفين قد ماتت (٢٩ مايو ١٨١٤) نتيجة إصابتها بنوبة برد حادة بينما كانت تستقبل القيصر إسكندر في ماليزو[٧]. أما ابنتها هورتنس دي بوهارنيه (١٧٨٣ - ١٨٣٧) فبعد انفصالها عن لويس بونابرت عاشت في كنف الإمبراطور ثم تحت القيصر في وقت لاحق. ولم تعش حتى ترى ابنها وقد اعتلى العرش باسم نابليون الثالث. أما أخوها يوجين فقد ظل مخلصا لنابليون (الذي تبناه) حتى اعتزاله العرش للمرة الأولى، وبعد ذلك بخمسة أعوام تراجع مع زوجته إلى ميونخ حيث استقبله أبو زوجته ملك بافاريا بترحاب. وعندما مات هناك (٢١ فبراير ١٨٢٤) وهو في الثالثة والأربعين من عمره، كان كل الفرقاء مجمعين على احترامه.

أما ماري لويز، فقد أخذوها من فرنسا على غير رغبتها وجرى استقبالها في فينا كأميرة لم تخطئ (في حق بلدها) فتم إنقاذها من الانتقام الذي حل بآل بونابرت. وسمح لها بالاحتفاظ بمينيفال كمرافق لها فبذل كل جهده لمواجهة التأثيرات التي كانت تقع عليها يوميا لنزعها من إخلاصها لنابليون. ويخبرنا مينيفال أنها في أثناء أسابيعها الخمسة في فينا تلقت عدة خطابات من زوجها لم تجد وسيلة لإرسال الرد عليها لكنها كانت تأمل أن تنضم إليه في إلبا، وإن لم تُظهر هذا الأمل لمن حولها[٨]. ولخوف أبيها أن تتدهور صحتها في فينا التي تستعد لمؤتمر الحلفاء المنتصرين أرسلها للاستحمام في إيكسلز بينز Aix-les Bains وفي أول يوليو سنة ١٨١٤ عيّن الكونت آدم فون نيبرج Von Nieberg هناك ليكون مساعداً لها في أمورها. ورغم أنه كان في التاسعة والثلاثين ولم تكن هي قد تجاوزت الواحدة والعشرين فقد ادى اقترابه منها إلى أن قبلته عاشقا عندما بدت لها كل فرص العودة لنابليون وقد تلاشت. وفي سنة ١٨٥١ أنعم عليها مؤتمر فينا بدوقيات بارما، وبياسنزا

Piacenza وجواستالا Guastalla، فصحبها نيبرج Niepperg وشاركها في الحكم. وفي سنة ١٨١٧ ولدت له طفلة. وعلم نابليون بهذا في سانت هيلانا لكنه لم يُزح صورتها المعلقة على جدار غرفته في لونجوود، وذكرها في وصيته - كما رأينا - بود، وبعد موت نابليون تزوجت نيبرج وعاشت معه على ما يبدو بإخلاص حتى موته في سنة ١٨٢٩. وتزوجت مرة أخرى في سنة ١٨٣٤ وماتت في سنة ١٨٤٧. وإذا وضعنا الظروف المحيطه بها، فإنها تبدو امرأة صالحة لا تستحق إهمال ذكرها.

أما ابنها من نابليون المسمّى «ملك روما» (وهو اللقبَ التقليدي لوارث الإمبراطورية الرومانية المقدسة والعقاب الشاب Aiglon) فقد تم فصله عن أمّه عند مغادرتها باريس وأعيد تعميده باسم دوق رايخشتادت Duke Reichstadt وأصبح في بلاط فينا لينشأ في ظل تقاليد الهبسبرج وتحت إشرافهم الكامل. وظل مخلصا لذكرى أبيه وراح يحلم أن يستعيد مملكته يوما، وكان يعاني من المرض الذي عاوده مرارا، ومات بالسل في قصر شونبرون Schonbrunn في فينا في ٢٢ يوليو ١٨٣٢ وهو في الواحد والعشرين من عمره.

٢- العودة إلى رحاب الوطن

حتى وإن تلاشت ظواهر الأحداث من ذاكرة الفرنسيين فإن صورة نابليون نفسه أخذت شكلا حيا جديدا في ذاكرتهم وخيالهم. فكلّما التأمت الجروح بفعل الزمن، وكلما تم تعويض الملايين الذين ذهبوا للحرب ولم يعودوا، فامتلأت الحقول والدكاكين من جديد، وزاد عدد أفراد الأسر، بدت صورة عصر نابليون أكثر تألقا وبطولة بشكل لا مثيل في التاريخ المدني (أي بصرف النظر عن الوقائع الدينية في التاريخ). إننا نجد - بادئ ذي بدء - أن الجنود القدماء راحوا يتذكرون أعمالهم البطولية ومآثرهم وينسون معاناتهم. لقد راقت لعيونهم انتصارات نابليون وقلما كانوا يلومونه لهزيمته. لقد أحبوه ربما كما لم يحب جنود قائدهم في وقت من الأوقات. لقد أصبح رامي القنابل المعمّر الذي حارب مع نابليون هو حكيم قريته تخلّده آلاف القصائد والحكايات والأغاني. ففي القصة الشعرية التي تحمل عنوان (العَلَم القديم Le vieux Drapeau) ومئات غيرها وجدنا Pierre de Beranger (١٧٨٠

ـ ١٨٥٧) يمجدّ نابليون ومعاركه ويهجو النبلاء المستبدين والأساقفة النَّهِمين لتملّك الأراضي لدرجة أحنقت حكومة البوربون فسجنته (١٨٢١ ـ ١٨٢٨) وكتب فيكتور هوجو Hugo قصيدته (Ode to the Column) يحتفي فيها بعمود فيندوم Vendôme ودلالته التاريخية متوجاً بتمثال نابليون الذي أُزيح سنة ١٨١٥ ثم أُعيد سنة ١٨٣٣ . أما بلزاك Balzac في عمله (طبيب المعركة) (١٨٣٣) فقد صوّر لنا بشكل مُفعم حيوي جندياً محنّكا غيورا يشجب البوربون لإصدارهم تقريرا يفيد أن نابليون قد مات. « هذا لم يحدث، فالعكس هو الصحيح فمن المؤكد أن نابليون ما زال حيا، وأنه كان ابنا لله(*) جعله أبا للجنود[٩] » . أما ستندهال Stendhal فلم يكتف بأن بث في رواياته مديحا لنابليون، وإنما أصدر في سنة ١٨٣٧ كتابه حياة نابليون يلخص لنا فحواه (فحوى كتابه) في المقدمة حيث يقول: « ليس في قلبي حب إلاّ لنابليون » وقال عن نابليون « إنه أعظم من عرفته البشرية منذ قيصر[١٠] » .

وربما قبل نابليون هذا الإطراء مع شيء غير مؤكد بالنسبة إلى قيصر (دكتاتور روما القديمة)، فلم يكن نابليون ليفقد الأمل في أن تعود فرنسا إلى أيامه (أيام قيصر) . وكان نابليون قد راح يعزّي نفسه في منفاه بأن يؤدي امتعاض الفرنسيين بسبب نفيه وسجنه إلى أن يصبحوا مخلصين له ثانية . لقد قال لأوميرا: « ستكون هناك ردّة فعل لصالحي بعد أن أرسلوني للمنفى . إن استشهادي (كوني ضحية) هو الذي سيعيد تاج فرنسا لأسرتي . . . قبل انقضاء عشرين سنة عندما أكون قد وُوريتُ الثرى، سترى ثورة أخرى في فرنسا[١١] » . وقد تحقَّقت النبوءتان .

ومن هنا فقد أملى مذكراته لتبقي على صورته حية، وقد حقَّقت أغراضها جيدا . وقد تم تهريب مذكراته عن معركة واترلو التي أملاها على جورجو من جزيرة سانت هيلانا، وتم نشرها في باريس سنة ١٨٢٠، وذكر لنا لا كاس أن نشرها كان نبأ مثيرا وأنه أحدث ضجة[١٢] . وفي عامي ١٨٢١ ـ ١٨٢٢ صدرت في فرنسا ستة مجلدات أخرى من سيرته

(*) يشبهه بالمسيح على وفق بعض العقائد المسيحية (ابن الله)، ومن المفهوم طبعا أن المسلمين يؤمنون بإله واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ومن المفهوم أيضاً أن عدداً لا باس به من المسيحيين الآن يؤمنون بهذا أيضاً. (المترجم)

الذاتية. وسرعان ما شقّت مذكرات وحكايات الإمبراطور طريقها ولعبت دورا كبيرا في تعديل «الأسطورة» (أي صورته بين الناس) وجعلته وهو ميت، قوة حيّة في فرنسا.

وأصبح رفاقه هم رُسُله apostles (أي حواريوه وفي هذا تشبيه له بالمسيح، والرسل في المفهوم المسيحي هم الدعاة الأوائل للمسيحية - المترجم)، ودافع عنه أوميرا بشجاعة (١٨٢٢) في عقر دار ألد أعدائه، ودافع عنه لا كاس وجعله بلا أخطاء في كتابه ذي المجلدات الأربعة (١٨٢٣)، ذلك الكتاب الذي أصبح إنجيلا لعقيدة جديدة مُلهمة. ولم يظهر تقرير الكونت دي مونثولو الموسّع حتى سنة ١٨٤٧، كما لم يظهر تقريرا جورجو، وبيرتران إلابعد موتهما، لكن في هذه الأثناء كانت شهادتاهما الحية تغذيان هذا الايمان (بنابليون)، وراح مونثولو يذكرنا بتوجيهاته لابنه وهو - أي نابليون - على فراش الموت مُضْفيا الفضائل على الماضي الإمبراطوري: الحذر والاعتدال والحكم الدستوري وحرية الصحافة وانتهاج سياسة السلام مع العالم والآن أتى دور النصيحة المناسبة: «دعو ابني يقرأ التاريخ ويتأمله، فالتاريخ هو الفلسفة الوحيدة الصادقة[١٣]».

وحتى في شهادة رفاقه المخلصين فإن الإمبراطور العظيم رغم متاعبه وآلامه وحبسه ومرضه وزيادة أخطائه بحكم كبر سنه، بدا الناس رغم كل هذا وقد نسوا كل هذا وركزوا على انتصاراته الحربية وتراثه الإداري وحدّة ذهنه. لقد كان في الواقع قد تبّرأ من معظم الثورة، فاستبدل الاستبداد بالحرية (أي ترك الحرية وأخذ بالاستبداد) وأحل الارستقراطية محل المساواة والنظام محل جماعات الإخاء (الأخويات)، لكن في صورته الجديدة المعدّلة أصبح مرة أخرى ابنا للثورة واليعاقبة الذين كانوا في وقت من الأوقات أعداءه المضْطهدين، أما الآن فإنهم يتحلّقون حول ذكراه. وفي الوقت الذي كان فيه نابليون ينقّي سجله ويكفّر عن ذنوبه بما لاقاه من عقاب، كان حكم البوربون الذين حلّوا محله يفقد بريقه، ويقل إقبال الفرنسيين عليه رغم قبولهم إياه في البداية. لقد كان لويس الثامن عشر نفسه رجلا معقولا تأثر بالتنوير لكنه كان قد سمح أن يسيطر الملكيون على حاشيته، وكان هؤلاء الملكيون غير متسامحين في شيء، ويطالبون بكل شيء بما في ذلك عقاراتهم ومزارعهم القديمة بل ويطالبون بحكومة لا تقيدها مؤسسات التمثيل النيابي. وَوُوجهت المعارضة (بإرهاب

أبيض) من الجواسيس والمطاردين، وبالإعدام السريع. ولم يكن الجنود القدامى بمستطيعين نسيان مطاردة ني Ney وإطلاق الرصاص عليه، وكان الجيش لا يزال يذكر بإعزاز نابليون (ذا الجسد الضئيل) الذي كان يتحدث بلا كلفة مع المجنّدين حول النيران الموقدة للتدفئة في المعسكرات، فنابليون هذا قد رقّاهم دون نظر إلى طبقاتهم ودون تأخير بيروقراطي، وكان « جيشه العظيم » فخراً لفرنسا ورعبا للملوك (أعداء فرنسا) . وتذكر الفلاحون أن نابليون حماهم في مواجهة مطالب النبلاء والإكليروس. وكانت البروليتاريا قد انتعشت في ظل حكمه، وكانت الطبقة الوسطى قد حققت ثروة وحظيت بالمكانة الاجتماعية. وشعر ملايين الفرنسيين أنه رغم أوتوقراطيته (ممارسته حكم الفرد) فإنه حافظ على أساسيّات الثورة: نهاية الإقطاع وعوائده ورسومه المرهقة، فتح الطريق للتقدم والترقي أمام كل الطبقات دون استثناء، المساواة أمام القانون، تسيير أمور العدالة بناءً على قوانين واضحة ومكتوبة موحّدة على مستوى الأمة. وعلى هذا فبعد عشرين عاما من وفاته ، وُلد نابليون من جديد وراح من جديد يسيطر على عقول الناس وخيالهم. كتب شاتوبريان: « العالم مرتبط بنابليون... لقد فشل نابليون في الاستيلاء على العالم وهو حي، لكنه امتلكه بعد أن مات(١٤) » . لقد غذّت المشاعر البونابرتية ثورة ١٨٣٠ المعتدلة. لقد انتهى تسلسل الملك بشكل مباشر في أسرة البوربون بتنحّي شارل العاشر عن العرش، فقد كان الملك الجديد لويس فيليب من الفرع الأورلياني Orleanist للبوربون، وكان ابنا للويس فيليب جوزيف، دوق أورليان الذي كان يطلق على نفسه فيليب إيجاليتيه Philippe Egalité (فيليب مساواة، فالكلمة Egalité تعني مساواة) وكان قد صوّت لصالح إعدام لويس السادس عشر. لقد نَعِم الملك الجديد لفترة بتأييد البونابرتيين ودعْمهم، وقد جعل من شعار الألوان الثلاثة (علم الثورة) رمزا للحكم الإمبراطوري وأمر بإعادة تمثال نابليون إلى قمة عمود فيندوم Vendôme .

وفي هذه الأثناء كانت وصيّة الرجل الميت (نابليون) قد نُشِرت، وبدت الفقرة الثانية منها رغبة إمبراطورية أخيرة: « أرغب في أن أُدفن على ضفاف نهر السين بين الشعب الفرنسي الذي أحببته كثيرا » . وفي كل أنحاء فرنسا راحت ترتفع وتتعالى مناشدات الأمة « أعيدوه إلى وطنه » . دعوا فرنسا تقيم لبطلها الجنازة التي يستحقها مثله. دعوا الرفات

المنتصر (انتصار الرفات – كما أصبح يسمّى) يُزيل عار السجن الكئيب! ووصلت المناشدة إلى الحكومة، ويبدو أن وزير الخارجية الفرنسية لويس أدولف ثييه (ثيير Thiers) هو الذي اقترح على زملائه في الوزارة أن يطلبوا من الملك أن يخاطب بريطانيا العظمى للموافقة على نقل جثة نابليون إلى باريس. وثييه هذا (١٧٩٧ – ١٨٧٧) هو الذي كتب أعظم كتاب عن تاريخ نابليون(*)، وتم انتخابه في سنة ١٨٧١ كأول رئيس في الجمهورية الثالثة. لقد وافق لويس فيليب على مخاطبة الحكومة البريطانية في هذا الشأن لأن ركوبه هذه الموجة قد يُكسبه قلوب الفرنسيين. ولم يكن مجلس الوزراء البريطاني موافقا على رأي زعماء الحكومة لكن اللورد بالمرستون أجاب مباشرة وببراعة: إن حكومة صاحبة الجلالة تأمل أن يكون ردها الإيجابي دليلا تقدمه للشعب الفرنسي على رغبتها في محو آخر أثر للعداوة بين الأمتين، تلك العداوة التي أدت في حياة الإمبراطور – إلى حرب مسلحة بين الأمتين[١٥] » وعَهِد الملك الفرنسي إلى ابنه فرانسو أمير جونفيل Prince de Joinville بالتوجه إلى سانت هيلانا ليعيد رفات نابليون. وفي ٧ يوليو سنة ١٨٤٠ أبحر الأمير من طولون على منَ السفينة (بل بول Belle Paule) وبصحبته الجنرالات؛ بيرتيران، وجورجو، وكونت دي لا كاس ومارشان خادم نابليون الأثير لديه، فهؤلاء هم الذين سيقررن أنَّ الجثّة لنابليون. وصلوا سانت هيلانا في ٨ أكتوبر، وبعد كثير من الإجراءات الرسمية رأوا الجثة بعد إخراجها من القبر وتعرفوا عليها وفي ٣٠ نوفمبر وصلوا بها إلى شيربورج Cherbourg.

وهناك بدأت أطول جنازة في التاريخ. نقول أطول جنازة كحقيقة مؤكَّدة. لقد نقلت الجثة إلى الباخرة نورماندي Normandie التي نقلتها بدورها إلى فال دي لا هاي Val de La Haye على السين إلى الأدنى من الرون Rouen ثم نقلت إلى سفينة نهرية أقيم عليها معبد (مصلّى أو كنيسة صغيرة) يحرسها في أركانها الأربعة كل من بيرتران، وجورجو، ولاكاس، ومارشان، وتحت هذا المعبد (أو الكنيسة الصغيرة) كان التابوت الذي يضم الرفات مُطلاً على نهر السين. وراحت السفينة تتوقف أمام كل مدينة كبرى للاحتفاء على

(*) Historie du Consulat et L'Empire, 19v. (Paris, 1854 - 1862)
تاريخ فرنسا أثناء القنصلية والإمبراطورية.

الشاطىء[١٦]. وعند كوربڤوى Courbevoie (شمال باريس بأربعة أميال) نقل التابوت إلى عربة جنائزية مزيّنة يحفها موكب من الجنود والبحارة وذوي المكانة ليمر عبر نيللي Neuilly وتحت قوس النصر وعلى طول الإليزيه، وكانت الحشود فرحة تصفق[١٧]. وفي وقت متأخر من هذا اليوم اللاذعة برودته وصل الجثمان أخيرا إلى مكانه (القبر) - كنيسة مقابر ضحايا الحرب ذات القبة الرائعة. وغصّ صحن الكنيسة وممشيها بآلاف المشاهدين الصامتين بينما يحمل أربعة وعشرون بحارا التابوت الثقيل إلى مذبح الكنيسة حيث خاطب الأمير دي جونڤيل de Joinville أباه الملك قائلا: «سيدي، لقد أحضرت لك جثمان إمبراطور فرنسا» فأجاب الملك لويس فيليب: «إنني أستقبله باسم فرنسا». ووضع بيرتران سيف نابليون فوق التابوت، وأضاف جورجو قبّعة الإمبراطور، وأنشدت الجموع القداس على روحه بمصاحبة موسيقا موزارت، وأخيرا أصبح رفات الإمبراطور حيث كان يود أن يكون - في قلب باريس وعلى ضفاف نهر السّين.

٣- منظور (زاوية رؤية)

بعد أن نكون قد فرغنا من هذا الكتاب نكون جميعا - المؤلفان والقراء - قد حقّقنا نبوءته - إن العالم سيحيي موته بتنهيدة ارتياح. لقد كان قوّة جرى استنفادها، وظاهرة من ظواهر الطاقة الكافية المتفجرة، طاقة صاعدة حارقة، شعلة ماحقة تلتهم تماما كلّ من يلمسها. إننا لم نجد في التاريخ روحاً أخرى تحرق بهذه الشدّة وعلى طول هذا المدى. لقد كانت إرادته في البداية متردّدة خائفة كئيبة، لكنه سرعان ما اكتشف أسلحتها ومصادرها في ذهن ثاقب وعين فاحصة، فأصبحت إرادة واثقة مندفعة مهيبة كل ذلك مع فهم وإدراك وقوة، حتى حارت الأرباب معه، فربطت إرادات أقل من إرادته قوة لتتحالف معا وتتعقبه وتحاصره وتقيده إلى صخرة حتى تخمد نيرانه. إنها واحدة من أعظم أنواع الدراما في التاريخ، لا تزال تنتظر كاتبا مثل إيسخيلوس(*) ليكتبها.

لكن حتى في عصره كان لديه شخص كهيجل لم تُعمه الحدود فرأى فيه قوة عالمية -

(*) من كتّاب التراجيديا اليونان. (المراجع)

تتحدث من خلالها حتحيّة الأحداث والظروف – لتحيل التفرّق إلى وحدة. والهيولى إلى معنى مؤثّر. هنا – في فرنسا أولا ثم في وسط أوربا – كانت توجد روح العصر Zeitgeist: الحاجة إلى الانضباط والنظام، نهاية الإفراط المدمّر في الحرية الفردية، والإفراط المدمر في تشظّي الحكم (المقصود تقسيم أوربا إلى كيانات سياسية صغيرة يحكم كل منها حاكم). بهذا المعنى كان نابليون قوة تقدميّة، أرسى دعائم الاستقرار السياسي، وأعاد القيم الأخلاقية ونظم الهُويّة وحدّث القوانين ونقّاها وقنّنَها (نظّمها)، وحمى الحياة والممتلكات، وأنهى الإقطاع أو خفّف وطأته، وطمأن الفلاّحين وقدم العون للصناعة، وحافظ على العملة الصحيحة، وطهر الإدارة والقضاء وطوّرهما وشجع العلوم والفنون (لكنه لم يشجع الأدب وقمع الصحافة) وشيّد المدارس، وجمّل المدن وأصلح بعض ما دمّرته الحرب، وبفضل حثّه وَدَأَبِه تقدّمت أوربا في ظرف الخمسة عشر عاما التي حكم فيها تقدماً ما كان يحدث إلا في خمسين عاما.

ولم يكن نابليون هو أقوى قوة في عصره وأكثرها دوما، فقد كانت الثورة الصناعية أقوى منه، فقد جعلت بريطانيا العظمى من الثراء بحيث أمدّت وموّلت كي تُسقط نابليون، وبعدها جعلت هذه الثورة الصناعية من أوربا قوّة فعّالة بحيث سيطرت على الكرة الأرضية ثم إن هذه الثورة الصناعية استطاعت بعد ذلك أن تجعل من أمريكا قارة ذات موارد بما يكفي لإنقاذ أوربا وتعويض ما نقص فيها وما كان يلي الثورة الصناعية في القوة هو الثورة الفرنسية التي بدأت في فرنسا ١٧٨٩ والتي هي بدورها أقوى من نابليون (ابن الثورة) بكثير وأبقى منه بمراحل، فهذه الثورة الفرنسية (١٧٨٩) نشرت تأثيراتها في كل أنحاء أوربا إذ ألغت الروابط الإقطاعية والرسوم الإقطاعية وأحلّت محلها الحقوق الفردية، وجعلت الجياع (المتعطشين) على مستوى العالم يجدون فيها (أي في الثورة الفرنسية أوضح صوت معبرّ عنهم: الجياع للحرية – حرية الحركة والنمو والعمل الاقتصادي والعبادة والفكر والصحافة، والجياع للمساواة – في الفرص المتاحة والتعليم والصحة والعدالة القانونية. هؤلاء الجياع (المتعطشون) المعادون – لما هو قائم أخذوا دورهم في السيطرة على تاريخ الإنسان المعاصر: لقد أصبح التعطش للحرية، والضرر الناتج عن المساواة موضوعين أثيرين تمّ

تناولهما بشكل مستمر في أوربا وأمريكا في القرن التاسع عشر، وأصبح التعطّش للمساواة – على حساب الحرية – جانبا مهيمنا على التاريخ الأوربي والأمريكي في القرن العشرين. فالثورة الفرنسية، والثورة الأمريكية كما فسّرها جيفرسون Jefferson حمَّلت الحرية فوق طاقتها وأفرطت فيها. حَرَّرت الفرد إلى حد إفساد النظام، وحَرَّرت القدرات المتفوقة إلى حد نشوء أزمات متكررة بسبب تكدّس الثروة. وقد قدّم نابليون النظام الذي قمع الفوضى السياسية والاقتصادية والأخلاقية في فرنسا في فترة ما بعد الثورة. وليس هناك نظام يكبح هذه الفوضى في زماننا.

وعندما بالغ نابليون في فرض النظام بعدسلام تيلسيت (١٨٠٧) وأخضع أمور الدولة لإرادة السلطة (القوة) فإنه ساعتها لم يعد يمثل روح العصر. لقد انضم وقتها إلى ملكيات أوربا المطلقة وراح يقلّدها، تلك الملكيات التي كان هو نفسه قد حاربها. لقد حسد الأرستقراطية وحاول إغراءها، تلك الأرستقراطية التي احتقرته وتآمرت لتدميره. لقد أصبح قوة رجعية عندما راحت فرنسا من جديد تَتُوق للحرية وتطالب بالديمقراطية.

ومن سخرية التاريخ أنه بينما كان نابليون في أثناء حياته يعمل على تجسيد حاجة بلاده للانضباط والنظام بعد فترة من الحرية المنفلتة، فإنه أصبح مرة أخرى بعد مماته ابنا للثورة وعدوا للحكم المطلق والأرستقراطية ورمزا للثوار والمتحدث المتمكن المنادي بالحرية (وكان هذا بفضل إعادة صياغة تاريخ حياته، تلك الحياة التي اتخذت طابعا أسطوريا). في سنة ١٧٩٩ كانت الظروف وطبيعته قد جعلتاه دكتاتورا يكاد يكون أكثر دكتاتورية من التاريخ(*)، وبعد سنة ١٨١٥ وسجنه في سانت هيلانا أعاد الخيال العام تشكيله، وكانت إعادة التشكيل هذه أوضح بعد موته ١٨٢١، ليصبح طوال نصف قرن أكثر الدعاة إلى الحرية. لقد ترك لنا عدد قليل من الرجَال العظماء بعد موتهم ما يفيدنا بما كانوا عليه في أثناء حياتهم.

أكان نابليون مثير حرب؟ أكان مسؤولاً عن هذه السلسلة المتعاقبة من الحروب الحاشدة،

(*) ربما يكون المقصود: جعلته الظروف وطبيعته دكتاتوراً أكثر مما حكم التاريخ عليه بالدكتاتورية. النص الإنجليزي: opportunity & character had made him adictator almost larger than history.

وعن هؤلاء الملايين من الشباب الذين قضوا نَحْبهم ولم يستفيدوا شيئا سوى نشوة المعركة وخُدارها، وملايين النسوة اللائي لم يعد إليهن ذووهن؟ فلنسمعه (أي نسمع نابليون). لقد اعترف أنه كان يسعد بالقيادة العسكرية (يسعد بجنرالية) لأنه كان قد تدرب على الفن العسكري ومارسه ممارسة جيدة، لكن كيف كان غالبا ما يتطلّع للخلاص من الحرب لممارسة أحد فنونه الأخرى – الإدارة تحويل الفوضى (الهيولى) السائدة في الحياة إلى نظام فعّال بتأسيس بنية قانونية قوية وقاعدة أخلاقية متينة! كم مرة عرض السلام فووجه بالتسفيه والاحتقار والرفض! لقد رحب به الإيطاليون كمحرّر سواء في عام ١٧٩٦ أو في عام ١٨٠٠. وأعاد النمساويين، ضمّهم (إخضعهم) عندما كان (أي نابليون) في مصر. وهاجمه النمساويون بينما كان مشغولا عند القنال الإنجليزي، وانضمت بروسيا وروسيا إلى هذا الهجوم دون أن يكون قد ألحق بأيّهما ضررا. وهاجمته النمسا مرة أخرى بينما كان يحارب في إسبانيا، ونقضت روسيا عهدها فلم تدعمه في مثل هذا الموقف، وتعهّدت روسيا في تيلسيت أن تُحكم الحصار القاري على البضائع البريطانية وكان هذا الحصار (المضاد) الذي فرضه نابليون هو السبيل الوحيد أمام فرنسا لمواجهة الحصار البريطاني للموانئ الفرنسية، واستيلاء البريطانيين على السفن الفرنسية والمستعمرات الفرنسية. وكان الذهب البريطاني قد موّل تحالفاً إثْر تحالف ضد نابليون حتى عندما جنح أعداؤه الآخرون للسلم، وعاملته الحكومة البريطانية كمجرم رغم تسليمه نفسه طوْعا، بينما كان هو نفسه يعامل ضباط الأعداء المأسورين في أثناء المعارك بمودة وإنسانية. لقد قرر أعداؤه تدميره لأنه وصل للملك بجهده وعمله وليس بالوراثة. وهكذا جرى دفاع نابليون. لقد اتفق المؤرخون الإنجليز (عادة ما كانوا عادلين) والمؤرخون الألمان (عادة ما كانوا دقيقين) وكثير من المؤرخين الفرنسيين (عادة ما كانوا وطنيين) مثل ميشليه Michelet ولانفري Lanfrey وتين Taine وليفيبفر Lefebvre – على إدانة الكورسيكي. لقد اغتصب العرش إذ استفاد من اعدام لويس السادس عشر وانهيار حكومة الإدارة الفاسدة ليستولي على عرش هو حق للويس الثامن عشر. مثل هذا الاغتصاب لا يمكن التسامح فيه طالما كان يقلقل الاستقرار السياسي العزيز على كل أمم أوربا. ولم تكن مطالباته بمؤتمرات سلام تؤخذ على محمل الجد طالما كان

الحلفاء يرفضون الاعتراف بأمور يرونها غير محتملة كالاعتراف بالسيادة الفرنسية على سويسرا وإيطاليا، وفي وقت لاحق على كونفدرالية الراين. وشجعته مهارته الحربية على شن الحرب لذا فقد كان سيفاً مصلتاً لا على توازن القوى المطلوب لتحقيق السلام فحسب وإنما على النظام السياسي الأوربي كله، وأدت غرامات الحرب الباهظة التي فرضها بعد انتصاراته إلى أن أصبحت الحكومات المهزومة غير قادرة على تمويل أية حركة مقاومة لحلمه الخيالي، ألا وهو توحيد كل أوربا تحت السيادة الفرنسية وفي ظل قوانين المدوّنة القانونية النابليونية، فاضطرت هذه الحكومات المهزومة إلى أن تقبل راضية الإعانات المالية التي قدّمتها لها الحكومة البريطانية. وكان الاستيلاء على المستعمرات الفرنسية كوسيلة لإعادة فرنسا إلى وعيها متفقاً مع ما جرى عليه العرف بين الحكومات في حروب القرن الثامن عشر. أكان يمكن لحكومات كاثوليكية - كحكومة النمسا - أن تكون في ظل ملحد لا يخفي إلحاده (المقصود معاد للكاثوليكية) كان قد اضطهد بقسوة البابا الذي مسحه بالزيت (كرّسه) والذي لا يملك سلاحاً سوى تقواه؟ وقد عامل الحلفاء نابليون بكرم بعد تنازله عن العرش للمرة الأولى إلا أنه بمغادرته إلبا نقض الاتفاق فأجبر أوربا على إنفاق الملايين من عوائدها والآلاف من أرواح أبنائها لقمعه وأسره، واكتفت إنجلترا وحلفاؤها بعزله بعيداً من مكان يستحيل معه أن ينطلق مرة أخرى لتحطيم السلام في أوربا.

قلما تكون الحقيقة بسيطة، فغالباً ما يكون لها يد يمنى وأخرى يسرى وغالباً ما تمشي على قدمين. أكان هناك - منذ أشوكا Ashoka - حرب كبرى قدمت فيها أمّة واحدة لقضية أعدائها حلا عادلاً عدالة كاملة؟ يوجد جانب في طبيعة المواطن يجعله يؤمن بأن الله شريك في حروب بلاده. (يحارب في صف بلاده). ليست هناك دولة مهما كبرت ومهما قويت يمكنها أن تحل المشكلة لأن بعض حروبنا الكبرى ذات أبعاد غير حربية (مدنية). إن أفضل سبيل نأمل تحقيقها هو أن نحث مزيدا من الرجال والنساء على تقديم نزاعاتهم إلى محكمة دولية أو عصبة أمم دولية، لكن يجب ألاّ نتوقّع أن تقدِّم أمة للتحكيم ما تعتبره مسألة حياة أو موت. فالحفاظ على النفس يظل هو القانون الأساسي للحياة.

في نطاق هذه الحدود، على الفيلسوف أن يعمل على تطبيق بضاعته (أفكاره أو

فلسفته)، إن عليه أن يفهم ويتسامح. إننا نستطيع أن نفهم الإمبراطور فرانسيس الثاني الذي جرّده نابليون من نصف دولته، وطرده من عاصمته الحبيبة إلى نفسه، ومع هذا فقد عاد إليها وظل محبوباً من شعبه، رغم أنه سُلب وتعرّض للإهانة، ونستطيع أن نفهم الكاثوليكي الطيب وقد صدمه أن يُعامل البابا معاملةً سيئة، ومع هذا فقد طلب من الحلفاء في وقت لاحق تيسير ظروف سجن نابليون الذي اضطهد البابا. ونستطيع أن نفهم ممانعة القيصر إسكندر في التضحية بتجارة بلاده بالتزامه بالحصار القاري (المضاد) الذي فرضه نابليون، ونستطيع أن نفهم قرار إنجلترا بالدفاع عن توازن القوى، ذلك التوازن الذي تعتمد عليه لضمان أمنها وحماية نفسها من سيطرة القوى الخارجية عليها. ونستطيع أن نفهم دفاع فرنسا عن الرجل الذي خلص حكومتها وقيمها من الفوضى القاتلة، والذي وسّع حدودها بانتصاراته العبقرية وحقق لها عظمة غير مسبوقة. لا. إن نابليون، هذا الرجل الرائع ليس مجرد غول قاتل مخرّب. حقيقة إن رغبته في السلطة وتوقه إليها، واتساع مدى حُلمه الذي لا يقاوم - كل أولئك قاده إلى أفعاله ومصيره، لقد كان أوتوقراطيا (مؤمنا بحكم الفرد) واثقا من أنه يعرف أفضل مما يعرف مواطنوه، ما هو خير لفرنسا وأوربا. لكنه كان أيضاً رجلا كريما، سريع العفو، حنونا يخفي حنانه، تردّد عدة سنوات قبل أن يطلّق جوزفين، تلك المرأة التي تُقَاد للإثم بسهولة. ويمكننا أن نقول من أجله أنه هو أيضاً قد عانى وكفّر عن ذنوبه، لقد عانى من الأمراض والأطباء وعانى عند تراجعه من روسيا (انسحابه) وعانى في سانت هيلان التي كان فيها ميتاً حياً.

إنه يبقى الشخصية البارزة المميزة في عصره، وبقي منه شيء نبيل ظل باقياً رغم حبه الأناني للسلطة ورغم تعرضه للهبوط بين الحين والحين من سؤدد العظمة إلى الهزيمة. لقد ظنّ نابليون أننا لن نرى مثيلاً له مرة أخرى لمدة خمسمائة عام. إننا لا نتمنّى هذا، بل إنه لأمر طيب (طيب بما فيه الكفاية) أن نتأمل ونعاني - مرة كل ألف عام - في سلطان العقل البشري، مدى قوته، ومدى قصوره.

الحَواشي

حواشي الفصل الخامس والثلاثين

1. Watons, *The Reign of Georges III*, 469; Mistler, *Napoléon et L'Empire*, II, 66.
2. Lefebvre, *Napoleon*, II, 179.
3. Vandal, *Napoléon et Alexandre*, III, 26.
4. Lefebvre, II, 109, 123-26.
5. *Ibid.*, 127-28.
6. Mistler, II, 184-89.
7. *Ibid.*, 185.
8. Vandal, III, 139.
9. *Ibid.*, 34, 39, 597.
10. Kornilov, 195.
11. Caulaincourt, *With Napoleon in Russia*, Ch. I.
12. Méneval, *Memoirs*, II, 808.
13. Vandal, III, 326.
14. *Ibid.*, 2-4.
15. Kircheisen, *Memoirs of Napoleon I*, 195.
16. Letter of Dec. 19, 1811, in Napoleon, *Letters*, 263; Palmer, Alan,*Napoleon in Russia, 31.*
17. Letter of Dec. 20. 1811.
18. Guérard, *French Civilization in the 19th Century*, 76.
19. Edouard Driault, in Geyl, *Napoleon: for and Against*, 311.
20. Caulaincourt, 25.
21. Fouché, *Memoirs*, II, 85 f.
22. Letter of Nov. 1, 1811, in Napoleon, *Letters*, 259-60.
23. Kircheisen, 196.
24. Méneval, III, 894.
25. Taine, *Modern Regime*, 37; Vandal, III, 343.
26. Mistler, II, 202.
27. *Ibid.*, 449.
28. *Ibid.*, 204.
29. Palmer, Alan, *Napoleon in Russia*, 48.
30. *Letters*, 270 (July 14, 1812).
31. Lefebvre, *Napoleon*, II, 314.
32. Herold, ed., *The Mind of Napoleon 205.*
33. *Letters*, 271.
34. *Ibid.*, note, by J. M. Thompson.
35. Palmer, Alan, *Napoleon in Russia*, 81.
36. Kircheisen, 188.
37. Mistler, II, 207.
38. Palmer, Alan, *Napoleon in Russia*, 113.
39. Testimony of Napoleon's Physician in Mestivier, in Delderfield, *The Retreat From Moscow*, 62.
40. Caulaincourt, 152.
41. Lefebvre, *Napoleon*, II, 3.
42. Caulaincourt, 152.
43. Méneval, II, 859.
44. Strakhovsky, *Alexander I of Russia*, 94.
45. Las Cases, III, 167.
46. *Ibid.*, 172.
47. *EB*, XV, 878c.
48. Delderfield, 82.

49. Caulaincourt, 122; Lefebvre, II, 315.
50. *Letters*, 273.
51. Mistler, II, 210.
52. Méneval, III, 865.
53. Caulaincourt, 132; Kircheisen, 199.
54. Palmer, Alan, *Napoleon in Russia*, 177.
55. Caulaincourt, 41.
56. Méneval, III, 871. Kircheisen, 200.
57. Strakhovsky, 138.
58. Caulaincourt, 192.
59. Méneval, III, 887.
60. *Ibid.*, III, 373; Delderfield, 109-11.
61. Palmer, Alan, *Napoleon in Russia*, 221.
62. *Ibid.*, 222.
63. Méneval, III, 874-78; Caulaincourt, 230; Mistler, II, 212.
64. Caulaincourt, 261.
65. Delderfield, 175.
66. Mistler, II, 215.
67. Caulaincourt, 325.
68. *Barlett's Familiar Quotations*, 13th ed., 399.
69. Note to Bertrand, *Napoleon at St. Helena*, 265.
70. Méneval, III, 888.

حواشي الفصل السادس والثلاثين

1. *EB*, XVI, 25a.
2. Strakhovsky, *Alexander I of Russia*, 141.
3. Thiers, *History of the Consulate and the Empire*, VIII, 338.
4. Francke, *History of German Literature*, 492.
5. Thiers, *History of the Consulate and the Empire*, VIII, 435-36.
6. *Ibid.*
7. Caulaincourt, *Memoirs*, II, 213, in Herold, ed., *Mind of Napoleon*, 195.
8. Mistler, *Napoléon et L'Empire*, II, 217.
9. Lefebvre, *Napoleon*, II, 329.
10. Madelin, *the Consulate and the Empire*, II, 214.
11. *Ibid.*, 217.
12. Mistler, II, 221.
13. *Ibid.*, 221-22; Thiers, IX, 130-40; Las Cases, III, 223-24.
14. Thiers, IX, 155; Mistler, II, 222.
15. Kircheisen, *Memoirs of Napoleon I*, 203; Las Cases, III, 278.
16. Mistler, II, 225a.
17. Thiers, IX, 259.
18. Lefebvre, II, 390; Thiers, IX, 267.
19. Thiers, 283.
20. Madelin, II, 258.
21. *Ibid.*, 266.
22. Méneval, III, 952; Madelin, II, 265; Thiers, IX, 353.
23. Thiers, 365.
24. *Ibid.*, 369.
25. Fain, Agathon, *Memoirs of The Invasion of France by the Allied Armies*, 79-81.
26. Mistler, II, 236.
27. *Ibid.*, 239.
28. Fain, 107.

29. Méneval, III, 244.
30. Thiers, X, 139.
31. Mistler, II, 245 ff.
32. Thiers, X, 138.
33. Fain, 271.
34. Bertrand, H., *Napoleon at St. Helena*, 35.
35. Fain, 257.
36. Mistler, II, 249.
37. Mossiker, *Napoleon and Josephine*, 375.
38. Petersen, ed., *Treasury of the World's Great Speeches*, 324.
39. Méneval, III, 1047. Fain, 157.
40. Ortzen, *Imperial Venus*, 157.

حواشي الفصل السابع والثلاثين

1. *EB*, XIV, 346d.
2. Thiers, *History of the Consulate and the Empire*, X, 317.
3. *Ibid.*, 268; Lefebvre, *Napoleon*, II, 360.
4. Brion, *Daily Life in the Vienna of Mozart and Schubert*, 173-68.
5. Thiers, XI; 70.
6. *Ibid.*, 160.
7. Mistler, *Napoléon et L'Empire*, II, 251.
8. *Ibid.*, 253; Rose, *Personality of Napoleon*, 230.
9. Mistler, II, 253.
10. Rose, 332; Goodrich, F., *The Courts of Napoleon*, 363.
11. Rose, 336.
12. Thiers, XI, 170.
13. *Ibid.*, 172.
14. *Ibid.*, 173.
15. Mistler, II, 260.
16. Gourgaud, *Journal, Jan. 4, 1817*.
17. Thiers, XI, 184.
18. *Ibid.*, 196; Mistler, II, 261.
19. Thiers, XI, 199-201.
20. *Ibid.*, 215.
21. Houssaye, Henrie, *La Première Abdication*, 305.
22. Thiers, XI, 235.
23. *Ibid.*, 268.
24. Mistler, II, 276.
25. Lefebvre, II, 363.
26. Thiers, XI, 437-38.
27. Las Cases, IV, 110.
28. Fouché, *Memoirs*, II, 246.
29. Madelin, *the Consulate and the Empire*, II, 412.
30. Houssaye, *1815: Waterloo*, 17.
31. Las Cases, II, 5.
32. Gourgaud, *Journal*, I, 93.
33. Thiers, XI, 481.
34. Byron, Childe Harold's Pilgrimage, III, xxi-xxviii.
35. Houssaye, *1815: Waterloo*, 80-81.
36. Mistler, II, 221.
37. *Ibid.*
38. Houssaye, *1815: Waterloo*, 91.
39. *EB*, XXIII, 286.
40. Longford, *Wellington*, 438.
41. Howarth, waterloo 52, 55-56.
42. Maclaurin, C, *Post Mortem* 224-25.
43. Houssaye, *1815: Waterloo*, 255.
44. Mistler, II, 276.

45. Longford, 472.
46. Madelin, II, 457.
47. Howarth, *Waterloo,* 144.
48. Longford, 472.
49. Kircheisen, *Memoirs of Napoleon I,* 223.
50. Houssaye, *1815: Waterloo,* 212.
51. *Ibid.,* 221.
52. Houssaye, *1815: La Seconde Abdication,* 113.
53. Houssaye, *1815: Waterloo,* 216, 224.

حواشي الفصل الثامن والثلاثين

1. Kircheisen, *Memoirs of Napoleon I,* 225.
2. Houssaye, *1815: La Seconde Abdication.*
3. Constant, Benjamin, *Mémoires sur les Cent Jours,* in Houssaye, 40.
4. Letters of June. 19, in *Letters,* 307.
5. Houssaye, *1815: La Seconde Abdication,* 10.
6. *Ibid.,* 61. Mistler, II, 282.
7. Houssaye, 199.
8. *Letters,* 308 (June 25, 1815).
9. Houssaye, 215, 194.
10. Las Cases, I, 15n.
11. *CMH,* IX, 644.
12. Houssaye, 337-41.
13. *Ibid.,* 160-66.
14. Talleyrand, *Memoirs,* introd. by de Broglie, x.
15. Barleet's Quotations, 384.
16. Talleyrand I. x.
17. Lefebvre, *Napoleon,* II, 367.
18. Houssaye, 561.
19. Mistler, II, 285.
20. Houssaye, 396.
21. From a copy of the original in the Royal Library at Windsor.
22. Las Cases, I, 26.
23. Rosebery, *Napoleon: The Last Phase,* Appendix I.
24. Thiers, *History of the Consulate and the Empire,* XII, 305.
25. *Ibid.,* 313.

حواشي الفصل التاسع والثلاثين

1. Kircheisen, *Memoirs of Napoleon I,* 260.
2. Las Cases, I, 262.
3. *Ibid.,* 266n.
4. Las Cases, II, 247; III, 115.
5. Mistler, *Napoléon et L'Empire,* 2929; Rosebery, *Napoleon: The Last Phase,* 172.
6. Las Cases, III, 21.
7. *Ibid.,* II, 4; Rosebery, 152.
8. Las Cases, II, 93.
9. Thiers, *History of the Consulate and the Empire,* XII, 334.
10. *Ibid.,* 335.
11. Las Cases, II, 386.
12. *Ibid.,* III, 139.
13. Rosebery, 109.

14. *Ibid.*, 109; Las Cases, III. 158; Thiers, XII, 338.
15. Las Cases, III, 4.
16. *Ibid.*, II, 139, 177; Rosebery, 89.
17. *EB*, II, 536a.
18. Bertrand, H., *Napoleon at St. Helena*, 201.
19. Rosebery, 49, 93.
20. Las Cases, I, 120; II, 322.
21. Rosebery, 53.
22. Mistler, II, 288c; Bertrand, 249, notes.
23. Bertrand, 248.
24. Kircheisen, 224.
25. Rosebery, 180.
26. Kircheisen, 275 (editor's postscript).
27. Gourgaud, *Journal*, April 23, 1816.
28. Gourgaud, I, 415.
29. Rosebery, 175.
30. Kircheisen, 227.
31. *Ibid.*
32. *Ibid.*, 224.
33. Mistler, II, 8.
34. Herold, *Mind of Napoleon*, 248.
35. CMH, IX, 762; Herold, 66.
36. Las Cases, IV, 107.
37. Herold, 66.
38. Las Cases, IV, 75.
39. Gourgaud, II, 75; I, 567-68; III, 315; Las Cases, IV, 74.
40. Las Cases, IV, 78.
41. *Ibid.*, II, 120.
42. Bertrand, 112.
43. Las Cases, I, 236.
44. Thiers, XII, 370.
45. *Ibid.*, 377.
46. Mistler, II, 320.
47. Gourgaud, I, 150, and *passim*.
48. Herold, *Mind of Napoleon*, introd.
49. MacLaurin, *Post Mortem*, 211-14.
50. Bertrand, 130.
51. *Ibid.*, 124.
52. Las Cases, IV, 400.
53. *Ibid.*, 411.
54. Kircheisen, 269.
55. Gibbon, Edward, *Decline and Fall of the Roman Empire*, I, 250.
56. Gourgaud, II, 440.
57. *Ibid.*, II, 437.
58. Bertrand, 125.
59. Gourgaud, II, 405; Rosebery, 191.
60. Gourgaud, II, 431.
61. Thiers, XII, 366.
62. *Ibid.*, 384.
63. Bertrand, 200, 210.
64. Marquis Charles de Montholon, *Histoire de la captivité de Ste.-Hélène*, II, 103, in Herold, *Mind of Napoleon*, 17.
65. Martineau, Gilbert, *Napoleon's St. Helena*, 215.
66. Bertrand, 235; MacLaurin, *Post Mortem*, 215; Rosebery, 175.
67. MacLaurin, 216.

حواشي الفصل الأربعين

1. Horne, R. H., *History of Napoleon,* II, 55.
2. Méneval, III, 1025.
3. *EB,* XV, 1004.
4. Ortzen, *Imperial Venus,* 69, 92.
5. *Ibid.,* 83.
6. *EB,* III, 900b.
7. Thiers, *History of the Consulate and the Empire,* X, 411; Mossiker, *Napoleon and Josephine,* 339.
8. Méneval, III, 1059.
9. Mistler, *Napoléon et L'Empire,* II, 304.
10. In Geyl, 33.
11. O'Meara, B., *Napoleon in Exile,* 363, 176.
12. Las Cases, III, 179.
13. In Hutt, M., *Napoleon,* 77.
14. Chateaubriand, *Memoirs,* ed. Baldick, 300.
15. Horne, Appendix 2.
16. *Ibid.,* 16.
17. Thackeray, "The Second Funeral of Napoleon," in *Roundabout Papers.*

مراجع المجلد الحادي عشر

(الكتب من ١ إلى ٥)

ACTON, JOHN EMERICH, Lord, *The French Revolution*, London, 1910.

ADAMSON, ROBERT, Fichte. Freeport, N.Y., 1969.

ALTAMIRA, RAFAEL, *A History of Spain*. Princeton. Princeton, N.J., 1955.

-------, *History of Spanish Civilization*. London, 1930.

ARNOLD, MATTHEW, *Essays in Criticism*, First and Second Series. New York: A. L. Burt, n.d.

AULARD, ALPHONSE, *The French Revolution*, 4v. New York, 1910.

-----, *Christianity and the French Revolution*. Boston, 1927.

AUSTEN, JANE, *The Complete Novels*. Modern Library.

-----, *Pride and Prejudice* and *Sense and Sensibility*. Modern Library.

BALCARRES, LORD, *Evolution of Italian Sculpture*. London, 1909.

BARNES, HARRY ELMER, *An Economic History of the Western World*. New York, 1942.

BATESON, F.W., *Wordsworth: A Re - interpretation*. London, 1954.

BEARD, CHARLES, *Introduction to the English Historians*. New York, 1927.

BECKER, CARL, *The Heavenly city of the Eighteenth Century Philosophers*. New Haven, Conn., 1951.

BEETHOVEN, LUDWIG VAN, *Letters*, translated and edited by Emily Anderson, 3v. New York. 1961.

BELL. E.T., *Men of Mathematics*. New York, 1937.

BEELLOC, HILAIRE, *Danton*. New York, 1899.

BENN, ALEFRED W., *History of English Rationalism in the Nineteenth Century*, 2v. London, 1906.

BENTHAM, JEREMY, *A Fragment on Government*. Oxford University Press, 1948.

-------, *Introduction to the Principles of Morals and Legislation*. New York, 1948.

BERNAL, J. D., *Science in History*. London, 1957.

BERRY, ARTHUR, *A Short History of Astronomy*. New York, 1909.

BERTAUT, JULES, *Napoleon in His Own Words*. Chicago, 1916.

Bertand Comte Henri G., *Napoleon at St. Helena*. New York, 1952.

Blake, William, *Poems and Prophecies*. Everyman's Library.

-----, *Selected Poems*. London. 1947.

Boas,George, *French Philosophers of the Romantic Period*. New York, 1964.

Borrow, George, The *Bible in Spain*. London, 1908.

Bourguignon, Jean, *NapoléonBonaparte*, 2v. Paris: Editions Nationales, 1936.

Bourrienne. Louis - Antoine Fauvelet de, *Memoirs of Napoleon Bonaparte*, 4v. New York, 1890.

Bowen, Marjorie, *Patriotic Lady: Emma, Lady Hamilton*. New York, 1936.

Brandes,Georges *Main Currents in Nineteenth Century Literature*, 6v. New York, 1915.

------, *Wolfgang Goethe*, tr. Allen Porterfield, 2v. New York, 1924.

Breed, Lewis, *The Opinions and Reflections of Napoleon*. Boston, 1926.

Brett, G, S, *History of Psychology*. London, 1953.

Brinton, Crane, *The Jacobins*. New York, 1930.

Brion, Marcel, *Daily Life In The Vienna Of Mozart And Schubert*. New York, 1962.

Brockway, W., and H. Weinstock, *Men of Music. New York, 1939.*

------,and B. Winer, *A Second Treasury of the World's Great Letters*. New York, 1941.

Bruckner, A., *A Literary History of Russia*. London, 1980.

Burke, Thomas, *English Night Life*. New York, 1941.

Byron, George Gordon, Lord, *Works*, i-vol. ed. New York: George Leavitt, n. d.

Caird, Edward, *Hegel*. Edinburgh, 1911.

Cambridge History of Poland, 2v. Cambridge, Eng., 1950.

Cambridge Modern History (CMH), Vols. VIII and IX. Cambridge, 1918.

Çameron, Kenneth, N., *The Young Shelley*. New York, 1950.

Campan, Jeanne - Louise. *Memoirs of the Private Life of Marie Antoinette*, 2v. Boston, 1917.

CANOVA, ANTONIO, *Works*, with biographical memoir by Count Cicognara, 2v. Boston, 1876.

CANTON, GUSTAVE, *Napoléon antimilitariste*. Paris, 1902.

CARLYLE, THOMAS, *Critical and Miscellaneous Essays*, 2v. New York, 1901.

------, *The French Revolution*, 2v. New York, 1901.

CASTIGLIONE, ARTURO, *A History of Medicine*. New York, 1941.

CAULAINCOURT, MARQUIS ARMAND DE, *With Napoleon in Russia*. New York, 1935.

CHATEAUBRIAND, FRANCOIS - RENE DE, *Atala and René*. Oxford University Press, 1926.

------, *The Genius of Christianity*. Baltimore: John Murphy, n.d.

------, *Mémoires d'outre - tombe*. Paris, n.d.

------,*Memoirs*, selected and edited by Robert Baldick. New York, 1961.

CLARK, BARRETT H., *Great Short Biographies of the World*. New York, 1928.

COLE, G. D. H., *Robert Owen*. Boston, 1925

COLERIDGE, SAMUEL TAYLOR, *Selected Poetry and Prose*. New York: Random House, n. d.

------, *Biographia Literaria*. Everyman's Library.

COLMER, JOHN, *Coleridge Critic of Society*. Oxford University press, 1959.

CONSTANT, BENJAMIN, *Adolphe*. New York, 1959.

-----,*Journal intime*. Monaco, n. d.

-----,*The Red Notebook*,in Adolphe.

CONSTANT, VERY, *Mémoirs of the Private Life of Napoleon*, 4v. New York, 1907.

CORTI, EGON CAESAR, *Rise of the House of Rothschild*. New York, 1928.

CRONIN, VINCENT, *Napoleon Bonaparte*. New York, 1972.

DELDEFIELD, R. F., *The Retreat from Moscow*. New York, 1967.

DICEY, A. V., *Law and Public Opinion in England during the Century*. London, 1926.

DOWDEN, EDWARD, *Life of Shelley*, 2v. London, 1887.

DUBNOW, S. M., *History of the Jews in Russia and Poland*, 3v. Philadelphia, 1916.

ECKERMANN, JOHANN PETER, *Conversations with Goethe*. London, 1882.

EMERSON, RALPH WALDO, *Representative Men*. Philadelphia: McKay, n.d.

Encyclopaedia Britannica (EB), 24V. Chicago, 1970.

Encyclopaedia Britannica, 24v. New York, 1929.

Encyclopaedia of philosophy, 8v. New York, 1967.

FAGUET, EMILE, *Dix - neuvième Siècle: Etudes Littéraires*. Paris: Boivin, n.d.

------,*Dix - septième Siècle: Etudes et Portraits littéraires*. paris: Boivin, n.d.

FAIN, BARON AGATHON, *Memoirs of the Invasion of France by the Allied Armies (1814)*. London, 1834.

FAY, BERNARD, *Louis XVI*. Chicago, 1967.

FIALA, VLADIMIR, *Russian Painting of the Eighteenth and Nineteenth Centuries*. Artia, n.d.

FICHTE, JOHANN GOTTLIEB, *Addresses to the German Nation*. New York, 1968.

-------,*The Science of Knowledge*. New York, 1970.

-------,*The Vocation of Man*. Chicago, 1925.

FINDLAY, J. N., *Hegel: A Re -examination*. New York, 1962.

FINKELSTEIN, LOUIS, ed., *The Jews: Their History, Culture and Religion*, 2v. New York, 1949.

FISHER, H. A. L., *Studies in Napoleonic Statesmanship: Germany*. Oxford University Press, 1903.

FLORINSKY, MICHAEL T., *Russia: A History and an Interpretation*, 2v. New York, 1955.

FOUCHE, JOSEPH, *Memoirs*, 2v. London, 1825.

FOURNIER, AUGUST, *Napoleon the First*. New York, 1926.

FRANCKE, KUNO, *A History of German Literature as Determined by Social Forces*. New York, 1901.

FRUMAN, NORMAN, *Coleridge, the Damaged Archangel*. New York,1971.

GARDNER, MARTIN, ed., *The Annotated Ancient Mariner*. New York, 1965.

GARRISON, F., *History of Medicine*. Philadelphia, 1929.

GEYL, PETER, *Napoleon: For and Against*. Baltimore: Penguin, 1965.

GIBBON, EDWARD, *History of the Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. Dean Milman. New York: Nottingham Society, n.d.

GILBERT, O. P., *The Prince de Ligne*. New York: McDevitt Wilson, n.d.

GODWIN, WILLIAM, *Enquiry Concerning Political Justice*, 2v. London, 1842.

GOOCH, G. P., *Germany and the French Revolution*. New York, 1966.

------, *History and Historians in the Nineteenth Century*, 2d ed. London, 1952.

GOODRICH, FRANK B., *The Court of Napoleon*. New York, 1856.

GOTTSCHALK, LOUIS R., *Jean - Paul Marat*. New York, 1937.

GOURGAUD, GASPARD, *Journal*, 3v. Paris, n.d.

GRAETZ, HEINRICH, *History of the Jews*, 8v. New York, 1919.

GRAMONT, SANCHE DE, *Epitaph for Kings*. New York, 1968.

GREEN, J. R., *Short History of the English People*, 3v. London. 1898.

GREENLAW, R. W., *Economic Origins of the French Revolution*. Boston, 1958.

GROUT, DONALD JAY, *A Short History of Opera*. New York, 1954.

Grove's Dictionary of Music and Musicians, 5v. New York, 1927 ff.

GUERARD, A. L., *French Civilization in the Nineteenth Century*. London, 1914.

GUICCIOLI, COUNTESS, *My Recollections of Lord Byron*. Philadelphia, 1869.

GUILLEMIN, HENRI, *Napoléon tel quel*. Paris, 1969.

HALEVY, ELIE, *History of the English people in 1815*. New York, 1924.

HANCOCK, A. E., *The French Revolution and the English Poets*. Port Washington, N. Y., 1967.

HAUSER, ARNOLD, *The Social History of Art*, 2v. New York,1952.

HAWKINS, SIR JOHN, *Life of Samuel Johnson*. New York, 1961.

HAZLITT, WILLIAM, *Lectures on the English Poets and The Spirit of the Age*. Everyman's Library.

HEGEL, GEORG WILHELM, *The Philosophy of Georg Wilhelm Hegel*, ed. Carl J. Friedrich. Modern Library, 1954.

-------, *philosophy of History*. New York, 1900.

-------, *philosophy of Right*, Great Books, Vol. 40.

HEILBRONER, ROBERT L., *The Worldly Philosophers*. New York, 1953.

HELVETIUS, CLAUDE - ADRIEN, De l'*Esprit, or Essays on the Mind*. London, 1807.

HEROLD, J. CHRISTOPHER, *Bonaparte in Egypt*. New York, 1969.

------,ed., *The Mind of Napoleon*. New York, 1965.

------, *Mistress to an Age: A Life of Madame de Stael*. Indianapolis, 1958.

HIRSCH, E. D., JR., *Wordsworth and Schelling*. New Haven, Conn., 1960.

HIRSH, DIANA, *The World of Turner*. New York, 1969.

HOBSBAWN, E. J., *The pelican Economic History of Britain*. Baltimore, 1969.

HOFFDING, HAROLD, *History of Modern Philosophy*, 2v. New York. 1955.

HORN, F. W., *History of the Literature of the Scandinavian North*. Chicago, 1884.

HORNE, R. H., *The History of Napoleon*, 2v. London, 1844

HOUSSAYE, HENRI, *La Première Abdication*. Paris, 1905.

------, *La Première Restauration*. Paris, 1905.

------, *1815: La Seconde Abdication*. Paris, 1905.

------, *1815: Waterloo*. Kansas City, 1905

HOWARTH, DAVID, *Trafalgar*. New York, 1969.

------, *Waterloo: Day of Battle*. New York, 1968.

HUGO, VICTOR, *Ninety - three, in Works*, Vol. VII. New York: University Society, n.d.

HUMBOLDT, ALEXANDER VON, *Cosmos*, 5v. London, 1845.

HUTT, MAURICE, *Napoleon*. Englewood Cliffs, N. J., 1972.

JUNOT, MME. ANDOCHE, DUCHESSE D'ABRANTES, *Memoirs of the Emperor Napoleon*, 3v. London, 1901.

KAFKER, F. A., and J. M. LAUX, *The French Revolution: Conflicting Interpretations*. New York, 1968.

KAUFMAN, WALTER, *Hegel: Reinterprtation, Texts and Commentary*. New York, 1965.

KERST, FRIEDRICH, *Beethoven in His Own Words*. New York. 1964.

KIRCHEISEN, F. M., *Memoirs of Napoleon I, Compiled from His Writings*. New York, 1929.

KORNILOV, ALEXANDER, *Modern Russian History*. New York, 1924.

KROPOTKIN, PETER A., *The Great French Revolution*. New York, 1909.

-------, *Ideals and Realities in Russian Literature*. New York, 1919.

-------, *Modern Science and Anarchism*. New York, 1908.

La Bruyere, Jean de, *Characters*. New York, 1929.

Lacroix, Paul, *Directoire, Consulat et Empire*. Paris, 1884.

Lamartine, Alphonse de, *History of the Girondists*, 3v. London, 1913.

Lanfrey, Pierre, *History of Napoleon*, 4v. London, 1886.

Lang, Paul Henry, *Music in Western Civilization*. New York, 1941.

Lanson, Gustave, *Histoire de la littérature française*, 12 th ed. Paris, 1912.

Las Cases, Comte Emmanuel de, *Memoirs of the emperor Napoleon*, 4v. New York, 1883.

Lea, H. C, *History of the Inquisition in Spain* 4v New York, 1906.

Le Bon, Gustave, *The Psychology of Revolution*. New York, 1913.

Lecky, William E, *History of England in the Eighteenth Century*, 8v. London 1887.

Lefebvre, Georges, *Etudes sur la Révolution française*. Paris, 1963.

-------,*The French Revolution*. London, 1962.

-------, *Napoleon*, 2v. New York, 1969.

Lemaitre, Jules, *Chateaubriand*. Paris: Calmann-Lévy, n.d.

Lenotre, G., *The Tribunal of the Terror*. Philadelphia, 1939.

Levy, Max, *Private Life of Napoleon*, 2v. New York: Scribner, n.d.

Lewes, George, *Life of Goethe*, 2v, in Goethe, *Works*, 14v in 7. New York, 1902.

Locy, William A., *Biology and Its Makers*. New york, 1915.

Longford, Elizabeth, *Wellington: The Years of the Sword*. New York, 1969.

Loomis, Stanley, *Paris in the Terror*.Philadelphia 1964.

Lowes, J. Livingston, *The Road to Xanadu*. New York, 1927.

Macaulay, Thomas Babington, *Critical, Historical, and Miscellaneous Essays*, 2v. New York, 1886.

MacLaurin, C., *Post Mortem*. New York: Doran, n.d.

Madelin, Louis, *The Consulate and the Empire*, 2v. New York, 1967.

------, *The French Revolution*. London, 1938.

------,*Talleyrand*. London, 1948.

MAINE DE BIRAN, MARIE - FRANÇOIS, *The Influence of Habit on the Faculty of Thinking*. Westport, Conn., 1970.

MAISTRE, COMTE JOSEPH - MARIE DE, *Les Soirées de Saint - Pétersbourg*, 2v. Paris: Garnier, n.d.

-------, *Works*, tr. Jack Lively. New York, 1865.

MALTHUS, THOMAS R., *An Essay on the Principle of Population, 1798 and 1803.* New York, 1926.

MANTZIUS, KARL, *History of Theatrical Art*, 6v. New York, 1937.

MARCHAND, LESLIE A., *Byron*, 3v. New York, 1957.

MARGOLIOUTH, H. M., *William Blake*. Oxford University Press, 1951.

MARKUN, LEO, *Mrs. Grundy: A History of Four Centuries of Morals*. New York, 1930.

MARTINEAU, GILBERT, *Napoleon's St. Helena*. New York, 1969.

MARX, KARL, and FRIEDRICH ENGELS, *The Revolution in Spain*. New York, 1939.

MASSON, FREDERIC, *Napoleon and His Coronation*. Philadelphia: Lippincott, n.d.

-------, *Napoleon at Home*, 2v. London, 1894.

MATHIEZ, ALBERT, *The French Revolution*. New York, 1964.

-------, *After Robespierre: The Thermidorian Reaction*. New York, 1931.

MAUROIS, ANDRE, *Byron*. New York, 1930.

MAYNE, ETHEL C., *Life and Letters of Anna Isabella. Lady Noel Byron*. London, 1929.

MCCABE, JOSEPH, *Crisis in the History of the Papacy*. New York, 1916.

MENEVAL, CLAUDE - FRANÇOIS DE, *Memoirs of Napoleon*, 3v. London, 1894 - 95.

MICHELET,JULES, *The French Revolution*, 2v. London, 1890.

MILL JOHN STUART, On *Bentham and Coleridge*. New York, 1962.

MISTLER, JOHN, ed., *Napoléon et L'Empire*, 2v. Paris, 1968.

MONROE, PAUL, *Text - book in the History of Education*. New York, 1928.

MOORE, F. J., *History of Chemistry*. New York, 1918.

MOORMAN, MARY, *William Wordsworth: The Early Years*. Oxford University Press, 1968.

------,*William Wordsworth: The Later Years*. Oxford University press, 1968.

MORLEY, JOHN, *Biographical Studies*. London, 1923.

MORRIS, GOUVERNEUR, *Diary and Letters*, 2v. London, 1889.

MOSSIKER, FRANCES, *Napoleon and Josephine*. New York, 1964.

MUSSET, ALFRED DE, *Confessions of a Child of the Century*. New York, 1908.

MUTHER, RICHARD, *History of Modern Painting*, 4v. London, 1907.

NAPOLEON, *Letters*, ed. J. M. *Thompson*. Everyman's Library.

------, *Letters to Josephine*, tr. H. W. Bunn. New York, 1931.

NELSON, HORATIO, *Letters*. Everyman's Library.

New Cambridge Modern History (NCMH), Vols. VII and IX. Cambridge, Eng., 1969.

NICHOLSON, HAROLD, *Benjamin Constant*. Garden City, N. Y., 1949.

NIETZSCHE, FRIEDRICH, *Beyond Good and Evil*. London, 1913.

------, *The Will To Power*. London, 1913.

NOLI, BISHOP F. S., *Beethoven and the French Revolution*. International Universities press, 1947.

O'MEARA, BARRY, *Napoleon in Exile, or A Voice from St. Helena,* 2v. Philadelphia, 1822.

ORTZEN, LEN, *Imperial Venus: The Story of Pauline Bonaparte Borghese*. New York, 1974.

OSBORN, H. F., *From the Greeks to Darwin*. New York, 1922.

OWEN, ROBERT, *A New View of Society*. Everyman's Library.

Paine, Thomas,*The Age of Reason*. New York, n.d.

-------, The Rights of Man. *Everyman's* Library.

PALMER, ALAN, *Metternich*. London, 1972.

--------, *Napoleon in Russia*. New York, 1967.

PALMER, R. R., *Twelve Who Died*. Princeton, 1970.

PASCAL, ROY, *The German Novel*. Manchester, Eng., 1957.

PAULSEN, FRIEDRICH, *German Education*. New York, 1908.

Pelican Guide to English Literature, Vol. V. Baltimore, 1963.

PETERSEN, HOUSTON, ed., *A Treasury of the World's Great Speeches*. New York, 1954.

PHILLIPS, C. S., *The Church in France, 1789 - 1848*. London, 1929.

PINOTEAU, HERVE, ed., *Le Sacre de S. M. l'empereur Napoléon*. Paris, 1968.

PLUMB, J. H.,*The First Four Georges*. New York, 1957.

POPE, DUDLEY, *The Great Gamble: Nelson at Copenhagen*. New York, 1972.

QUENNELL, M. and C., *History of Everyday Things in England, 1733 - 1851*. New York, 1934.

REAU, LOUIS, *L'Art russe*. Paris, 1922.

REMUSAT, MME. DE, *Memoirs*. New York, 1880.

ROBINSON, HENRY CRABB, *Diary*. London, 1927.

ROBINSON, JAMES HARVEY, *Readings in European History*. Boston, 1906.

ROBIQUEL, JEAN, *Daily Life in the French Revolution*. New York, 1965.

ROGERS, JAMES EDWIN THOROLD, *Six Centuries of Work and Wages*. New York, 1890..

ROLAND, MME., *Private Memoirs*. Chicago, 1900.

ROSE, J. HOLLAND, *The Personality of Napoleon*. New York, 1912.

ROSEBERY, ARCHIBALD PHILIP PRIMROSE, LORD, *Napoleon: The Last Phase*. New York, 1930.

-------, *Pitt*. London, 1908.

ROSEBURY, THEODOR, *Microbes and Morals*. New York, 1971.

ROSS, EDWARD A., *Social Control*. New York, 1906.

RUDE, GEORGE, *The Crowd in the French Revolution*. Oxford University press, 1959.

-------, *The Crowd in History*. New York, 1964.

-------, *Robespierre. Englewood* Clifts. N. J., 1967.

RUSSELL, A. G., *The Engravings of William Blake*. Boston, 1912.

RUSSELL, BERTRAND, *Understanding History and other Essays*. New York, 1957.

SAINTE - BEUVE, CHARLES - AUGUSTIN, *Chateaubriand et son groupe littéraire sous L'Empire,* 2v. Paris: Calmann - Levy, n.d.

--------, *Monday Chats*. Chicago, 1891.

--------, *Portraits of Celebrated Women*. Boston, 1868.

SCHELLING, FRIEDRICH, *The Ages of the World*. New York, 1942.

--------, *Of Human Freedom*. Chicago, 1936.

SCHOPENHAUER, ARTHUR, *The World as Will and Idea*, 3v. London, 1883.

SCOTT, WALTER, *The Heart of Midlothian*, in *Works*. New York: John W. Lovell, n.d.

--------, *Poems*. New York: A. L. Burt, n.d.

SEDGWICK, W. T., and H. W. TYLER, *Short History of Science*. New York, 1927.

SEELEY, J. R., *Life and Times of Stein*, 2v. Boston, 1879.

SÉGUR, MARQUIS DE, *Marie Antoinette*. New York, 1928.

SHELLEY, PERCY BYSSHE, *Letters*, ed. F. L. Jones, 2v. Oxford University press 1964.

---------, *Lost Letters to Harriet*. London, 1930.

---------, *Poems*, in *Complete Poems of Keats and Shelley*. Modern Library.

SIEYÈS, EMMANUEL JOSEPH, *What is the Third Estate*? New York, 1964.

SIGERIST, H. E., *The Great Doctors*. New York, 1933.

SOBOUL, ALBERT, *The Parisian Sansculottes and the French Revolution*. Oxford University press 1964.

SOREL, ALBERT, *Europe and the French Revolution*, Vol. I. Garden City, N. Y., 1971.

SOREL, GEORGES, *Reflections on Violence*. New York: Huebsch,n.d.

SOUTHEY, ROBERT, *Life of Nelson*. London, 1868.

STACE, W. T., *The Philosophy of Hegel*. New York, 1955.

STACTON, DAVID, *The Bonapartes*. New York, 1966.

STAEL, MME. DE, *Considérations sur les Principaux événements de la Révolution française*. Paris, 1845.

--------, *Corinne, or Italy*. New York: Crowell, n.d.

--------, *De la Littérature considérée dans ses rapports avec les institutions sociales*, translated as The Influence of Literature upon Society. Boston, 1813.

--------, *Germany*, 2v. New York, 1861.

--------, *Ten Years'Exile*. Fontwell, Eng., 1968.

STENDHAL (HENRI BEYLE), *La Chartreuse de Parme*. Baltimore: Penguin.

STEPHENS, H. MORSE, *principal Speeches of the Statesmen and orators of the French Revolution*, 2v. Oxford, 1892.

--------, *The Story of portugal*. New York, 1893.

STEVENS, ABEL, *Madame de Stael*, 2v. New York,1893.

STRAKHOVSKY, LEONID, *Alexander I of Russia*. New York, 1947.

STRANAHAN, C. H., A *History of French Painting*. New York, 1907.

SULLIVAN, J. W. N., *Beethoven: His Spiritual Development*. New York, 1927.

TAINE, HIPPOLYTE, *The Ancient Regime*. New York. 1891.

---------, *The French Revolution*, 3v. New York, 1931.

---------, *The Modern Regime*, Vol. I. New York, 1890.

---------, *Les Philosophes classiques du* XIX siècle en France. Paris, 1882.

TALLEYRAND - PERIGORD, CHARLES - MAURICE DE, *Memoirs*. 5v. Boston, 1895.

THACKERAY, WILLIAM MAKEPEACE, *The Four Georges, in Works*. Boston: Dana Estes,n.d.

---------,"The Second Funeral of Napoleon," *Roundabout Papers*, in Works. Boston: Dana Estes, n.d.

THAYER, A. W., *Life of Ludwig von Beethoven*, 3v. London. 1962.

THIERS, LOUIS - ADOLPHE, *History of the Consulate and the Empire of France under Napoleon*, 12v. Philadelphia, 1893.

THORNTON, J. C., *Table Talk from Ben Jonson to Leigh Hunt*. Everyman's Library.

TOCQUEVILLE, ALEXIS DE, *L'Ancien Régime*. Oxford University Press,1937.

TRAILL, HENRY DUFF, *Social England*, 6v. New York, 1902.

TREITSCHKE, HEINRICH VON, *History of Germany in the Nineteenth Century*, Vol. I. New York, 1915.

TREVELYAN, G. M., *English Social History*. London, 1947.

TURNER, p. M., and C. H. C. BAKER, *Stories of the French Artists*. New York. 1910.

UBERWEG, FRIEDRICH, *History of Philosophy*, U. Morris, 2v. New York. 1871.

VALLENTIN, ANTONINA, *Mirabeau*. New York, 1948.

VANDAL, ALBERT, *L'Avènement de Napoléon*, 2v. Paris, 1903, 1907.

---------, *Napoléon et Alexandre* Ier, 3v. Paris, 1896.

VAN DOREN, DOROTHY, *The Lost Art: Letters of Seven Famous Women*. New York, 1929.

VAN LAUN, HENRI, *History of French Literature*, 3v. London, 1876.

WATSON, J. STEVEN, *The Reign of George III*. Oxford, Eng., 1960.

WEIDMAN, FRANZ, *Hegel: An Illustrated Biograpby*. New York, 1968.

WHITE, R. J., *Political Tracts of Wordsworth. Coleridge, and Shelley*. London, 1953.

WIENER, LEO. *Anthology of Russian Literature*, 2v. New York, 1902.

WILLIAMS, HENRY SMITH, *History of Science*, 5v. New York, 1909.

WILSON, P. W., *William Pitt, the Younger*. New York, 1934.

WINGFIELD - STRATFORD, ESME, *History of British Civilization*. London, 1948.

WINWAR, FRANCES, *Farewell the Banner*. New York, 1938.

WOLF, A., *History of Science, Technology and philosophy in the Eighteenth Century*. New York, 1939.

WOLLSTONECRAFT, MARY, *A Vindication of the Rights of Woman*. New York, n.d.

WOODS, WATT, and ANDERSON, *The Literature of England*, 2v. Chicago, 1936.

WORDSWORTH, DOROTHY, *Journals*, ed. Mary Moorman. Oxford University press, 1971.

WORDSWORTH, WILLIAM. *Complete Poetical Works*. New York: A. L. Burt, n.d.

WORDSWORTH AND COLERIDGE, *Lyrical Ballads*. Oxford University Press, 1969.

WRIGHT, RAYMOND, *Prose of the Romantic Period 1780 - 1830*. Baltimore: Penguin (Pelican).

YOUNG, ARTHUR, *Travels in France During the Years 1787, 1788, and 1789*. London, 1906.

ZWEIG, STEFAN, *Joseph Fouché*. New York, 1930.

المحتويات